

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190571

UNIVERSAL
LIBRARY

تَلَاُءُ قَيْشٍ

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الثالثة من سلسلة الروايات التاريخية الإسلامية

- ✽ ننضم تفصيل مقتل الخليفة عثمان وخلافة ✽
- ✽ الامام علي وما نجم عن ذلك من ✽
- ✽ التثنية واقعة الجمل واقعة صفين ✽
- ✽ الى تحكيم الحكمين وخروج مصر ✽
- ✽ من خلافة الامام علي ✽



✽ تأليف ✽

عربي زيدان

(منشئ الهلال)

نشرت ملحقاً بالسنة السابعة من الهلال

(طاعت مطبعة الهلال بشارع النجالة بمصر سنة ١٨٩٩)

السيرة المتصلة

✽ رواية غرامية تاريخية . الطبعة الثانية ✽

✽ تأليف مؤلف هذا الكتاب ✽

قد ادرجت فيها الحوادث المصرية وهي عرابي والمنهدي السوداني وما تحل ذلك من الاحوال والاعمال بحيث يتقبل القارىء انه شاهد تلك الاماكن عياناً وحضر كل الوقائع وقد دخلت في هذه الرواية ايضاً حادثة سنة ١٨٦٠ في دمشق الشام ومن ابطالها عرابي وكيف نشأ والمنهدي وكيف ظهر وهيكس باشا وكيف تكب وغوردون باشا وكيف قتل وانقرطوم وكيف سقطت وتنصّل الحوادث العرابية من اولها الى آخرها . ثمن النسخة عشرة غروش مصرية واجرن الوسطة غرشان (تحت الطبع)

جهاد المحبين

✽ رواية ادبية غرامية ✽

✽ تأليف مؤلف هذا الكتاب ✽

تشتل على حوادث غرامية ادبية حدثت وقائعها في العهد الماضي من هذا القرن في مصر والاسكندرية وفيها ما يدل عليه اسمها ما يقاسيه المحبون جهاداً في سبيل الحب . ثمن النسخة ٦ غروش مصرية او فرنك ونصف واجرن الوسطة غرش ونصف

تَلَاُفِيشْ

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الثالثة من سلسلة الروايات التاريخية الإسلامية

✧ تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان وخلافة ✧
✧ الإمام علي وما يحم عن ذلك من ✧
✧ التثنية وواقعة الجمل وواقعة صفين ✧
✧ إلى تحكيم الحكمين وخروج مصر ✧
✧ من خلافة الإمام علي ✧

—❦—

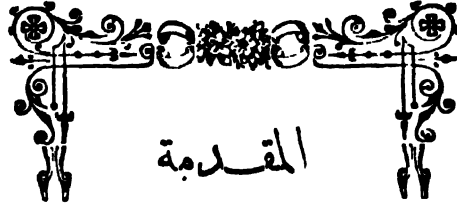
✧ تأليف ✧

عربي زيدان

(منقش الهلال)

نشرت مطبعة بالسة السابعة من الهلال

(طبعت بمطبعة الهلال بشارع البجالة بمصر سنة ١٨٩٩)



✽ عذراء قریش ✽

هي الحلقة الثالثة من سلسلة الروايات التاريخية الاسلامية التي نشرها تباعاً في الهلال نبسط فيها تاريخ الاسلام على اسلوب الرواية تشويقاً للمطالعة وتمثيلاً للحوادث حتى تقرب من اذهان القراء . فالحلقة الاولى هي « فتاة غسان » نشرناها في جزئين مثلاً فيها حوادث التاريخ الاسلامي من ظهور الدعوة الى فتح الشام والعراق . والثانية « ارمانوسة المصرية » شرحنا فتح مصر بنفاصيله . واما الثالثة فهي « عذراء قریش » هذه وهي تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان وخلافة الامام علي وما نجم عن ذلك من الفتنة وواقعة الجمل وواقعة صفين الى تحكيم الحكيم وخروج مصر من خلافة الامام . وهي اول فتنة ظهرت في الاسلام

وقد نشرنا « عذراء قریش » ملحقاً بالسنة السابعة من الهلال ولكن ما احدثته من حركة الازهان وما آتسناه من استحسان القراء لما واعجابهم بها حبياً اليها طبعها ونشرها على حدة . ونسئعن الله في مواصلة نشر هذه السلسلة التاريخية الاسلامية رواية اثر رواية الى آخر تاريخ الاسلام . واول رواية سننشرها بعد هذه تتضمن تفصيل مقتل الامام علي وخروج الخلافة من اهل البيت الى بني امية سنظهر تباعاً في السنة الثامنة من الهلال . والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل

الفصل الاول

—* قباء *

قباء قرية على ميلين من المدينة (يثرب)^(١) اشتهرت بعد الهجرة بنزل صاحب الشريعة الاسلامية فيها اثناء هجرتهم الى المدينة فبنى فيها مسجداً هو اول مسجد بني في الاسلام^(٢) وله كرامة خصوصية لانه اسس على النفوى واول من بنى فيه حجراً صاحب الشريعة نفسه^(٣) وكانت قباء في خلافة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين قد اشتهر امرها وعرفت كرامة مسجدتها على اثر انتشار الاسلام واتخاذ الخلفاء كرمي ملكهم في المدينة مع ما بذلوه من العناية في تحسين ذلك المسجد وخصوصاً الخليفة عثمان فانه وسعه وزاد فيه وارقف عليه المحجابين والخدمة . على ان ذلك لم يزد شيئاً كثيراً في سكان قباء نفسها

وكان لذلك المسجد في اواخر خلافة عثمان خادم طاهن في السن اسمه عامر شهد ببناء المسجد بنفسه ورأى صاحب الشريعة يوم نزل هناك وامر ببناء المسجد فاوقف حياته لخدمته فاقام في قباء هو وعياله يقضي بهاره في حراسة الجامع ويقوم بتنظيفه وسدائه فاذا فرغ من ذلك خرج مع اولاده لرعاية اهل بعض اغنياء المدينة في بعض الاودية او المستنقعات التي تكثر في ذلك الجوار

ففي مساء يوم من ايام سنة ٢٥ للهجرة خرج الشيخ لرعاية الابل فاوغل في بعض الاودية فاقترب الغروب وهو لا يعلم فاسرع بالرجوع فركب ناقته وارضى لها الخطام واستخرج مسلة كان قد غرسها في شعر رأسه المتلبد ووخر بها الناقة بين جنبتيها استخفافاً لها في المسير فطارته به واولاده يتبعونه بقية النوق وقد ركب اصفرهم وهو عارٍ على ناقه عارية وركب آخر على أخرى وإمامة بعض الاخشاب او العيدان وقد جمعها من متساقطات الشجر ليقعدوا نارهم بها . والجمال يحملونها غل من الحنط امي انها سائبة بلا ارسان . وكان الشيخ اكثر الجميع عجلة يلتبس المسجد قبل ان تغيب الشمس فيفوت وقت الصلاة ورأى الشمس تسرع في الهوط ففجئ له انها تسابقه فجعل

(١) هم ياقوت (٢) السيدة الحلي (٣) ابن هشام

بستخت نافتة جهد طاقته غير مال بحمال تلك الساعة وهي احمل ما تكون في الصحراء وقد استطالت الاظلال حتى اخلط بعضها ببعض فلم تعد تتميز اظلال الخيل من اظلال البلسان او السنط وامتزجت اظلال الاشجار باظلال الآدميين او اللوق وقد غل شجينا بعلمته ولهته عن شذاه الرجمان والفصعين وغيرها من نبات الصحراء ولم يستوقف سمعة شدو البلال ولا نقيق الضفادع . على انه لم يكذب بشرف على قباء من اكمة حتى سمع رعاء الجمال وصهيل الخيل بجوار المسجد فاسرع فرأى هناك ركبا ومعهم الجمال والاحمال ولم يستغرب ذلك وقد تعود ان يرى كثيرا من امثاله كل عام لان القوافل يذهابها الى المدينة كانت تمر بقاء فتقف للراحة والاستقاء . فحبل له انها قافلة امسى المساء عليها فارادت المبيت هناك والاستراحة فازداد رغبة في العجلة ليقوم بخدمة القادمين مخافة ان يسبوه الى الفصور . وجول وجهه الى الورا فنادى احد اولاده وقال له اسرع ما ولدي الى البيت فاحمل اليّ جرة الماء لعل هؤلاء الركب يجناجون الماء شرب

الهصل الثاني

على فراش الموت *

وما زال الشيخ مسرعا وهو كلما اقترب من المسجد وتوقع ان يبين الوحوه عارضة تكاثف التيق حتى اقترب فاذا هم ركب ومعهم الافراس والجمال وبصعة رجال وفتاة وقد نجعلوا جميعا يجنو ولهة حول هودج عليه الاستار وفيه مريض شديد الدف يحاولون اخراجه الى مقعد في خيمة نصبوها بالقرب منه فتنفس الشيخ في اولئك الناس فعلم انهم قادمون من الشام الى المدينة فحجب لمرورهم بقباء وهي ليست في طريقهم اليها . ونظر الى كبيرهم فاذا هو كهل عليه لباس عرب الشام من القباء والرداء والعمامة ويجانبه شاب حسن البزة عليه عباءة من القصب وسبنة مرصع ووراءه خادم يحمل له الرمح والنبال . وعلى مقربة منها فتاة غضة الشباب قد اشرق وجهها صحة ونشاطا على رأسها كوفية مشدودة بعقال وقد ارسلت اطرافها الى ظهرها حتى تجلي نور وجهها

بما اكتسبه من التورّد على أثر التعب وركوب الجواد أياً ما في طريق الصحراء . فلما رآها الشيخ اجذبت نظره واستلقت انتباهه لما آنسه فيها من الاهتمام بامر ذلك المريض وتسلفها على اذهان رفاقها لأنها كانت ترتدّهم في كيفية حملهم ومداراة في نقله ووضعهم فترجل الشيخ عن ناقته وصاح يا هلا بوجوه العرب وتقدم لمساعدتهم وتفرس في المريض فإذا هو امرأة في حدود الأربعين قد بلغت حد الذئاب وتولاها الصعف حتى لا يجالها الباطر الأميّة . فعرض عامر نفسه للخدمة فأشارت إليه الفتاة ان لا يدوس من المريضة لأنهم إنما يريدون حملها بأنفسهم على اذرعهم فتخفى وأمر اولاده ان يساعدوا الخدم في نصب الخيم وإزالة الاحمال وسقاء الخيل والافراس وغير ذلك وسار هو الى المسجد للاداء والصلاة

فاشتغل الركب في نقل المريضة وأكثرهم عناية في ذلك الفتاة واسمها اسماء فانها لم تعمل عن اعداد كل وسائل الراحة في نقلها حتى حملتها على ذراعها . ولا عجب فان المريضة والدتها وقد شبت على حبها . وأما الكهل فهو زوج المريضة واسمها يزيد وكان قليل العناية في امرها إلا بما توجّه إليه الفتاة . وأما الشاب الحسن البرّة فاسم مروان وكان الاغحاب ظاهراً على وجهه لما يعلمه من نفوذ لقرابته من الحليفة عمار بن عثمان

الفصل الثالث

❖ عذراء قریش ❖

فلما نقلوا المريضة الى فراشها جلست أسماء الى جانب رأسها وأخذت تمسح لها العرق عن وجهها بمديلبها والأُمّ غائبة عن الصواب واسماء شاخصة اليها والدموع ملء عينها ولكنها كانت تتجلد ونصرت نفسها فخرق أسنانها لئلا يغلب البكاء عليها فتسرع والدتها نحبيها فيزداد تألماً . فكادت تمسح دموعها بالمندبل خلصة ونظرها لا يتحوّل عن وجه المريضة لحظة لا تلتفت بمة ولا يسرع . وكان الليل قد سدل نقابة فجاءهم عامر بمصباح أدخلوه الخيمة والفتاة لا تبهمها إلا النظر الى والدتها لعلها تنزع عينها أو تحرك شفتيها

أو تنتمس أمراً فتقدمه إليها لا نعبأ والدها ولا بذلك الشاب الذي قطع البراري والقفار في خدمتها لعله يكتسب قلبها وهي تكن أن تراه . وكان قد طلب الاقتران بها منذ كانوا في الشام فرضي الوالد ولم ترضَ الوالدة ولا الفتاة . والوالد انما رضي بذلك رغبة في الدنيا وطمعاً بمصب يناله من الخليفة عثمان بواسطة مروان اذا صار صهرًا له . ولم يكن فيو حنو الوالد لأنه يعلم كما تعلم امرأته نفسها ان تلك الفتاة ليست ابنته ولكنه لم يكن يعرف والدها لأنه تزوج أمها سبيبة من سبايا مصر يوم فتحها عمرو بن العاص سنة ١٨ للهجرة واسماء في السنة الثانية من عمرها . فلم يكن يهتم بمعرفة والدها وبعد فتح الاسكندرية عاد الى الشام فأقام فيها مع أقاربو من بني أمية فلم تلد له أولاداً

وكان يزيد كهلاً أشمط الشعر قصير القامة خفيف العصل متعبد الوجه غائر العينين طامعاً يحب المال فوق كل شيء سيء الخلق لا ذمة له ولا ذمام . وكان أهل الشام يعنفون ان اسماء ابنته ولكن الناقد يرى لا أول وهلة انها تختلف عنه خلقاً وخلقاً فقد كانت من الهيبة والجمال على جانب عظيم جمعت لطيف النساء وحزم الرجال وشجاعهم لا يستطيع الناظر اليها الا ان يحترمها واذا خاطبها آس فيها رقة وائفة ودعة وعزة . وكانت ربعة القوام ملائمة الجسم حنطية اللون سوداء العين حادتها طويلة الاهداب مقفلة الحاجبين صغيرة الم سهلة الجبين عظيمة الهيبة لا يستطيع الناظر اليها ان يتفرس في ملامح وجهها لعظم هيبتها فاشتهرت بين أهل الشام بكل خلق حسن فأحبها مروان وجعل يتقرب منها وهو يحسب تقربه منه وكرماً وكان يظنها لا تلبث ان تعلم ببيلو حتى تطير فرحاً لأن حالها من الدنيا يخط عن حاله كثيراً فهي من عامة الناس وهو ابن عم الخليفة عثمان . وكان هذا الخليفة كما لا يخفى يؤثر ذوي قرابته من بني أمية ويقدمهم في مناصب الدولة ويفتح لهم أبواب الرزق الاًمر الذي آكل الى قيام المسلمين عليه حتى تمحدثوا في عزله وكانت الفتنة المشهورة . وما زال مروان يتردد الى منزل يزيد وكلأها من بني أمية فيحتفل يزيد به ويود لو أنه يتزوج ابنته فيعطى لدى الخليفة بمنصب رفيع حتى حدثه مروان في ذلك فاجابه وأكد له انه نائل الفتاة لا محالة اعتماداً على عادة تلك الايام في أمر الزواج فقد كان الرأي راجعاً الى الوالد في كل شيء

ولكنه ما لبث ان خاطب امرأته في الامر حتى آس منها اعراضاً واباء ولكنها لم

تكن نعارضة دفعة واحدة بل كانت تدافعه وتماطله . وادركت النثاء ما بينها من أجلها
فاظهرت نفورها من مروان لأنها لم تكن تعنده بزخارف الدنيا ولكنها كانت تهوى الشهامة
وكرم الأخلاق فلم يقع مروان من نسيها موقعاً مقبولاً فتمكنت الوالد من الرضى ويزيد
يزداد المحاحا . فخافت ان يستعمل العنف في تنفيذ ما ربه فوقع في حيرة ولشدة ما
قاسته من المقاومة أصيبت بالحسّ ووهت قواها فخافت الموت فطلعت ان يحملوها
الى المدينة فنجيهم الى طلهم هناك فتسلم لشدتها أما مروان فسرّ لذلك السر لأنه
اذا جاء المدينة كان بالقرب من ابن عمه الخليفة عثمان فاذا عادت الوالد الى التردد
هددها بنفيها . فخافا في قافلة ومعهم الخدم من رجال مروان فكان ذلك السفر سبباً
في اشتداد المرض واساء لا تعلم السر في ذلك الانتقال . فخلت ذات يوم بوالدتها
وعاتبها على ما حملت نفسها من المشقة فأسرت اليها انها اتتوي الالتجاء الى علي بن
أبي طالب لعله ينقذها من أيدي الظالمين لما اشتهروا من غوث المظلومين وماله من
المكانة عند الخليفة وغيره من المسلمين . وما زال المرض يشتد بها يوماً عن يوم وزوجها
ومروان يودان ان تقضي نحبها قبل الوصول الى المدينة لأنها تنسأ شيئاً من حقيقة
غرضها فكانا يطيلان مدة المسير وبقودان القافلة في طرق طويلة وفي جملة ذلك
مرورهم بقاء وهي في الجنوب الشرقي من المدينة (١)

فعند وصولها اليها اشتد المرض عليها حتى عابت عن الصواب وكان النهار قد
انقضى فانزلوها هناك كما تقدم

الفصل الرابع

— سرّ ذاهب الى القبر — ❖

وكانت تلك المريضة كهلة في نحو الاربعين من عمرها بيضاء اللون رومانية
الملايح كبيرة العينين اسمها مرم وقد رادها الضعف محوذاً وما امكت منذ نقلوها الى
الفراش وهي في سنات عميق واساء الى حالها وسدها المندبل تمنح به جيون والدتها
وتستلقي به دموعها لا تأذن لاحد ان يأتي حركة لتلا يزعم النائمة . ولكنها لم تكن

تستطيع الفرس في ذلك الوجه الممتع وتبيك العينين الجاحظتين والشفتين المكمدتين والعنق المستدق وقد غشاه من الجاسين شعر اسود بحالته بعض الشيب فلما بلأه عرق الحمى تجمع خصلًا متلاصقة . وما كان يحميها ، نوع خاص ذلك الصدر الذي يكاد يكون عاثرًا لفرط الضعف وذلك ألم تنديها مع ما يستطال حتى رر فكتاه واستدق الانف وطهر بارزًا . فلم تكن اسماء تنأى عن ذلك حتى يمتلئ قلبها وتخاف الموت على والدتها في تلك العربة فكسب محمد إلى يدها يدها ليعتق حرارتها ففرى العرق البارد يسكب عن اناء لها فترفع فرائضها وما رادها ملا . وشفا . ان والدتها ما برح منذ نزولهم هناك مخنولًا بهروان في حبه . لا يدخل خ . امراته اذ قليلًا فاذا دخل تظاهر بالاهاثم وسأل عنها والمكر والرياء طاهران على وجهه . ولما مروان فكان اذا دخل الحجرة دخل متعثرًا لا يدوم من الدرس واذة يدار الى اسماء وينسم كأنه يداعبها وهي لا تستطيع الانقسام ولا تفادى ، انظر اليه

فلما كان العشاء حركت الائمة رأ . بها وتغمد . عينا وحولت حدقتها نحو اسماء . وقد بهتتا من شدة الضعف فهتت التناء واذة وكما آزار . ليتاني أوامرهما وسألها اذا كانت تحتاج الى شيء . فاستارت لتطلب الماء فالتفت الى قدح فيه ماء ادته من شفتيها فشربت منه قليلًا فانبط وجده اسماء وعاداه لما اليه وانصبت تنظر ما تأمرها به فلما لم تقل شيئًا انحمت على حبيبها فنبذته وامسكت يدها بلطف وقالت لها هل تريد شيئا يا أماء

فاجابتها بصوت ضعيف وعياها شاخصتان اليها قائلة « لا لا اريد شيئا غير سلامتك ولكنني اراني لا استطيع الوصول الى المدة . ولا اضفي اعيش الى الغد فقد شعرت بدنو الاجل » قالت ذلك والدموع تساقط من عينيها فتخط بعرقها فلما سمعت اسماء كلامها ورات دموعها اقتنعت جسمها وخضو قلبها ولكنها تجللت وتظاهرت بالانقسام قائلة لا سمح الله بسوء بصيكت . يا أماء فالك ستعجبين في خير فتركب معًا الى المدينة باذن الله

فنبسمت نسماً يمازجه نكاه وقالت « لا يا ولدي لا ارجو . الى الغد وما اما آسنه على هذا الدنيا ولكن في نفسي امرًا اود قصاه قبل الوفاة »
قالت اسماء وما هو ذلك الامر يا أماء

قالت هو ان النبي علي بن ابي طالب فاخلعني دنتين قل الموت

قالت عدا انتقي في المدة . فحاشا بي

قالت « قلت لك اي ارحوا ان اري صاح العبد ناوادي »

فهمت اسماء والدتها تنادها وهي تحاول حش الدمع فتمتها مريم الى صدرها
يتوق لم تكن اسماء بعدد ما فيها وعانتها تنساقط دموع اسماء بالرغم عنها ثم احسبت
بدموع امها تنساقط على عاتقها بخفة تازج ذلك العرق البارد . فاوغلت كتفها في
انكباء . واكن اسماء خائبة عني والدتها من « دى فنهضت وتظاهرت بالتجملد وقالت
لا بأس عليك يا امنا . بل تنامين عتيا لئلا يسب شي

قالت ام ونساء آخر هو سر . لكنه في ضياعي اعواما طويلا وقد ان لي
ان ابوح .

فقالت ما العزاد .

قالت . قدموني اني دولوا له . ان امراء على فراس الموت تلتبس لتياك لتبلك
سرا وتسكوبات امرا

فنهضت اسماء الى الخارج فرأت والدتها ومروان واقفين باراء مخلة في الظلام
كأنهما يتداران ولما راياها خارجة اسرعا نحوها معا وقالا كيف والدتك لعلها في خبر
فاجابت امهم قد افقت وطلعت ان ترى علي بن ابي طالب

قال والدتها وكيف . لكن ان راء الآن وهو في المدينة

قالت لقد طلعت استاذ امه اليها بالحاج

قال مروان استغف منه !! ومن يستدع ذلك

قالت اظنه لا يا بني الحبيب اذا قيل له ان امرأة في حالة التلف تلتبس مقابلتك
وهو في ما اشتهر به من كرم الاخلاق

قال لا انكر كرم اخلاقه ولكنه الآن في شاغل كبير من حال المسلمين واختلافهم
على الخليفة

قالت واي اختلاف

قال سمعت قبل خروحننا من الشام ان اهل الاعمال ناقدون علي عمان لأنه يؤثر
ذوي قرابته فيولي المال منهم ويعزل الذين ولائم اسلافه . وبلغني ان اهل

مصر خرجوا يلتمسون المدينة ليشكوا امرهم الى علي لعله يتوسط في ما بينهم وبين عثمان . وكذلك فعل أهل البصرة وأهل الكوفة وأظنهم وصلوا المدينة الآن فاذا وصلوها كان علي في شغل لا يأذن له بالخروج

قالت وقد مات الجدال ان والدتي تطلب علياً بالحاح فما علينا الا ان نبعث في طلبه قال فلنبعث واحداً من رجالي واذهب أنا في أثره استعجلة في انفاذ المهمة . قال ذلك وأمر واحداً منهم ركب واسرع نحو المدينة ثم ركب مروان في أثر وعادت اسماء الى الدنياه فاذا هي قد عادت الى الغيبوبة واستغرقت في السبات

فمكثت ساعة في انتظار الرسول فلما استبطأته برحت الخيمة ونظرت نحو المدينة والضلام حالك فلم تر احداً فصعدت الى مرتفع اشرفت منه على ابنية المدينة هن بعد فلم تر منها الا المسجد النبوي لما فيه من الانوار التي تشعشع في بعض جوانبه ولولم تصعد الى ذلك المرتفع لم تشرف على المدينة لانها قائمة في منبسط من الارض تحديق بها جبال تغدر منها السيول على اثر الامطار فيصبح السهل المجاور لها مستنقعات وآباراً تجتمع فيها المياه مدار السنة وتنمو حولها اشجار الصنفاص والبلسان والفجل وكثير من الاعشاب . فلما اطلت اسماء على المدينة ظهر لها ما بينها وبين قباء من مجتمعات المياه وقد انعكس على سطحها اشعة الكواكب ضئيلة لعد المسافة غير ان ذلك لم يكن ليشغلها عن هواجسها في مرض والدتها فعادت مسرعة الى الخيمة فرأت بزيداً قد توسد الارض خارج الخيمة ونام فأسفت لما رأت من قلة أكتراثه وضعف احساسه . لكنها لم تستغرب ذلك والدنياه صرحت امامها غير مرغ ان هذا الرجل ليس والدها الحقيقي وكانت اسماء تلح في استطلاع اسم والدها وأنها تعدها بالجواب من وقت الى آخر . فلما رأت ما بلغت اليه والدتها من الضعف في تلك الليلة خافت اذا اصابها سوء ان يبقى والدها الحقيقي مجهولاً عندها فدنت من فراشها وهي لا تزال غائبة فامسكت يدها الباردة ولمست جبينها الرطب بما يتساقط عنه من العرق فاضطرت جوارحها وخافت ان يصيب والدها سوء وهم في ذلك الفتر واستنكفت ان تخاطب والدها في الامر احتقاراً له فهمت بالخروج لاستقدام خادم الجامع لعلها تشاهد عنده امرأتين تتأنس بها فرأت والدتها تحرك رأسها وترفع يدها كما بها تشير اليها ان تندنو منها فدنت وهمت بها فقبلتها وقالت ماذا تريدن يا أمه

قالت ألم يأت علي* بعد
 قالت لم يعد رسولنا
 قالت أخاف أن لا يعود وقد تند صبري وخارت قواي . استقدموا علياً قبل ان
 تنوب الفرصة
 فقالت لا يلبث علي* أن ياتي . ألا نوحين لي بما تريدن ان نقوليه له . ألم بان
 لي أن أعرف من هو والدي
 قالت سنعرفينه متى جاء علي* . ثم تنهدت وقالت آه متى ياتي

الفصل الخامس

❖ المدينة المنورة ❖

فلما سمعت أسماء ذلك نارت الحمية في رأسها ومأمت الانتظار مع ما تعلمه من
 غرض مروان فخافت ان يكون ذهائ في أثر الخادم سبباً في ذلك التأخير والوقوع
 ثمين فعولت على المسير بنفسها وهي لم تدخل المدينة قبل ذلك الحين ولكنها استسهلت
 كل صعب في سبيل مرضاة والدتها مع شدة رغبتها في استطلاع ذلك السر فشدت
 الكفوف حول رأسها وتأنت بها حتى لم يبق ظاهراً إلا عيناها وتزملت بالعباءة فوق
 نياها فأخفت رداءها النسائي وركبت جوادها وكان لا يزال مسرجاً وأيقظت
 والدها وأوصته بالدتها خيراً وهمت بالخروج فلم يضاوعها قلبها خوفاً على والدتها
 فوقفت متخيرة ثم تذكرت خادم الجامع فسارت اليه وكان قد فرغ من الصلاة فسألته
 عن امرأت فقال هي في خدمتك وناداه فجاءت فاذا هي عجوز ولكنها نشيطة سمحة
 الوجه فاوصبها ان تساعد والدها في السهر على والدتها في أثناء غيابها وخرجت ولم
 تخبر والدتها لئلا تمنعها من الذهاب واتخذت انوار المسجد النوي وجهتها وهزمت الجواد
 وكان من اصائل الخيل فجرى وهو تارة ينوص في مستنقع وطوراً يبعد على أكمة وهي
 لا ترى شيئاً لفرط قلقها واضطرابها إلا اشباح الغيل والبنسان وربما حديدتها لسرعة جري
 الجواد انها سائمة لهما . وكانت كلما سمعت قرعة او صليلاً تحسب رسولها عاتقاً ثم لا

نرى أحداً وهي بالحقينة لم نسمع إلا تيق الضنادع وصرير الصراصير ووقع حوافر الفرس حتى دنت من سور المدينة واهتدت إلى بابها فدخلت منه إلى أسواق ضيقة منعرجة لا يكاد الفرس يستطيع المرور فيها^(١) فرأيتها على ضيقها مزدحمة بالناس وأكثرهم من الغرباء فعلمت أن ما قاله مروان صحيح فسلت رجلاً يبيع الثمر عن منزل علي فدلها عليه وهو يحبسها رجلاً فهمزت الجواد وأسرعت فلم تبلغ باب المنزل حتى كما جوادها فسهطت وكادت تصيب حنيتها فاستلقت الأرض سديها وإصاب رأسها نخلة قائمة أمام الباب فتهشم قليلاً ولكنها لم تنال بل نهضت وانست باب المنزل ولم تكد تدركه حتى سمعت صريه فوقفت تنتظر فحة فخرج إليها منه شاب طويل القامة لم يتبين وجهه لشد الظلام وكان قد سمع كيو الجواد فأسرع نحوه فرأى فارسة قد وقف وهو لا يزال ملتماً فاستقبله وسأله عن خبره وهو بظنه رجلاً

فقالت أساء الله مولانا علياً في المنزل

قال كلاً ليس هو هنا الآن ماذا تبغي منه وأرى من هفتك وعجلك أنك آت في أمر ذي بال فما خبرك

قالت نعم لقد جئت بأمر هام ولكني لا أقوله إلا لعلي بنفسه . ابن هو قال أنه خرج في الغروب إلى المسجد وقد مضت صلاة الغروب وصلاة العشاء ولم يعد فهل تذهب معي للتنيش عنه هناك

قالت نعم هلم بنا وإجماع على مقربة منها فمشيا وكل منهما يتوقع الوصول إلى باب المسجد ليرى وجه رفيقه في الضوء لعله يعرفه . وكان الشاب أكثر رغبة في ذلك لأنه استغرب صوت أساء . ولم يتبين شيئاً من ثيابها لالتفافها بالعباءة والكوفية أما هي فمشت نفود جوادها وراءها حتى وصلا الجامع فإذا هو مزدحم بالناس بين جاثٍ وواقف ولم يبق موقف لطفل وكلم صامتون وقد تكاثفت انفسهم وانبعثت من باب الجامع حارة متزجة برائح أجسامهم وأثوابهم حتى لقد يشعر المار بالازدحام وإن لم ير الناس فلما وصل الرفيقان إلى الباب واستنارا بمصابيح الجامع نظر كل منهما إلى زميله لعله يعرفه فرأت أساء أن رفيقها رجل حسن اللباس يظهر من عجل حاله أنه من كبار الصحابة وبعض أولادهم . أما هو فلم ير غير اللئام فاستغرب ثلثها والحشمة منعته عن التعري

الفصل السادس

﴿ عثمان بن عفان ﴾—

وارادت اسماء الدخول الى الجامع فامتنع عليها المرور لكثرة الازدحام وهيبة الاجتماع فوقفت عند الباب وهي على مثل الجمر والرفيق الى جانبها وقد تذر من ذلك الانتظار فارتاحت لما آسئ من شعوره معها وعلمت ان الدخول الى علي يستحيل اذ ذاك فدعاها الرجل للا تراحة على البطء وهي مقاعد من الحجر أو الخشب أنشأها عمر بن الخطاب خارج الجامع يجلس عليها الناس للاستراحة او المحادثة أو المناشة فلم تستطع اسماء جلوساً لعظم قلقها ولكنها التمس مكاناً تربط فرسها فيه اذا اضطرت لدخول الجامع فأمر رفيقها غلاماً من يلتقطون النوى في اسواق المدينة وهم كثيرون^(١) ان يمسك الفرس فامسكه وسار به الى مواقف الخيول بين الاشجار هناك أما اسماء فنظرت الى صدر المسجد فرأت على مسرع رجلاً ربعة ليس بالطويل ولا القصير حسن الوجه لولاً ما عليه من اثر الجدي كبير اللحية عظيمها وقد صرّها بالحناء اسمر اللون اصلع الرأس عظيم الكرادير عظيم ما بين المنكين وكان واقفاً على المدر^(٢) وقد نوكأ على سيف واجال نظره في المحصور وهم بالكلام . فنظرت اسماء الى رفيقها مستهمة عن الرجل

فقال انه الخليفة عثمان بن عفان يخطف في الناس

فقالته العله هذا الجمع كله من اهل المدينة

قال كلاً بل هم وفود اهل مصر والبصرة والكوفة وقد جاؤا يشكون عثمان هذا ويتذمرون من تصرفهم فشكوه الى علي فأبى علي في هذا الصباح فاستدعاهم الى هذا المسجد ليخطف فيهم واظنه سيلمس لنفسه عذراً فلنسمع ما يقوله

فنظرت اسماء الى الخليفة وعيناها لا تقفان عنده لتضع حواسها فرأت بجانبه رجلاً عرفت انه صاحبها مروان فقالت في نفسها شئ الشاب هو لقد جاء الى ابن عمو وسي المهمة التي جعل نفسه متبرعاً في انمامها . وجالت نظرها في الجمع متفرسة لعلها

تري علياً على انهما لم تكن تعرفه فقالت لرفيقها ألا ترى علياً بين الجموع
قال اظنني رأيتهُ . نعم اني اراه جالساً جنوباً بقرب المنبر وقد أطرق ينكر .
ف نظرت اليه فاذا هو فوق الربيعة ضخم العضل جميل الخلفة وقد وخطه النسيب فلم
يصغ شعراً ولا است فيو على شدة هواجسه ابتساماً ظاهراً في وجهه فشعرت عند رؤيته
بارتياح^(١) واستأ نست بطلعنو وحدثنها نفسها ان تخترق الجاهير اليه فاوقفها الحياء
وعلمت انها اذا فعلت ذلك شوشت الاجتماع فضلاً عما في هذا العمل من الوقاحة .
فلثت تنتظر فروغ الخطيب من خطابه وهي كأنها على الجمر

أما عثمان فإنه انتصب كما تقدم ويمناه على السيف وهي ترعش لعظم تأثر ثم
مسح لحيته بسراه ومشط شعرها باصابعه والارتماش ظاهر عليه لعظم الاضطراب .
فحمد الله وإثني عليه وصلى على الرسول ثم قال وصوته ينقطع :

« يا اهل الامصار قد جئتم من البلاد البعيدة تطالبونني بامور لم أكن انا الذي
ارتكبتها وحدي فان صاحبي اللذين توليا اموركم قلبي (يريد ابا بكر وعمر) قد
ظلموا انفسهما . وان رسول الله (صلم) كان يعطي قرابته . وإما في رطط اهل عيلة
وقلة معاش فسططت يدي في شيء من ذلك لما اقوم به فيو فان رأيتكم ذلك خطأ
فردوه فامري لامركم تع . وإما ما تريدونه من الفتنة او الخلع فاكم قد اسرعتم في ما
عزمت و والله لئن فارقتكم الا لثمتون ان عمري كان عليكم مكان كل يوم سنة لما سترون
من الدماء المسفوكه والاحن والاثنة الظاهرة والاحكام المغيرة »^(٢)

وكان علي في اثناء الخطاب مطرقاً مصغياً لا يبدي حراكاً حتى اتى عثمان على
الفقر الاخيرة فحرك علي حاجبيه وحنى رأسه تصويهاً لقوله « لما سترون من الدماء
المسفوكه الخ . . . »

وإما اسماء فلا تسل عن قلقها ومللها وكان رفيقها واقفاً الى جانبها وقد شغل عنها
بما ثار من عواطفه عند سماعه كلام عثمان ومال بكليته الى افهام رفيقها المثلث جليلة الخبر
تشفياً من عثمان . ولكنه اراد قبل ذلك ان يعرف من هو : فتقدم اليها ان تحسر
اللاثام فاجابت انها ستحسر بعدئذ . فنسم من لهما صوتاً نساءياً ولكنه استكبران يظهر
في النساء مثل هذه الهمة فصبر نفسه ريثما ينقضي الخطاب وقال لها « اراك يا سيدي

خالي الذهن من مغزى كلام الخليفة وأبى تنهيه أوضحه لك باختصار . فاعلم ان خليفتنا هذا هو ثالث الخلفاء الراشدين تولى الخلافة منذ بضع عشرة سنة وحالما تولاها عزل الولاة الذين كانوا قبلة ممن ولائم الامام عمر (رضه) وولى مكانهم رجالات من بني امية اي من اقاربهم ووسع ابواب الردق لاهله ودينتها على سواهم فنار المسلمون في الاعمال (الولايات) وهم اهل مصر والكوفة والمصر اما اهل الشام فانهم على دعوى عثمان لان عاملهم هو معاوية بن ابي سفيان من اقرباء الخليفة واما اهل الامصار الثلاثة الباقية فتمسوا على هذا الرجل وجاراً في رجالهم يظالبونه بما اقتضته ويطلبون خلعة وتولية غير مكانه . ولا يلبي ما يخرقه من هؤلاء جميعهم الا علي بن ابي طالب فانه ابن عم النبي (صلى الله عليه وسلم) وكنى بين الصحابة الذين يطعون بالخلافة الآن اثنين آخرين هما طلحة والزبير . فالخلافة اذا خلعت عثمان تنازعها ثلاثة علي وطلحة والزبير فوفد مصر يريدونها لعلي وفود الكوفة يريدونها للزبير وفود اهل البصرة يريدونها لطلحة ولكنهم متفقون جميعاً على خلعت عثمان هذا . واما علي فلا رغبة له في الخلافة ولكنه يخاف الفتنة بين المسلمين بسبب ذلك الخصام »

وكانت اسماء تسمع كلام رفيقها وهي لا تفهم منه شيئاً لعظم اضطرابها ولكنها لم تكن ترى بداً من الصبر لان عثمان لا يزال يتكلم وما اتم عثمان كلامه حتى ضج الناس فعملت انهم خارجون فحمدت الله على فراغ ففتحت ريشاً يخرج الجمع وقد شاعت عيناها وهي تشرس في الجماهير لعلها ترى علياً خارجاً معهم . فخرج الكل ولم تر علياً بينهم فحولت نحو الجامع وكان ربه قد سبقها اليه فوفقت تنتظر فعدا وحدث فلما استقبلها سألها هل رأت علياً خارجاً فقالت انها لم تنه فعمل يبحث بين الناس وسألهم عنه فلم يجبه بخبر احد

الفصل السابع

— ﴿ الحجة النبوية ﴾ —

فعاد الى الجامع وقد خلا من المصلين واخذ الخطبة في اطفاء المصابيح فحافت اسماء ان يمنعوها من الدخول ولكنهم لما رأوا رفيقها ومعلوماً لما فعلت انه من كبار الثموم

فدخلنا صحن الجامع ومنه الى المسجد . فرأت المكان خالياً فوقف الرجل ووقفت اسماء وجعلتا يفكران وبعد رهة قال الرجل « أظنّه دخل حجرة امرأتى فاطمة بنت النبي (صلعم) فانها مدفونة في حجرة بازاء هذا المسجد وكثيراً ما كنّا نراه يدخلها لزبارة ذلك الاثر الشريف فلا بد من الانتظار ربّنا يخرج »

فقلت لا صبر لي يا مولاي على الانتظار دعني أدخل اليه وأخطئه فان الامر الذي جئت من أجله يستدعي العجلة وهب اني اسأت الادب في استعجاله فمتى عرف السبب عذرني . دعني أدخل الحجرة

فاجابها بصوت خافت « تهمل يا صاح لتأكد دخوله اليها » ومشيا الهوبنا وهما حافيان لا يسمع لمشيئنا وقع حتى انصلا من المسجد الى الحجرة من باب صغير . والحجرة بناء مربع واطى السقف في وسطه صريح السيدة فاطمة . وكان شديد الظلام الا مصباحاً صغيراً كان منيراً فوق الصريح . فدخلنا الحجرة يتلّسان والرجل ممسك بيد اسماء وهما داخلان واعينهما محملقة يتفرسان وقد أصغيا والسكوت سائد على ذلك المكان مع ما يعلوه من الهيبة وقد زاده الظلام رهبة فوقنا لحظة اعلمها بسمان خطوة او نطقاً او بريان شجماً فلم يسمعا شيئاً . فاهما الموقف ولم يتجرأ احد منهما على الكلام ولكنهما تناهيا بالاشارات على الرجوع وفيما هما يتحولان سمعا صوتاً عميقاً كأنه خارج من القبر فاقشعرّ بدناهما ووقف شعراً رأسيهما والرجل لا يزال قابضاً على انامل اسماء فلما سمعا الصوت شعر بارتعاش تلك الانامل شعوراً امتدّ الى كل جوارحه فأومأ اليها ان تنصت فانصتا فاذا بالصوت خارج من حجرة الرسول بالقرب من حجرة فاطمة وبينهما حائط واصغيا فاذا هو صوت علي بن ابي طالب يناجي الرسول بصوت يغلّله تحرق وزفير . فوقنا وقلباها بخفتان وهما بمسكان انفاسهما كأنهما يخافان ان يخلط زفيرها بما يسمعان . واليك ما سمعاه :

« قم يا رسول الله تعهد أمتك وانظر الى ما آلت اليه حالها من بعدك لقد بعثك الله نذيراً للعالمين وأمناً على التنزيل وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ولا يدعي نبوة وقد كانوا على شر دين في شر دار يشربون الكدر وبأكلون الجشيب ويعبدون الاصنام ويسكنون الدماء ويقطعون الارحام . فسفت الناس حتى برأيتهم محلمهم وبلغتهم مخباتهم فاستقامت قناتهم واطمأنت صفتهم . وجعل الله الاسلام أمناً لمن

علفة وسلمًا لمن دخله وبرهانًا لمن تكلم به وشاهدًا لمن خاص به ونورًا لمن استضاء به
وفهمًا لمن عقل ولبًا لمن تدبر وعبرة لمن انعظ ونجاة لمن صدق وثقة لمن توكل . فقام
بنصرتهم قوم دُعوا الى الاسلام فلبى وقراؤ القرآن فاحكمهم . قوم لا يبشرون
بالاحياء ولا يعزّون بالموتى . من العيون من البكاء خص البطون من الصيام ذبل
الشفاه من الدعاء صفر اللوان من السهر على وجوههم غبرة الخاشعين . وقد كنت
يا رسول الله تأكل على الارض ونجس جلسة العيّد وتخسف نعلك بيدك وترفع
ثوبك بيدك وتركب الحمار العاري ولقد يكون الستر على مالك عليه النساوير
فتقول يا فلانة من ازواجك غيبو عني فاني اذا نظرت اليك ذكرت الدنيا وزخارفها .
وكنت يا رسول الله اذا احمرّ لباس واحجم الناس نُقدّم اهلك ففني بهم اصحابك
حتى قتل عبيدة بن الحارث يوم بدر وقتل حمزة يوم احد وقتل جعفر يوم
مؤتة ^(١) . هذه هي سننك وتلك هي قدوتك . فلما فارقتنا خلعتك شيخ (ابو
بكر) حارب المرتدين وأيد الدين القويم وخلصه رجل فجع الامصار ودوّث
الدواوين وشاد للعدل منارًا فاعتزّ به الاسلام وامتدت رابطة على العراق وفارس
ومصر والشام وفر من وجهه كسرى وقبصر . والناس يومئذ مجمعون حول الدعوة
آخذون بناصرها بقلب واحد ورأي واحد حتى نولاهم عثمان وهو شيخ صادق الاسلام
ولكنه استأثر بالسلطة وأثر اهله على سائر المسلمين فقاموا عليه قومة رجل واحد ^(٢)
ونجموا على نبي طاعنوا وقروا على خلعه لا ترهبهم خلافته ولا يخشون سطوته . كأن
الناس انما أذعنوا لأهل السابقة من الصحابة لما كانوا فيؤ من الذهول والدهشة لأمر
النبي وتردّد الوحي وتنزل الملائكة فلما انحسر ذلك العباب وتنوحي الحال واستغل
الملك أنفت نفوس المسلمين من غير قریش وهان عليهم نبي طاعة الصحابة ^(٣) حتى
بلغ من جرأتهم التمرد على الخليفة فعظمت الفتنة وخفت ما خوفتنيو يوم سألك عن
الفتنة فقلت لي « يا علي ان القوم سيفتنون بعدي باموالهم ويمنون بدينهم على ربه
ويعتدون رحمته ويمنون لسلطوته ويستغلون حرامه بالشبهات الكاذبة والاهواء
الساهية » . آه يا رسول الله ولقد طالما نصحت لهذا الخليفة ان لا يكون امام هذه الامة
المقتول فانه كان يقال « يُقتل في هذه الامة امامٌ ينفخ عليها القتل والقتال الى يوم

القيامه وليس امورها عليها وثبت الفتن فيها » ولكنه انصاع الى شاب من اهل
 قرائنو (مروان بن الحكم) يسوقه حيث شاء بعد جلال السنين وتقضي العمر «
 فوما بلغ مني الى هذا القول ثم تدهنا من زفين ثم بكى بكاء تقطع امة قلباها وما
 لا يكادان يصدقان انها يسمعان عليا بكى فيها وما يحسبانه بهم بالتهوض ثم سمعاه يقول
 « هذه هي حال اُمتك يا رسول الله . فاني اشكو اليك قوما افترقوا بعد النعم
 ونشتموا عن اصلهم فكل منهم آخذ بغصن من مال مال معه حتى اصبحت الاحوال
 منضربة والايدي مختلفة والكثرة متفرقة . ابا تاتك صنيتك (فاطمة) النازلة
 بجوارك بتضافر اُمتك على هضما . واخي اخاف ان اُتخى بكما والحال على ما وصفت
 فاستحيي ان احمل اليك خبر هذه الفتنة التي اغناها في تفرق كلمة الاسلام . فادع لنا
 ربك ان يجمع كلمتنا وامل شعنا وبأخذ بناصرنا فتعلم مكان الخلافة منا والسلام
 عليك حتى لتفي »

الفصل الثامن

- * كتاب عثمان * -

ثم سمعاه يقول النائحة فعلم انه يتألم للتهوض فاسرعا في التفرج حتى خرجا
 من الحجرة الى المسجد وخرجا منه الى البطحاء . فخف الازدحام لتفرق الناس الى منازلهم
 فوقنا ينتظران عليا فقال الرجل اظنه لا يخرج من هذا الباب فلنقف له بالباب الآخر
 ناديا بالعمام قائد العرس فسمعنا ومشيئا وتدن قد صبرا ساء وانكها الملل ولم يمشيا
 قليلا حتى لقينا عليا خارجا من باب الجامع ومديلة لا يزال في يد يمسح به عينيه وجبينه
 ثم جعل يصلح عمامته ويسرح لحية بامامه ويمشي الهويناء كانه عائد من سفر طويل
 فتقدم الرجل اليه وحياء فقال علي مر « بان ابي بكر اهلا بك يا محمد ما
 الذي جاء بك » . فعلمت اساء انه محمد بن ابي بكر وكانت تسمع به . قال لقد
 جدك بقادم غريب قد انتهت البعث . قال اذا لم تنزل في دار الاضياف . ابن هو
 فتقدمت اساء والف الفتنة وهي لا تزال ملثمة وقد التفت بالعباءة

فنظر عليؑ اليها فعلم انها متنكة لآمر ذي بال فقال لها ما غرضك يا اخا العرب
قالت لقد جئت أدعوك لغوث امرأة مريضة في حالة الخطر الشديد تلتبس ان
تراك لتبث لك سرّا ضنّت به علينا جميعاً
فقال ومن تكون هذه المرأة

قالت هي والدتي وإما والدي فهو من بني امية وقد جئنا بها من دمشق فجمعت
مشاق السفر والمرض على أمل ان تبلغ المدينة فتطمئنا على ذلك السرفاشند عليها
المرض حتى لم تعد نستطيع الوصول
قال اين هي الآن

قالت هي في قباء على مقربة من هذا المكان
قال هيا بنا اليها . هل ترافقنا يا محمد
قال اني في خدمتك حيثما سرت وإذا رأيت ان اقوم بهذا الامر دونك لما انت
فيه من الشواغل الكثيرة فعلتُ فبقي انت هنا

قال لا بأس من ذلك ولكنني اخشى ان يكون حضوري عندها ضرورياً وهي
يا محمد امرأة في حالة المرض الشديد يجب علينا غيبتها . قال ذلك ومشى ومشى
الانسان في أثر محمد وينظر الى اسماء خلسة لعله يستطلع شيئاً من امرها . وهي تطلب
الى الله ان يجعل عليؑ في الخطى ولكنته لم يمش قليلاً حتى لقيه رجل مهول وعظيم
امارات البغته . فقال له عليؑ ما وراءك يا غلام

قال لقد عاد المصريون الينا بعد خروجهم
فقال وكيف عادوا وقد عهدناهم راضين بها وعدم بو الخليفة من الاصلاح
قال لا ادري الا انهم عادوا اليها غضابي وهم ينتظرونك في فناء دارك
فقال عليؑ لا حول ولا قوة الا بالله . وسار وهو يهز رأسه وينظر الى محمد وكان
محمد في مثل حاله من العجب لما سمعه . فقال عليؑ ما بال هؤلاء القوم لا يرجعون لنا
بالآ اني ارى مشكلتهم هذه لا تغل الا بغتة تأول الى الفشل فوالله انهم يرمون امرأ
عظيماً اخشى عليه اخلال الحال

فقال محمد لا يخلو رجوعهم من امر ذي بال . وأسرعوا حتى أتيا بيت عليؑ فربما
العاس هند باو ليرافقات ووجدانا بين فارس وراجل وقد طلت ضواؤهم فلما

أشرف علي* عليهم ترجل الراكبون وهول الواقفون نحوه وفي مقدمتهم رجل لا يزال
بشباب السفر محميا عليا فردت النجبة وقال له ما الذي عاد بكم الينا وكنا قد فضضنا
المخلاف بينكم وبين عثمان ووعدكم خيرا

قال انه لم يعدنا الا خداعا . قال ذلك ومدت يده فاستخرج انبوبة من الرصاص
فثناؤها علي* ومشى الى مصباح مضيء عند باب الدار ونظر فرأى فيها صحيفة من
جلد استخرجها وقرأها فاذا هي كتاب من عثمان الى عامله بمصر يأمر فيها بجلد زعماء
المصريين الذين قدموا المدينة لمطالبة وحبسهم وحاق لحام ورؤوسهم وصلب
بعضهم^(١) فبغت علي* لذلك وتأمل الصحيفة فاذا في ذيلها ختم عثمان وكان يختم
كتبه بهذه العبارة « لتصبرن اولئذين » فتحنق انه ختمه فقال وما الذي اظنركم
بهذا الكتاب

قال برحمتنا المدينة بالامس على ما وعدنا هذا الرجل من الاصلاح وصدعنا بامرله
فلم نكد نخرج حتى لقينا غلام عثمان على بعير من ابل الصدقة ففتشنا متاعه فوجدنا فيه
هذه الانبوبة وفيها هذه الصحيفة

فقال علي* انا لله وانا اليه راجعون . بما بالنا لانكاد نرنق فتقا حتى نرى غيبه
ما الذي غير عثمان وحمله على هذا العمل

فقال محمد بن ابي بكر انها فعال مروان بن الحكم ابن عوف فقد كان غائبا في
القام ولم يأت المدينة الا في غروب هذا اليوم ونظفته هو الذي اغرى عثمان
على ذلك

فتأفف علي* وقال تبنا لهذا الغلام انه لا يدل الا الى شر
فلما سمعت اسماء ذكر مروان عرفت انه هو طالها ورفيق سفرها فازدادت كرها
له وقالت في نفسها فبجته الله انه لا يبرح عنقه في طريقنا وايقت ان ذلك سيكون سببا
في عدول علي عن المسير معها فكلمت محمدا

فقال لا تخف باصاحب اتنا منجدوك . وخاطب عليا بشأها فقال له اني
اخاف اذا برحت المدينة في هذا الليل ان يقع ما نندم عليه سر يا محمد مع هذا
النزيل وافعل ما تراه وقم علي في كل غير هرجونه وعد الي بالخير

فلم تعد تُعبرُ أسماء على الأحراج فكنعت بها وقع مخافة ان يقع ما هو شر منه فالتفتت الى فرسها فاذا بالغلام يقوده وراءها فنهأت للركوب . وبعث محمد فاستقدم فرسه وركب الاثنان ومحمد ينظر اليها وهي تركب لعله يرى بهض ثيابها تحت العباءة اثناء الركوب فلح من ثوبها شيئاً احمر اللون يشبه ثياب النساء ولكنه ما زال مسنداً صدور تلك الجسارة عن امرأة

واغار الاثنان يلتمسان قباء لا يكلم احدهما الآخر ولكن محمداً كان شديد الميل الى معرفة حقيقة رفيقة بعد ما اشبهه به من حاله . فخرجا من المدينة والظلام حالك وبعد هنيهة اشرفا على قباء . فلما أطلت أسماء على خيمة والدتها عرفتها من النار المضيفة خارجها فخلق قلبها مخافة ان يكون قد وقع في اثناء غيابها ما يوجب حزناً فهمزت الجواد فطار بها حتى سبق جواد محمد فاعجب محمد بشأتها على منه . ولم يدركا الخيمة حتى خرجت امرأة خادم الجامع لاستقبالها فترجلت أسماء عند باب الخيمة وترجل محمد فدخلت وهي تحمل عُقال كوفيتها وتترع العباءة عن كنفها ودنت من سرير والدتها فاذا هي قد افافت وفحّت عينيها ونظرت الى أسماء بلهفة وعيناها تنظران الى باب الخيمة كأنها تنتظر دخول احد وقالت ابن هو عليّ

فخافت أسماء اذا اخبرتها الحقيقة ان تحدث لها كدراً فيزيد مرضها . فقالت لها انه آت يا اماء . واغرو رقت عيناها بالدموع

اما محمد فقد كان في اثر أسماء يتفرس فيها على نور الصباح فلما نزع كوفيتها رأى شعرها من الورا . طويلاً مسترسلاً ثم زعت العباءة فبان رداؤها الارجواني اللامع وهو عبارة عن قفطان من الديباج عليه منطفة من جلد عريضة تعودت لبسها في السفر فحقق انها فتاة فشرع باعجاب غريب ولم يبق بعد ذلك الا ان ينظر الى وجهها فاسرع في اثرها حتى دنا من السرير فاعترضه منظر والدتها . وحالما وقع نظره عليها هالته نحوها وفرط سقامها وارتفاع لونها وشخص عينيها ولكنه التفت الى أسماء فاذا فيها فضلاً عن الجمال هيبة وجلال كأنها هي ملكة وجبار معاً فلم يتالك عن الاعجاب بها والانعطاف اليها واحسّ باحساس غريب نحوها

الفصل التاسع

—* ضياع السرّ *—

اما هي فقد كانت في شغل عن حاله بما هي فيه من الفلق على والدتها وكانت قد نطأت قليلاً لما رأتها صاحبة وم ندمت على عودتها بلا علي ولكنها ابنت ان هيئة لم يكن مكناً والناس في انتظاره عند منزلوه على تلك الصورة . ثم حولت مرم وجهها نحو محمد وعيناها شاخصتان اليه لا تتحركان الا بكلفة فلم تنفرس فيه قليلاً حتى نساقطت دموعها على خدها . فلما رآها محمد تبكي انظر قلبه فغاطبها قائلاً كيف انت يا خالة

ف قالت الست ابن ابي بكر

فلما سمع قولها اقشعر جسمه وابتدورها قائلاً أجل اني هو وماذا تأمرين

قالت ابن هو علي

قال قد بعني لانوب عنه لانه في شغل هام فأمرني بما تريدن

قالت لا اريد احداً غير علي ادركوني به . لا اريد احداً سواه . قالت ذلك

وظهر الكدر على وجهها

فجبت اسماء لما سمعت والدتها تذكر اسم ابن ابي بكر وشعرت منذ سمعت اسمها من فيها بارتياح اليه ولكنها تمررت لاصرارها على استقدام علي فقالت الا تزالين تطلين علياً

قالت لا ازال اطلبه نعم لا ازال اطلبه ادركوني به فان في نفسي سرّاً لا ابوح به الا له ادركوني به قبل انقضاء أجلي

فنظرت اسماء الى محمد نظرة استغاثات أثرت فيه تأثيراً غريباً وشعر كأن نظرها اخترق صدره حتى وقعت سهامه في قلبه فنهض للحال وقال لاسماء اذا لم يكن بداً من استقدام علي فاني ذاهب لاستقدامه وخرج فامتطى جواده وهزمه يلتمس المدينة وعول على ان لا يعود الا به

وخرجت اسماء لتنظره فسمعت وقع اقدام جواده يخترق السهل وتذكرت والدها فجمت عنه فاذا هو نائم في خيمة أخرى لا يبالي بشيء فلم تكثر به

وعادت الى سرير والدتها وقلبا يخفق خوفاً عليها فاذا هي قد غيّرت وضعها
فغولت الى جنبها الآخر واطبقت اجنابها بعض الاطباء او هي ارختها وعيناها مفتوحان
على كينية لم تعدها فيها من ذي قبل ورأت حدقتها قد جددتا وشخصتا فخافت من
منظرها فنادت العجوز وكانت قد خرجت لغرض فقالت لها ما بال أمي قد غيّرت
وضعها وما بالي ارى عينيها شاخصتين جامدتين

فبغتت العجوز وقد ابفت ان المريضة في حالة النزاع وخصوصاً لما رأت
كنتها يخلج وتنفسها يسرع . فاستمع لون العجوز وظهر الخوف عليها فادركت اسماء
خوفها فصاحت بها ما بالك خائفة العلاء والدتي في خطر

فقالت عسى ان لا يكون خطرياً ابنتي والاتكال على الله . وخرجت مسرعة
فاضطربت الفتاة وهمت بيد والدتها فحسنتها فاذا هي ماردة جافة ونظرت الى
عينيها وقد غارتا في تجويفها وذهب لمعانها فارتعدت فرائصها وخافت خوفاً شديداً
واسرعت الى باب الخيمة لتستقدم العجوز

وفيا هي تحول سمعت والدتها شخرت شخر عنيقة فاجملت وعادت الى السرير
وهي تحسبها ستتكم . فامحنت عليها لتقبلها في جبينها فاذا هو بارد جاف فاقشعر
جسها وازداد خفقان قلبها واصطكت ركبناها ولم تكن رأت ميتاً قبل ذلك المحين
فنادت العجوز فانت فجعلت اسماء تنظر اليها وتبين عواطفها فرأته في وجل فازداد
خوفها فاعادت النظر الى وجه والدتها فاذا هي فاتحة فاهها وقد برز فكاهها واتسع شديداً
واستطال وسكن اخلاص صدرها وبرز انها واستطال واتسع مخزها وأكد امتناع
لونها . فنظرت اسماء الى العجوز فرأته قد خرجت من الخيمة فتبعته فاذا هي تنادي
يزيداً وصوتها يخفق فتفتت وقوع الحضور

فعادت الى السرير وصاحت يا أماء أماء فما من مجيب فصنفت يداً بيد ولطمت
وجهها فاذا بالعجوز عاتن وهي تلمن وتقول « حلي شعرك يا ابنتي ان والدتك قد
ماتت واحسرتها »

فلت اسماء شعرها واخذت نصيح وتلمن وجاءتها العجوز برماد لطفت به رأسها
وكان والدتها قد افاق فجاء واخذوا في العويل والنوح . فجميع اهل القرية على
صياحهم وعلا النوح ولم يفعل احد منهم فعل اسماء فانها كادت تقتل نفسها لغرط البكاء

والندب واللمم وعبثاً كانوا يخفون عنها فكلم القيت نفسها فوق والدتها وتوسدت
جنتها واخذت في تعيلها وهي تقول لمن تركتني يا أماء ولبن اشكوهي بعدك ومن يخبر
علياً عن السر ومن يخبينا من غدر الخائنين آه من الزمان العل أجلك قد ساقنا الى
هذه الصحراء لتُدفي فيها ما الفاتنة من بقائي بعدك وقد اصبحتُ بنجمة فريدة لا سند لي
ولا معين

واما والدتها فكان يتظاهر بالبكاء ولا تذرف له دمعاً
وفيما هم في ذلك سمعهم اسماء يقولون « جاء علي » فصاحت صيحة ارنج لها المكان
وقالت « لقد ابطأت يا ابا المحسن ان والدتي ماتت ومات سرها معها » ثم نظرت
الى أمها وكانوا قد غطوها بهلاء وقالت لها « قومي يا أماء احسري فهايك فقد جاء
علي قومي اليه واطلعي على شرك . قومي اشقي على ابتك »
أما علي فترجل وقد شغله النظر الى الفناء عن الالتفات الى الميتة . وكانت اسماء
قد نوردت وجنتها وذبلت عينها وتكسرت اهدابها لما انسكب عليها من الدموع .
وما زادها هيبة ووقاراً استرسال شعرها الاسود الى ظهرها وصدرها وحول كتفها
وقد غطى معظم وجهها ناهيك عن انكسارها وذلها من الحزن واليأس فانها يزيدان
الجمال جذاً . وكان أكثر الناس تأثراً من منظرها محمد بن ابي بكر فانه لم يمالك
عن البكاء لما لقيه من الشلل في سفره وقد انهك جواده سوقاً واستحك علياً على القدوم
بالرغم عما كان فيه من المشاغل ووعده بالاطلاع على سر عظيم وظن نفسه قد عاد
ظافراً فرأى الفشل ينتظره هناك

وحالما وقع نظر علي على اسماء شعر بانعطاف نحوها وتوسم في طلعتها ملامح
ارتاح الى الفرس فيها فحمل ذلك الانعطاف محمل الشفقة لما اتفق من تعاسة تلك
الفناء وندم ندماً شديداً لتفاعد عن المحبة معها واحسن بالتزام مواسمها جهد طاقت
فوقف وقفة معتبر لمصير الانسان ثم اجال بصره في الناس وهم سكوت بسمعون وقال
« ما اصف من دار اولها غناء وآخرها فناء في حلالها حساب وفي حرامها عقاب من
استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن ومن ساعاها فائنة ومن قعد عنها وائنة ومن
ابصر بها بصرة ومن ابصر اليها اعمية . انظروا الى هذا الميت فقد قبض بصره كما
قبض سمعه وخرجت الروح من جسده فصار جيفة بين اهل ولا يسعد باكيها ولا

يجب داعياً . اعلوا عباد الله انكم وما اتم فيو من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى قبلكم من كان اطول اعماراً وابعد آثاراً فاصبحت اصولهم هامدة ورياحهم راكدة وديارهم خالية وآثارهم عافية واقاموا في منازل شيدت بالتراب اهلها لا يستأنسون بالايوطان ولا يتواصلون تواصل الجيران على ما بينهم من قرب الجوار وكيف يكون بينهم تزاور وقد طعنهم بكلكله البلى واكنتهم الجنادل والثرى» (١)

وكان عليّ يتكلم والدموع تساقط من عينيه هادئة ثم دحرج على لحيته . فاعجب محمد لما آتسه في ذلك البطل من الحنو واثنه المحزن ما يبكي الرجال

ولكن علياً تجدد واخذ يخفف عن اسماء وكانت جالسة الاربعاء فتقدم اليها وأمسكها بيدها وقال لها نصبري يا ولدي ان المحزن والبكاء لا يجديا لنا نفعا . ان والدتك قد سبقتنا الى دار اللقاء الاخير . واما ما تذكرينه من اليوم فلا تخافيه لان الله وكيل بالبنائى واتخذني لك والدًا ثانيًا والتي همك بعد الله على عليّ واصبري ان الله مع الصابرين

فتمضت اسماء وقد سقط مندبها من يدها فمسحت دموعها بكها المسرسل من معصمها فعلقت ازرارها بشعرها فالتحسر بعضه عن وجهها فاهلقت خجلاً واجابت علياً وصوتها مخنق وقالت « شكراً لشهامتك يا رجل المسلمين ووصي خاتمة النبيين افي لا اشك بمواساتك ولا ارى راحة الا برضائك لان والدتي هذه (قالت ذلك وأشارت اليها وقد خفتها العبرات) قد فاضت روحها وهي تذكر علياً وتناديه وفي صدرها سرٌّ ازمنت ان لا تنوح به الا له فما قد ذهب سرها معها الى القبر فيا لبها باحت به احد او يا ليتني المححت عليك بالندوم ولكن ما الحيلة وقد قضي الامر » . قالت ذلك وحرقت باسنانها وعادت الى البكاء ولكنها خفتت من اللطم والندب احتراماً لعلي اما محمد فلا تسل عما خالج قلبه من الانعطاف وما احس به من الميل الشديد الى اسماء حتى شعر ان المصيبة واقعة عليه ولا بدري بماذا يعزبها ولا كيف يخفف عنها وود البقاء معها لمواساتها الى ساحة الدفن ثم ما لبث ان سمع علياً ينادي فقال ليك

فخلا به جانبا وقال له لا ارى ثم حاجة الى بقائي هنا وقد ماتت حاملة السر

فقال اجل يا عماء وانت في شاغل هام من امر الخليفة وقد آسنت لهيبك بلا فائدة
فقال اني اذا ذاهب واوصيك باهل هذه المينة خيراً فانظر ما يحتاجون اليه
فاذا تم الغسل والدفن واصل الفتاة والدماء ومن معها الى مفرهم واذا رأيتهم في حاجة
الى الاتفاق فادفع اليهم ما يحتاجون اليه على اني لا ارى والد الفتاة حزينا الا بالانقياد
فقال محمد سر بجراسة الله اني فاعل كل ما تأمرني به ولكي آسف لضياح ذلك
السرفانة لا يخلو من امر هام . فقال علي اني افكر في ذلك ولا ارى باباً لخلو

ثم تحول نحو المأتم ونادى يزيداً والد اسما فجاء ووقف بين يديه وهو لا يستطيع
النظر اليه الا خلسة فلما رأى علي تسرفه في النظر مع رفرفة اجنانه وردد بصير
كأنه ينظر الى ما يبهته فتحقق ان الرجل مراه بضمير غير ما يظهر . لان من سلمت
سريرة واخلص نية كان بصيراً ثاباً صافياً مثل قلبه واما المرأى الخائلة فانه لا بد منطبع
لثبيت نظره في مخاطبه ولا ينفك برفه اجنانه كأنه يتفكر في حيلة يفتريها . ونظر علي
الى يزيد فعرف انه اموي فقال له نصبر يا اخا امية انك اصبت بما يصاب به كل ابن
انثى ولا حيلة لنا الا بالصبر

فلما قال علي ذلك تظاهر يزيد بالبكاء

فقال علي لقد اوصيت محمداً ان يتولى مؤاساتكم بكل ما تحتاجون اليه واذا نزلتم
المدينة فاتم في حمانا وما احجتم اليه قدمناه لكم
فتظاهر يزيد بالشكروم بتجميل يدي علي

ثم تقدم علي الى اسما وهي لا تزال تبكي فعزاها واخبرها بان محمداً باق لمؤاساتهم
فبككت ولسان حالها يدل على الامتنان وان لم ينطق لسانها بكلمة . فخرج علي وهو
يقول لمحمد اني لا أعجب ما بين هذه الفتاة والدماء من البون فكأنها ليست ابنة
ثم ركب جواده وودع محمداً وسار قاصداً المدينة

اما محمد فأمر خادماً بالجامع باحضار من يقوم بالغسل والدفن ولكه افتقد يزيداً
بعد بره فلم يجد بين الناس فحجب لغيابه وظنه في بادىء الرأي قد ذهب في حاجة
لنفسه فلما طال غيابه ارتاب من امره حتى اذا انقلب الصبح رآه بين الناس فلم يسأله
عن سبب غيابه لئلا يكون في سؤاله تداخل في ما لا يعنيه . ثم غسلوا المينة وصلوا عليها
ودفنوها واسما لا تفك عن البكاء والهميم بعبارات ينفث لها العطر

الفصل العاشر

﴿ المدينة المنورة ﴾

فلما عادوا من الدفن تقدّم محمد الى يزيد ان يطلب ما يحتاج اليه
فتلطف في الثناء وبالغ في الشكر لما لاقاه من مؤاساته
فقال محمد انريدون الذهاب الى المدينة فتزلون علينا فان علينا اوصانا بذلك
قال لقد تنفلم بما لا طاقة بنا على شكره ولا نملك في كرم مولانا ابي الحسن
وحسن وفادته ولكن لنا اهلاً في المدينة لا بد من النزول عليهم واخاف اذا نزلت في
هجر منزلم ان يعشوا ذلك منا امتناً على اننا حيثما نزلنا اما نكون في حى ابي الحسن
فحب محمد لما آتته من لطفه وكاد يفجر ظنه به فقال له وابن يقيم
اقراركم بام

قال م يقيمون بفرب الزوراء (١)

وكانت اسماء في اثناء الحديث جالسة تسمع ما يقولان وهي مطرفة خزيماً
وانكساراً وقد غطت رأسها بخمار اسود زادها هيبة وجمالاً فلم يتالك محمد عن الهيام
بها فلما ذكر والدها محل اقامته قال محمد وهو ينظر الى اسماء « اذا ارجوان
لا ننسونا ومها عن لكم من الامور التمسوه منا فان سيدي علياً حفظة الله اوصالي
بكم خيراً » . قال ذلك ونظر الى اسماء فرأى الدمع يقطر من بين اهدابها ويغدر
على خديها وهي لا تزال مطرقة فازداد انعطافاً وحنناً نحوها

اما والدها فقال له اننا لا نستغي عن فضلكم فاذا اصابنا ضيق لجأنا اليكم ولا
نبرح نذكر احسانكم الى آخر نسمة من حياتنا

فقال محمد الا تحتاجون الى ركائب تحمل امتعنكم
قال ان ركائبنا لا تزال عندنا وقد بعث اليها افراباً لنا خدماً يساعدوننا في
الحمل والنقل

فوقف محمد ووقف يزيد فودعه وودع اسماء

(١) الزوراء اسم سوق المدينة يطلق على منزل الخليفة حسان ايضاً (مراد الاطلاع)

اما في فلما وقف لوداعها تذكرت ان والدتها عرفت ذكرك اسمك وهي على فراش الموت فنظرت اليك والدمع يتلألأ في عينها وقد ذبلتا وتكسرت أهدابها وتنهدت ولم تجب فحياها وتحوّل الى جواده فركب وعاد الى المدينة وقد علق ذهنه باسماء واشغل قلبه بها

أما ما ظهر في حديث يزيد من الرقة فليس من عذباته ولكنه تلقى من مروان وكان قد غافل الناس في أثناء المأتم كما تقدم ويمم المدينة ليستشير مروان في ما يعمل منافية ان يحمله محمد بن ابي بكر على النزول في جوار علي وهو لا يريد ذلك لئلا يضيع ما أملة من مصاهرة مروان . وكان لما توفيت زوجته قد شعر بزوال عطفه من طريقه لأنها كانت عوناً لابنتها على الرضا فلما توفيت تحقّق نيل مرامه وخاف مجاورة علي فذهب ليشاور مروان فلقية في منزل الخليفة عثمان فانبأه بوفاته مرم واستأذنه في الامر فإصاها ان يجنأ في التخص من محمد وعلمه ماذا ينول من عبارات الفكر والفناء وإن يهتذر بالنزول عند اقاربكم كما فعل

وكانت أسماء مخالفة الذهن من كل ذلك لسلامة نيتها وانشغالها عن الدنيا بأمرائها وبكائها على انها شعرت بامتثال علي وإرتياح الى محمد وأحسّت بأمرائها سند عظيم لها عند الحاجة فاذا آنت من مروان او والدها ما لا يرضيها استنجدها ولم يكذب محمد يتوارى عن قباء حتى أمر يزيد عبيداً كان مروان قد أرسلهم لخدمته ففوضوا الخيم وحملوا الاحمال وركبوا وركبت أسماء بعد ان ودعت قبر والدها وداعاً بمننت له الصغر وودعت خادم الجامع وامرأته وأكرمتها فوق ما أكرمها به محمد فودعاهما وهما يبكيان وسار الركب نحو المدينة

فلما اشرفوا على المسجد تذكرت أسماء لقاءها علياً هناك وما كان من اضطرابها وفلتها في الليل الغابر ونهت في بحار التأمل . فلم يهتأ شيء من ضوضاء اهل المدينة ونجهمهم في اسواقها . وقبل وصولهم الى المسجد مرّوا باحجار الزيت وهو موضع صلاة الاستسقاء^(١) بقرب الزوراء فرأى الناس هناك جماعات متكاثرة وهم أخلط من أهل مصر والكوفة والبصرة وفيهم الامراء والفرسان والعبيد والخدم على اختلاف ازيائهم وكل جماعة في شغل وحديث وجدال . ثم وصلوا منزلاً وراء الجامع فناولوه واسع محاط

بسور منيع له باب ضخم في وسطه خوخة^(١) وقد أقفل ووقف الحراس عنده فعملت انهما دار عثمان ولم يجاوزوها حتى وصلوا الى باب وقتوا عنده. فترجل والدها هناك فعملت انهما المنزل المقصود فترجلت وقد انتهكها النعب والنعاس لما قاسته من الجاهدة والبكاء والحزن كل ذلك الليل ولكنها لم تكد تدخل ذلك المنزل حتى لقيها مروان فلما رآته استعاذت بالله وندمت على مجيئها على انها لم تر بداً من النزول مع والدها فلما شاهدها مروان وقد نسربت بالشوب الاسود فوقه الخمار الاسود تحته وجه زاده انكسار الحزن جمالاً وإشراقاً ازداد تعلقاً بها فتقدم نحوها مسالماً ومعزياً فردت عليه رداً ضعيفاً وهي تود ان لاتراه. أما هو فبالغ في اكرامها وسار في خدمتها الى داخل الدار وكان بعض نساء المنزل قد جئن لاستقبالها فدخلن بها حجرة والدها معها وهي لا تنطق بكلمة وإذا كلها أحد لم يكن غير البكاء جواباً له ولما خلت بوالدها سألتها عن أهل ذلك المنزل فقال هم آل حزم^(٢)

الفصل الحادي عشر

—* الحيلة *

أما مروان فرأى من الحكمة ان يتركها في الغرفة لتسرح فخرج بدر وسيلة لامتراضائها بالحسن فخطر له ان يوسط بينه وبينها نائلة بنت الفرافصة امرأة الخليفة . وكانت نائلة ذات مقام رفيع لتزوجها بالخليفة على انها لم تكن من قریش بل هي من بني كلب من القحطانية وكان والدها الفرافصة نصرانياً يقيم في الكوفة^(٣) وكانت عاقلة حسنة الخلق ولم تكن تزاح الى مروان لتزف وطيشه وكثيراً ما كانت تغالطه في مشورات على زوجها حتى انتهت مراراً وتقدمت الى زوجها ان لا يصغي اليه^(٤) ولكنها لم تكن تبالي في جنائز احتراماً لقربانها . فسار مروان اليها وكانت في اضطراب عظيم لما احاط زوجها من الاخطار فلما رآته قالت ما وراءك يا مروان

(١) الاغني ج ١٥ (٢) ابن خلدون (٣) الاغني ج ١٥ (٤) ابن الاثير

قال ما ورأني إلا الخبر يا خالة اني اراك في وجل من أمر هؤلاء الناس الذين يحاولون نزع الملك من ايدينا ورأس ذي النورين ^(١) انهم بعيدون عن نيلو فقد كتبنا الى معاوية في الشام وابن عمرو ورساء الاجناد من بني أمية ^(٢) نستقدمهم الى نجدتنا فاذا جاؤوا لم يستطع المصريون او الكوفيون او البصريون مناؤهم فيتفرقون ايدي سبا

فتهدت نائلة وقالت لا اظنهم يصلون اليها يا مروان إلا بعد ان تنفذ الحملة والبيعة كلها عليك فانك كبرت الخرق بطيشك فضحك مروان ونظاها بالمزاح وقال سوف تزين بعينك يا خالة ان مساعي مروان هي الحقة وتختفين ان هؤلاء الاعداء مغررون بانفسهم لا نمجزي يا خالة ولا نخافي اننا الفاترون باذن الله

قالت دعنا من المزاح يا مروان ان الامر جلل قال بل هو أهون مما نظنين وما انا حاسب له حساباً وما يدلّك على ذلك اني اهتم باسترضاء عروس جميلة جئت بها الى هذا المكان قالت واية عروس

قال اسماء بنت يزيد الاموية انها يا خالة على جانب عظيم من الجمال وقد كانت في دمشق وكانت والدتها تمنع في تزويجها فانت الوالدة بالامس في قباء فجئت بها وبوالدها اليوم وانزلتها في دار بني حزم وهي الآن نائمة للاستراحة من وعشاء السفر فاتقدم اليك اذا جاءتك غداً ان نقنعها بأني كف بها

فقالت اين نحن من الزواج يا غلام قال لا نقولي يا غلام واما شاب بطل كما تعلمين واستغلنك برأس امير المؤمنين ان نسترضيها وهي لا شك اذا سمعت كلامك رضيت . فاذا فعلت ذلك فديتك وقديت عمي الخليفة بروحي

فسكنت نائلة وهي تعجب لطيش مروان وخشوعه على ان استغفانه بن احاط بزوجه من المقاومين طمانها وبرد قلبها وما زال مروان بها حتي وعدته باسترضاء اسماء فتركها وخرج الى يزيد والد اسماء فاخبره بما عزم عليه ففرح وقال حسناً فعلت

وأرى ان آخذها انا الى نائلة للسلام عليها فيكون ذلك أقرب الى طلي المحلة
فقال مروان وهب انما لم تنقع باسترضاء نائلة فاني حامل الخليفة على تزويجي
بها قسراً وما انا مقول عن عزمي لأنها فتاة لا تعرف مصلحة نفسها ولا هي مدركة
مصلحة والدها في الامر (وقد أراد مروان بذلك ان يؤكد آمال يزيد بتولي منصب
واسطة تلك المصاهرة)

فابرت أسرع يزيد وقال طب نفساً يا وادي فاني لست تاركاً هذه الفتاة تفعل
غير ما أرضاه أنا

فودعه مروان وخرج وبانت اسماء تلك الليلة لا تدري بما نصيبه لها



الفصل الثاني عشر

— ﴿ نائلة بنت الفرافصة ﴾ —

وفي الصباح التالي افاقت اسماء مذعورة وقد رأت والدتها في الحلم فبكت بكاءً مرّاً
ولم تكد تجلس في الفراش حتى دخل والدها وهمّ بها وقبلها قبله الوالد والرياء ظاهر
على وجهه فلم تطاوعها نفسها على ثقيل بك فلبثت في الفراش صامتة كتيبة لا تبدي حراكاً
فقال لها يزيد انهضي يا ابنتي واغسلي وجهك وهباً بنا الى مولانا نائلة امرأة
مولانا امير المؤمنين ولا ريب انما ستعزيك في احزانك

فقالت دعني يا ابنتي واغلق باب الغرفة عليّ فاني لا ارى شيئاً في هذا
الكون يعزيني

قال قومي يا حبيبتي فان الحزن يضربك ولا فائدة منه . وهي انما لا تقدر على
تعزيتك فالذهاب اليها واجب لاننا في حماها . وما زال حتى انهضها وفيما هي تفتخر
للقيام دخل رجل فاستقبله يزيد قائلاً اهلاً بابي الجراح (١) فبغت اسماء لمشاهدته
فابتدرها والدها قائلاً انه مولانا ام حبيبة واظنة جاء لاستقداك . فقال ابن
الجراح ان مولاتي تدعوك اليها وقد سمعت بما اصابك وعلمت بنزولك عند جيراننا

آل حزم فبعثني لاستقدامك ومعى جارية حبشية لمرافقتك اليها
فجئت اسماء لهذا الاحناء وشكرت تلك العناية ونهضت فلبست ثوبها وسرحت
شعرها وعقصته وارسلته الى الوراء وارخت الحمار على رأسها وتزملت بالرداء الاسود
وخرجت والجارية برفقتها ودخلت في باب موصل بين الدارين حتى انصلت الى دار
عثمان فرأت فيها ما يلبى بيوت الخلفاء من الطنافس والاسرار ونحوها ولتبت في
باحنها كثيراً من المالك والاماء فمشت حتى انت غرة نائلة

فلما سمعت نائلة وقع اقدامها تحزرت للقائها . وحالما وصلت اسماء الى باب الغرفة
نسبت رائحة الطيب وسمعت خشفة اساور نائلة وخلاخلها وعقودها ودهانها وهي
نهياً للوقوف ولم يقع نظرها عليها حتى بهرما ما على اثوابها من التطريز والزركشة
بالفضة والذهب فدخلت اسماء ووقفت لها نائلة وقد اعجبت بجمالها وهيبتها فهمت بها
وضمتها الى صدرها وهي تقول اهلاً بضيتنا الحبيبة اهلاً بابنتنا العزيزة

فلما سمعت اسماء ذلك غلب عليها البكاء ولكنها تجلدت وقبلت يد نائلة وجلست
الى جانبها وخرجت الجارية وبقيتا في الغرفة على حدة واسماء لا تنطق بكلمة
فتسارعت نائلة في مداعبتها فقالت اهلاً بابنتنا الجديدة ومرحباً بها

فادركت اسماء مرادها فقالت وهي تشرق بدموعها ابهذا الكلام تعزيني يا مولاتي
دعيني ابكي والذ حنونة فقدتها بالامس واذا كنت تشغفين علي فابكي معي
فأثر ذلك الكلام في قلب نائلة تأثراً عظيماً حتى تفرقت الدموع في عينها
وهي تقول اني مشاركة لك في احزالك يا حبيبتي اما ترضيني بدلاً من والدتك
فقالت ان ذلك اكبر تعزية لي على مصائبي وارجوان لا يكون مرادك ما قد
تبادر الى ذهني

قالت وما ذا تبادر الى ذهنك

فاطرت اسماء ولم تجب

فغالطتها نائلة ونأوهت لنأوها ثم قالت نصرى يا ولدي على مصابك ان
الحزن المفرط لا يجديك نفعاً ثم امرت بالطعام فمدت الساط فاعذرت اسماء عن الطعام
فالمت نائلة عليها فتناولت منه شيئاً ثم جلست تحادثها في شؤون مختلفة حتى هدا
روعها وجعلت تنأمل ملاحها وتعجب بجمالها فاذا هي لا تشبه والدها في شيء وكانت

قد شاهدته عند قدومو معها

وكانت اسماء في اثناء ذلك مطرقة وهي غارقة في بحار الهواجس . فنالت لها نائلة ما بالك صامنة تكلمي يا اسماء واشغلي نفسك عن الحزن لعلك تعززين
قالت لا ارى شيئاً يعزيني في هذا العالم يا سيدتي ولا يحلولي التكلم قط على ابي
احمد الله لما لقيناه من مواساتك فقد استأنمت بك كثيراً وشعرت بانعطاف نحوك
كانعطافي الى والدتي رحما الله . قالت ذلك وهي تمسح دموعها بالمنديل وتنشق
من البكاء

فتأثرت نائلة لتلك الحالة واجلست مخاطبتها بشأن مروان الى فرصة اخرى .
ولكنها احبت ان تصرف ذهبا عن الحزن فدعتها لمشاهدة ما في بيتها من الاثاث
واكثره من الطنافس والسجاد وبعض الآنية ما غنمه الفواد الذين فتحوا الشام والعراق
من قصور الملوك والبطاريق واغنياء الروم والارس وفي جملتها اسلحة مرصعة واعلام
ودروع وآنية من الفضة والذهب من غنائم المدائن عاصمة الارس على عهد همر بن
المخطاب وبينها ناج كسرى مرصعاً بالجواهر وثيابة ووشاحه من الديباج المنسوج
بالذهب المنظوم بالجواهر ودرع هرقل ودرع خاقان ملك الترك ودرع داهر ملك
الهند ودرع النعمان بن المنذر وكثير من الاضياف المرصعة . وادركت اسماء من
تجميعها بعضها فوق بعض بلا ترتيب انها لم توضع هناك للزينة . ثم خرجت نائلة بها الى
غرفة اخرى صغيرة رأت فيها دكة عليها فرس من ذهب فوفة سرج من فضة وعلى
نفره ولباتو الياقوت والزمرّد وعلى الجواد فارس من فضة مكلل بالجواهر . وبالقرب
من الارس ناقه من فضة عليها شبل من ذهب وبطان من ذهب ولما زمام من ذهب
وكل ذلك منظوم بالياقوت وعليها رجل من ذهب . فانبهرت اسماء لتلك الخف
التي لم تر مثلاً ولكنها علمت لأول وهلة انها ليست من صنع بلاد العرب
فقالت ومن اين انت هذا الخف يا سيدتي

قالت انها غنائم ابطال المسلمين ما فتحوه من بلاد الفرس ^(١) وهي من خصائص
بيت المال وانما نقلناها الى هنا مؤقتاً لامر اقتضى ذلك وسنعيدها اليه فاحييت ان
اطلعت عليها لانها من ابداع المصنوعات ولا نظن الزمان ولا انسان سهاً تها مثلها

فقالت اسماء لقد عرفت فائدة النيجان والديوف والدروع ولكنني لم افهم فائدة
هذه الفرس وهذه الناقة

قالت نائلة لقد اخبرني بعض من شهد فتح المدائن من امرائنا انهم لما فقهوها
ودخلوا ابوان كسرى رأوا في صدر الابوان الدكة التي كان تاج هذا الملك قائماً فوقها
وطولاً انه كان مركباً على اسطواناتين من المرمر المذهب وعلى قمة احدى الاسطواناتين
هذا الفرس وراكبة وعلى قمة الاسطوانة الاخرى هذه الناقة وراكبها . وكان الثُرس
قد نزعه من الخف وحاولوا الفرار بها فعثر بهم المسلمون واخذوها منهم ^(١)

فاعجبت اسماء بما رأت اعجاباً عظيماً . وفيما هي تنظر الى صحن الدار لحت مروان مارة
فاجنلت وانقبضت نفسها والتمست الذهاب الى غرفتها متظاهرة بالميل الى الراحة
فوجدت نائلة ورجعت فدخلت الغرفة . واغلقت الباب وراءها ونوسدت الفراش
وخاصت في بمار الهواجس

أما مروان فكان قد علم بمجيء اسماء الى نائلة فهمه الاستنهام عما جرى بينها فاجاء
منظاهراً بمقابلة الخليفة ثم تحول الى غرفة نائلة فراها وحدها فساءلها عما جرى
فاخبرته انها لم تناقحها في شيء وانها ستهرب اليها في الغد ونرى ما يكون
فانفتح عليها ان تستطلع ضميرها وتة معها

فوعده بانها ستدعوها في الغد الى الإقامة عندها

الفصل الثالث عشر

— سرٌّ آخر —

وفي صباح اليوم التالي بكرت نائلة الى غرفة اسماء فوجدت الباب مغلقاً ففتحته
بلا استئذان فرائت اسماء لا تزال نائمة وقد اغضت جفناها وكُلَّها العرق ونوسدت
احدى ذراعيها تحت خدها وجعلت ذراعيها الاخرى فوق رأسها فانحسر كعبها عنها
فبان زندها وبانت عروقة مخضرة كأنها خطوط منعرجة رسمها الجبال تحت تلك
البقع الناعمة وحول زندها ثمة عضلاته واستدارت حتى يخال لهاظ ان الصحة تدفق

منه وكانت الشمس قد أشرقت فارسلت أشعها من نافذة فوق رأس اسماء فمرت
الاشعة حتى اجنازت قامنها ولم تقع عليها ولكنها جعلت لزندها ظلاً خفيفاً وقع على
وجهها فأخفى ظل أهدابها الطويلة . فوقنت نائلة تنأمل ذلك المجال المحلى بالصحة
وهي تحاذر ان توقفها فلمحت على معصها وثناً على شكل الصليب فاستغربت ذلك
لعلها انها مسلمة ولا يتخذ ذلك الرسم غير المسيحيين . فتفرست فيه فاذا هو رسم صليب
لا ريب فيه ثم دنت من رأسها فرأت العرق قد كمل جبينها وزادها بهاء وجمالاً
وكان اسماء شعرت بوقوف نائلة الى جانبها فغيرت وضعها ورفعت يدها عن
جنبها واستلقت على ظهرها فانفتح صدر ثوبها فيبان من تحو فلاة من فضة قد تعلق فيها
حجاب صغير أشبه شيء بحجاب المسيحيين لما علوه من الرسوم فازداد تعجبها واستغربها
وتعاضم ميلها الى استطلاع السر . وفيما هي تنكر في ذلك رفعت اسماء يدها الى عينها
فمسحها ثم فحنتها فرأت نائلة واقفة عند رأسها فحجبت لئلا يراها فنهضت للحال وارسلت
كفها فوق معصها واطبقت ثوبها على صدرها وقد ظهر الخجل على وجهها . فحنتها نائلة
فردت التهمة وهي تمنع عرقها ونهم بالوقوف فاقدمتها وقالت استريحى يا ابنتى انى لا
اريد ازعاجك ولم آت الا التماساً لراحك

فأثنت اسماء على فضلها ودعتها للجلوس فجلست نائلة على جانب السرير وهي
مسكة يد اسماء تنظر الى رسم الصليب فيها ثم قالت لقد استغربت هذا الرسم على
معصك وعهدي بك مسلمة فهل رسمته على سبيل الزينة
قالت لا اعلم كيف رسمته ولا انا ذاكرة يوم رسم لاني كنت طفلة وقد سألت
والدتي عن سببه فلم تخبرني

قالت وما هذا الحجاب الذي في عنقك

فمدت اسماء يدها الى الحجاب فاستخرجته من بين اثوابها وقالت ولا ادري ايضاً
من ألبسني اياه

قالت نائلة ولكنه حجاب مسيحي

قالت لعله كذلك ولكنني لبسته اطاعة لامر والدتي فقد اوصتني ان احفظ به

منذ طفولتي

فلم تستطلع نائلة شيئاً من حقيقة الواقع وازدادت رغبة في البحث فقالت الا اخبريني

يا اسماء كيف انصل اليك هذا الحجاب وكيف رسم على يدك هذا الصليب اخبريني
لا تخافي فان النصارى اهل ذمة عندنا . وزد على ذلك اني ولدت في بيت مسيحي
وكان والدي نصرانياً ^(١) فاخبريني عن حقيقة حالك وانا أعلم ان والدك يزيداً
مسلم اموي أباً عن جد

فذكرت اسماء والدتها وكفاتها اسم والدتها الحفني فتهتدت وصمتت
فجمعت نائلة لسكويتها ونسرتها وقالت لها . ما بالك صامتة . سوي لي بسرّك ولا
تخافي فانك بمنزلة ابنتي

قالت اسماء بماذا ابوح لك وانا لا اعلم من هذا السر شيئاً واعترف لك اني منذ
فجعت عيني وانا ارى هذا الصليب وهذا الحجاب ولا اعلم من خبرها شيئاً
قالت كيف يمكن ان يكون ذلك

قالت اسماء هذا هو الواقع يا مولاتي ولا اعلم من امرها شيئاً و وصمتت
فقالت نائلة قولي يا اسماء لا تخفي سرّك عني قولي ما في ضميرك ولا تخافي
قالت ماذا اقول وانا لا اعرف شيئاً غير ما ذكرت
قالت يظهر لي من ترددك انك تخفين شيئاً

فتهتدت اسماء تنهداً عيباً ونظرت الى نائلة والدموع ملّ عينها وحاولت
الكلم فحنقنها العبرات فسكنت

فضمتها نائلة الى صدرها وقبلتها وهي تزداد انهماً بنور طلعتها وقالت . قولي
يا ولدي قولي ما في نفسك وثقي اني حافظة سرّك عن كل انسان
فمسحت اسماء دموعها بكفها وتنست الصعداء وقالت ماذا اقول لك يا خالة
ان سرّك قد جدّد احزاني وأذكرني والدتي المسكينة . قالت ذلك وعادت
الى البكاء .

فمسحت لها نائلة دموعها وقالت رحم الله تلك الوالدة المحنونة فانها قد خلفت
لنا ملاكاً ساموياً . قولي ما هو سرّك
قالت ان سرّي يا سيدتي قد ذهب الى القبر مع تلك الوالدة قالت ذلك واوغلّت
في البكاء .

فقالَت نائلة أَلعلها كانت تخفي السرَّ عنك ومانت قل ان نبوح به
قالَت نعم نعم مانت وخَفَّت لنا حرقة فراقها وزادت تلك الحرقة لوعة بكفها
سرًّا ذهب معها الى القبر ولكنها
قالَت ولكنها ماذا

قالَت ولكنها اخبرني ان يزيدًا الذي يزعم انه والدي ليس هو بالحقيقة كذلك
فبغنت نائلة وتذكرت انها توسَّمت ذلك فيومذ رأته
فيومذ رأيتك ورأيت فَاخبرني ما تعلينيه من تاريخ حياتك لعل استنتج شيئًا منها
فقالَت اعلم اني ربيت في دمشق الشام منذ طفولتي وقد احضنتني تلك المسكينة
وزوجها يزيد هذا معها وكنت أظنه والدي ثم علمت انها تزوجته في مصر على أمر
قدوم عمرو بن العاص اليها وكان يزيد في جنده يوم الفتح فكانت والدي نصيبه
من الغنيمة وكنت انا بوليه طفلة بنت العام هذا كل ما اعلمه وقد ألححت هلى
والدي بالاستنهام عن حقيقة والدي فوعدتني وسبقها اجلها

فبهتت نائلة وظلت صامئة برهة تفكر فلم تدر ما تطع فم شيء
وفيها ما في ذلك سمعنا وقع اقدام مسرعة امام باب الغرفة فانفتحت فاذا بيزيد
قد دخل مسرعًا وعلى وجوه امارات البغنة فلما رأى نائلة هناك تأدب في
وقوفه وحياها
فقالَت ما وراءك يا أخا أمية

قال وعيناه تترددان واجفاهما ترف . . . ما ورأيت الا اخبر يا مولاتي
قالَت قل ما وراءك هل من امر بهنا
قال خرجت في هذا الصباح باكراً في مهمة بعثني بها مروان فرجعت الآن ولم
استطع الدخول الى هذا المنزل الا خلصة

فنهضت نائلة وقد خفي قلبها وحدثتها نفسها بسوء كانت تتوقعه وقالت ما الذي
منعك من الدخول

قال اقوام تجهروا حول منزل امير المؤمنين ينجيهم ورجلهم وقد هلا فصيبيهم
ولا ادري ما بنون

فبغنت نائلة وقالت وماذا بنون يا يزيد . . . قل
قال لا ادري يا سيدتي واظلم بنون شرًّا

الفصل الرابع عشر

— حصر عثمان —

فخرجت نائلة مهرولة وبدنها ينزرج لفضامة اوراكها^(١) وخرجت اسماء في أثرها وقد نسبت حزبا ونشدت كآتها بهم^٢ بالهجوم في حرب حتى دخلنا الى دار عثمان ونحولنا الى أول غرفة تشرف على الطريق فأطلنا فرأنا الناس جماعات وقد تجههروا بالسلمتهم وخبولهم وعلا صياحهم فاضطربت نائلة وامتنع لونها واخذت تخوف منها مأخذا عظيما

أما اسماء فما زالت رابطة الجاش وجعلت تشجها وتقول لها لا تخافي يا سيدتي فاهم لا يستطيعون الوصول الى هذه الدار وفي محاطة بهذا السور المرتفع وإذا هم هبوا بسلطو فاننا نسلطهم بالنبال والحراب

فحببت نائلة لجسارة اسماء ورابطة جاشها ونشجعت بها فامسكتها بيدها ونحولت بها من تلك الغرفة تريد غرفتها

وفباها في صحن الدار سمعنا لغطا ورأنا هناك نفرا من المهاجرين يهون بالدخول الى الدار وحالما وقعت عينا نائلة عليهم همست في اذن اسماء كلاما يعقله ارتعاش وقالت « هؤلاء هم كبار الصحابة قد أتوا ولا ندرى غرضهم من امير المؤمنين » ونظرت اسماء اليهم فرأت علما بينهم فحدثنها نفسها ان نحاطبه ولكن نائلة سارت بها الى اقرب حجج هناك التماسا للنجاء واغلقت الباب وراءها فاذا ما في حجج بينها وبين مجلس عثمان باب مقفل ونائلة لا تزال ممسكة يد اسماء وقد احست هذه بارتعاش اناملها فقالت لها ما الذي أخافك يا خالة

قالت نائلة بصوت مخفى لقد اخافني عبيد هؤلاء فانهم قلما جاؤونا الا لتوبيخ او مهدد

فقالت ومن هم

قالت علي بن ابي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله و هم أوجه الصحابة

ولم مطع في الخلافة كل منهم بتطلبها لنفسه . وما زلنا منذ تولوها امير المؤمنين لا يهدأ لنا بال ما يتهمون به من الاعمال . اما رأيت الناس محيطين بمنزلنا الآن فانهم اهل مصر والكوفة والبصرة قد جاؤوا لمطالبة الخليفة بامور ما انزل الله بها من سلطان

الفصل الخامس عشر

— اسباب الفتنة —

قالت اسماء بماذا يطالبون
فادنت نائلة فاما من اذن اسماء وقالت بصوت مخفض « هم يزعمون انه استأثر بالسلطة ففضل اقاربه في مصالح الحكومة فولاًم الاعمال دون سواهم وانه اكتسب الاموال الطائلة واقتنى المالك وانه يعطي المال لا قاريه ^(١) هذا ما يزعمونه ولكن الحقيقة غير ذلك

قالت وما هي الحقيقة اذا
قالت اما استنارته بالسلطة فذلك حقه من الخلافة لانه امير المؤمنين وله الامامة والسلطان . واما تفضيل اقاربه فلم يكن هو اول من فعل ذلك فقد كان الرسول (صلم) يعطي قرابته ^(٢) واما احراز الاموال والتوسع في المعيشة فانها حق هذا المنصب . وزد على ذلك ان امير المؤمنين يطعم الناس طعام الامراء واقسم برأسه ان طعامه لنفسه انما هو الخلل والزيت ^(٣) اتعتدين من يفعل ذلك طامعاً في الدنيا
قالت اسماء فاذا كان الامر كذلك فما الذي دعاهم الى هذه الثورة

فتنهت نائلة ثم قالت اهم يا عزيزتي انما فعلوا ذلك حسداً واني اعرف من زعماء هذه الثورة جماعة عاشوا في نعم امير المؤمنين اعواماً ثم وسوس لهم الشيطان . وقد اخبرني من اتى بروايته ان الذي حرضهم على الفتنة رجل يهودي اسمه عبد الله بن سبا أسلم حديثاً واخذ يتنفل في الحجاز والبصرة ثم الكوفة ثم الشام يريد اضلال الناس فلم

يصغول له فاخرجوه من الشام فأتى مصر فاقام فيها فأتى هناك اذنا وإعية فجعل يقول
لاهل مصر العجب ممن يصدق ان عيسى يرجع ويكذب ان محمداً يرجع فوضع لهم
بدعة يسمونها الرحمة فقبلوا ذلك منه ولكي يثير خواطرهم قال لهم قد كان لكل نبي وصي*
وان علياً وصي محمد فمن اظلم ممن لم يميز وصية رسول الله (صلعم) وزعم ان امير
المؤمنين (عثمان) وثب على وصيه واخذ الخلافة بغير الحق فقال لهم « انهضوا بهذا
الامر وابدأوا بالظلم على امرائكم واظهروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تستقبلوا
به الناس » ومث دعائه وكتاب من استنشد في الامصار وكتابه ودعوا في السر الى
ما عليه رأهم وصاروا يكتبون الى الامصار كتباً يعضونها في عصب ولاتهم واوسعوا
بذلك الارض اذاعة وبدأ الناساد من ذلك الحزن فنار المسلمون في كل الانحاء
الاهل الشام والمدينة فانهم ثبتوا على ولاه الخليفة^(١) . هذا هو سر الامر يا ابني واما
ما ذكره من احراز الاموال وتفضل الاقرباء فليس بالامر الهام

فثارت اسماه لذلك التول وشاركت نائلة باسئها ومالت كل الميل لنصره عثمان
ومثت الاثنتان نحو الباب المغفل بينهما وبين مجلس الخليفة وفي الباب ثقب يشف عن
هاك . فنظرت اسماه في الثقب فرأت عثمان جالساً في صدر المجلس على وسادة مزركشة
وقد علته البغته وامتنع لونه وآثار المجدي لا تزال ظاهرة فيه . ونائلة جيتاً فرأته
مشرف الاف عظيم الارنية^(٢) وقد حوّل نظره نحو الدار ويد اليسرى على لحية
يمشطها باصابعه يتشاكل بها عن هواجسه وخاتم الخلافة في احدى اصابعها وفي يده
اليمى قضيب الخلافة . وكان قد نزع العمامة عن رأسه حتى بانته صلعته^(٣) وسمعت
في بعض جوانب الفرقة رجلاً يقرأ القرآن ولم تنه . ورأت بين يدي الخليفة جماعة
من بني امية لم تعرفهم ثم سمعت وقع اقدام عند باب المجلس واذا بعثمان قد هم بالعمامة
فجعلها على رأسه ووقف لاستقبال القادمين وهو اكرام خصوصي* . فكان اول من
دخل منهم علي بن ابي طالب وحجاً عثمان بغية الخلافة قائلاً السلام عليك يا امير
المؤمنين ورحمة الله وبركاته^(٤) . ثم دخل بعده رجل مربوع الى التصرا قرب رحب
الصدر عريض المنكبين اذا التفت التفت جميعاً ضم القدمين حسن الوجه ايضاً مشرب
بالحمرة كثير الشعر ليس بالجمع القطط ولا بالسبط وقد شاب شعره فلم يصبغه فرأته

حيًا وجلس بجانب علي فالتفتت الى نائلة وسألتها عنه فقالت انه طلحة بن عبيد الله ^(١) ثم دخل في اثرها رجل اسم اللون خفيف اللحية معتدل العضل . فقالت اسماء ومن هذا قالت هذا هو الزبير بن العوام ^(٢) ولما استنب بهم المجلس قالت نائلة اجلسي يا ابنتي لنسمع ما يدور بينهم ففساهم ان يكونوا قد جاؤا لخبر فجلستا وها نريان ونسمعان ولا يراها احد

الفصل السادس عشر

— الشورى —

فجلسوا برهة لا يبتطق احد بكلمة ثم بدأ علي بالكلام قائلاً « اتدري لاي شيء جئناك يا امير المؤمنين »

قال عثمان « الله اعلم »

قال « يعلم الله اننا انما جئنا نريد بك خبراً انك يا امير المؤمنين ابن عم الرسول الاعلى وقد تزوجت باثنتين من بناتنا (صلعم) وتلك كرامة لم يجزها احد سواك وانت يا ابا عبد الله من السابقين الاولين وقد صليت الى القبلتين وهاجرت الهجرتين وانت اول من هاجر الى الحبشة وقد قال الرسول (صلعم) بين البقي هذه يد عثمان . وتوليت الكتابة له وجمعت القرآن . فانت يا امير المؤمنين من خير الصحابة وقد توفي رسول الله (صلعم) وهو عنك راض وبشرك بالجنة ^(٣) فلا نرضى ان تكون الامة ناقصة عليك حتى يهملوا بخلعك وقتلك ونحن نعلم انهم اذا تمكنوا من ذلك كانت الفتنة نعوذ بالله منها فتتقسم الامة وتكون العاقبة وبالاً عليها » وكان علي يتكلم وعثمان مطرق يقلب في صفحات القرآن

فلما اتم علي كلامه رفع عثمان رأسه وقال « اني عالم بكل ذلك يا ابا الحسن ولكنهم يقتلونني وقد سمعت رسول الله (صلعم) يقول لا يجزى دم امرء مسلم الا باحدى ثلاث رجل كفر بعد اسلام او زنى بعد احسان او قتل نفس بغير حق فانما لم افعل

شيئاً من ذلك ولكنني اتقدم إليكم ان تديروا عليّ»
فقال عليّ* « نرى ان نخطب الناس فانهم قد هاجوا واحاطوا بدارك ناقيين فقم اليهم وعدم خيراً »

قال عثمان « لقد طالما وعدتهم وطأنتهم فلم يرضوا »
قال عليّ* « لقد وعدتهم ثم اخلفت ولا نعد ذلك اخلاقاً منك ولكنك اصغيت لابن عمك مروان وهو غلام لا يفقه شيئاً فاذا نحن خرجنا من بين يديك جاءك واعظم استرضاءك المسلمين وقد فاته ان في استرضائهم قطع دابر الفتنة فقم اليهم وخطبهم »
وكانت اسماء تسمع كلامها فاستخسنت اصابع عثمان واستبشرت بانفراج الازمة فلما سمعت ذكر مروان اقتضت بدنها

اما عثمان فقال « اني اقوم واطبهم ولا يصعب عليّ ذلك ولكنني اود معرفة السبب الذي حملهم على هذه الثورة فاخبروني به فاذا كنت مخطئاً استغفرت واذعنت »
فابتداه الزبير قائلاً « هم يقولون انك استأثرت بالامارة واستخدمتها لمنفعة اقاربك وجمع الاموال والاستكثار من الممالك والضباع فانك تملك نحو مئة الف وخمسين الف دينار والف درهم نقوداً وبئنها من الضباع وقد اقتنيت الخيل والابل والممالك وقد كان الفاروق (عمر بن الخطاب) يرفع ثوبه بالجلد وهذا عليّ* ابن عم الرسول (صلعم) يقول يا بيضاء وبياصفراء غرّي غيري

فالتفت عثمان الى الزبير وقد نبط كأنه شعر بان الحق في جانبه وقال « أأنت تقول ذلك يا ابن العوام انحسون حشد الاموال ذنباً يستوجب القتل ونحن فيؤ سواه لم نستكثر است من الاموال الا تملك خمسين الف دينار والف فرس والف عبد والف أمة ماعدا الدور والضباع وهذا طلحة ايضاً فان غلته من العراق الف دينار في اليوم وله الف بعير وعشرة آلاف من الغنم وهذه دارة في الكوفة وتسمى الكناس^(١) وهذا زيد بن ثابت وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة عندهم الاموال الوافرة الملكم ورثوها عن آبائكم ام هي مال حلال لنا جميعاً وقد غنمناها في الجهاد بنعمة الاسلام

ثم وجه عثمان خطابه الى الجميع وقال
 « ألم تكن نعرف بعضنا بعضاً في الجاهلية وقد كنّا نسكن ارضاً غبرذات زرع ولا
 ضرع ألم يكن فينا اناسٌ يأكلون العقارب والخنافس ويناخرون بأكل وبر الابل
 يوهونه بالبحارة في الدم ويطنخونه . فلما انا رنا الله بالاسلام واجتمعت عصية العرب على
 الدين وطلبنا ما كتب الله لنا من الارض بوعد الصدق فابتزنا ملكهم ^(١) واستجينا
 دنياهم . اليس ذلك مالاّ حلالاً لنا فكيف نستوجب القتل والخلع عليه . واما اعالي
 اقاربي فقد كان رسول الله (صلعم) يعطي قرابته . ولكنني اراكم قد غرّتم مقالة
 ابن سبا » قال ذلك وقد أخذ منه التأثر مأخذاً عظيماً حتى رقصت لحبته
 فلما سمع عليّ مقالته اغضى عن الجواب عن مسألة ابن سبا لانها تتعلق بو مخافة ان
 تسبب نفوراً ولكنه قال « بخال لي يا ابا عبد الله ان سبب هذه الفتنة انما هو ما
 ذكرت من استكثار المال فانه يفرّق بين الاب وابنه وهذا ما حملني على كرهه حتى
 قلت (يا صفراء ويا بيضاء غري غيري) فما انها قد غرّتم ولكن مالنا ولهذا المجدال فقد
 جئنا نلتبس حسم الخلاف وهو لا يكون الا بمخاطبة هؤلاء الناس المحيطين بهذه الدار
 ولا آمن ان يحجى ركب آخر من الكوفة والبصرة فنقول يا عليّ اركب الهم فان لم
 افعل رأيتني قد قطعت رحمك واستخففت محفك ^(٢) »

فقال عثمان « اني اول من اخطأ ولا احب ان يهريق بسبي محب من الدم »
 قال ذلك وبهض وهو يصلح عامته ويمكّن برده على كنيه والنصيب يد وخرج من
 الغرفة وتبعه علي ورفاقه . فقالت نائلة لاسماء نحمد الله ان الامر قد قضي
 قالت اسماء بورك بعليّ فان بو صلاح هذه الامة ولكنني احب ان اسمع
 الخليفة بتكلم

قالت اتبعيني ان في غرفتي نافذة تطلّ على المكان الذي سيقف بو امير المؤمنين
 فهضتا ولبثنا رهة ريثما خرج الناس وخرجنا الى غرفة نائلة واطلنا من النافذة
 بحيث نريان ونسمعان ولا يراها احد . فرأنا عثمان قد أشرف على الجموع فلما رآه الناس
 علا ضجيجهم ونظروا اليه فقال وصوته يتلجج « ايها الناس اني اول من اخطأ . استغفر
 الله ما فعلت واتوب اليه فيملي من تزع وتاب . فاذا تزلّ فليأتني اشرافكم فلهروا فيّ »

رأىهم فوالله لئن ردني الحق عبداً لآستن بسنة العبد ولا ذل العبد وما عن الله مذهب الآلهو . فوالله لأعطينكم الرضا ولأغخبن مروان وذو به ولا احجب عنكم «
ولم يبق كلامه حتى اخنق صوته وترقرقت الدموع في عينيه وبكى كل من سمعه
وكانت نائلة واسماء اكثرهم بكاء . ولكن نائلة حمدت الله على انفراج الازمة
ونحولت هي واسماء عن النافذة

الفصل السابع عشر

﴿ اسماء ومروان وعثمان ﴾

وفما هما نحلوان سمعنا وقع اقدام قادمة نحو الغرفة ثم رأنا عثمان داخلاً وقد امتنع
لونه وهاجت عواطفه فلما رأته اسماء همت بالخروج حياء فدعتها نائلة للسلام عليو
فتقدمت اليو وهي مطرقة اجلاً للاقامو وهمت بتفيل يديو فحباها وهو ينظر الى جمالها
وهيبتها ثم نظر الى نائلة نظر مستهيم

فقالت نائلة انها ضيفة عندي يا امير المؤمنين واحمد الله ان قدومها كان خيراً
فقد حل المشكل . فتهند وهو يبحث عن وسادة يجلس عليها فلما جلس دعاها للجلوس
فجلستا وهو لا يزال يتفرس في اسماء وقد استغرب لباسها الاسود ثم قال ما لي
اراهها سوداء الثياب

قالت لانها فقدت والدتها بالامس وهي قادمة من الشام فنزلت عند جيراننا بني
حزم مع والدها

قال ومن هو والدها

قالت هو يزيد الذي جاءنا منذ ايام

فنظر اليها واتسم ابتسامة لم يغير شيئاً من مظاهرها اضطرابه وقال « لقد جئت املاً
ووطئت سهلاً عزاك الله على مصابك »

فقالت اسماء ان من كان مجوار امير المؤمنين لا يحتاج الى تعزية

فاعجبه حسن اسلوبها وقال وماذا يتعاطى والدك

قالت لا يتعاطى شيئاً يا مولاي
قال سننظر في ما ينفعه . ولم يتم عثمان كلامه حتى دخل مروان بغنة بلا استئذان
ومعه جماعة من شبان بني أمية فلما رأته اساء اجنلت وانقبضت نفسها ووددت الخروج
ولكنها استحييت من عثمان فانزوت في بعض جوانب الغرفة

اما مروان فانه دخل والسيف ميجر وراءه وقد ارخى رداءه نهباً وعجباً حتى اذا
اقترب من الخليفة جلس الى جانبه وحياء تحية الخلافة ثم حياه رفاقة وجلسوا وم
سكوت وعثمان ساكت . فلاحت من مروان التفاتة الى جانب الغرفة فرأى اساء
جالسة هناك فسر لتقربها من نائلة املاً بان تصفي لتصيحها فترضى به فاحسب ان بين
لها نكوده لدى الخليفة لعله ينال حظوة في عينها فنظر الى عثمان وقال « يا امير
المؤمنين انكلم ام اسكت »

فابتدرته نائلة قائلة « لا بل اصمت فامهم والله قائلوه ومؤتموه انه قد قال مقالة
لا ينبغي ان ينزع عنها »
فحملنى مروان فيها وقال « ما انت وذاك فوالله قد مات ابوك وهو لا
يحسن يتوضأ »

فقالت « مهلاً يا مروان عن ذكر الآباء . نخبر عن ابي وهو غائب تكذب عليه
وان اباك لا يستطيع ان يدفع عن نفسه . اما والله لولا انه عمه (عم الخليفة) وانه
بناله غمة لأخبرتكم عنه ما لن أكذب عليه » (١)

وكانت اساء تسمع كلامها وهي تكاد تميز من الفيض ولكنها احترمت المقام
وخافت ان يشجبها عثمان فصبرت نفسها لتسمع ماذا يريد ان يقول
أما مروان فاعرض عن نائلة مخافة ان تزيد تعيناً ونظر الى عثمان فقال
« يا امير المؤمنين انكلم ام اسكت »

قال تكلم
فقال « بآي انت وامي والله لوددت ان مقاتلك هذه التي قلتها اليوم على مسمع
من المسلمين كانت وانت متنع فكنت اول من رضي بها واعان عليها . ولكنك قلت ما
قلت وقد بلغ الحزام الطيبين وبلغ السيل الزبي وحين اعطى الخطبة الدليلة الدليل

وإله لإقامة على خطيئة ويستغفر منها أجل من توبة يخوف عليها . وإنت ان شئت
تقربت بالتوبة ولم تقربت بالخطيئة وقد اجتمع بالباب امثال الجبال من الناس (١)
يريدون ان ينزعوا ملكنا من ابدنا »

وكان عثمان يسمع مقالة مروان وهو مطرقٌ ينكر واسماء ترأف حركاته وهي
تخاف ان يصني لقول مروان فأنتس فيه اصفاء وشعرت ان الامر سيعود الى اعظم
ما كان فلم تعد نمالك عن الكلام فوقفت بقامة تجعل البان وقد زادها العيوس هبة
وحاطبت الخليفة فائلة « ايأذن امير المؤمنين لآمتو بكلمة »
قال « قولي يا بنية »

وكان مروان لما رآها حوّل نظره نحوها وهو يحجب لشجاعتها ونحوّت انظار
جميع الحضور اليها ينتظرون ما نقوله

فلما أذن لها بالكلام قالت « لا أنكر ان وقوفي بين يدي امير المؤمنين والتداخل
لي شوّون امارنو بعد جسارة او نطنلاً ولكنني التمس لنفسي عذراً اني انا وقفت
لاقول كلمة في مصلحة مولاي الخليفة ولو أدعى بي ذلك الى احتال غصبو وتوبيخو .
ايها يا امير المؤمنين اري في الاصفاء لقول ابن عمك هذا ايقاظاً للفتنة بعد ان
نامت ومدعاة للقتال وإثارة للحرب . فان تنازل امير المؤمنين لحسم الخلاف وحجب
الدماء لا يحيط من قدره . واما العمل بمشورة مروان فقد يأول الى شرّ عظيم »
فلما سمع مروان مقالها فقه استخفافاً ولم يجيبها ولكنه حول وجهه الى الخليفة وقال
« كأن هذه الفتاة تريد ان يسمع امير المؤمنين لمشورة النساء وقد قيل امين ناقصات
الافعال » . قال ذلك وأغرب في الضحك

فحمي غضب اسماء وثارت الحمية في رأسها وقالت « ان النساء هما قيل في نقص
هنّ كنّ اكمل عقلاً من برى العبد ولا يعتبر . لقد كفالك تغريراً بامير المؤمنين
واعلم ان الذين اشارو عليهم بما عملتم انما هم غلبة المهاجرين وخيرة اصحاب الرسول (صلم)
وليسوا ناقصي القول »

وكانت نائلة تسمع كلام اسماء وقلها برقص طرباً ولكنها خافت من طيش مروان
وتوقفت ان يغضب . فاذا يو قد عاد الى الضحك وقال « لا تقول انهم ناقصو العقل

ولكنهم مناظرونا على الحكم يريدون اذلالنا ومع ذلك فليس من شأنك المشورة على امير المؤمنين »

قالت « لم اقف في حضرته الا باذنه وليس لك ان ترد امرأ امرى هو »
فحمي غضب مروان فوقف وبنّ على قبضة حسامو وقال « والله اني ضاربك مجد هذا السيف فقاطعك نصفين »

فتبسمت اسماء باستخفاف ورفعت يدها وقد انحسر بعض كهها حتى بان ذلك المعصم المندمج وقالت وهي تشير اليه بسبابها تهديداً « لا نظني اخاف حسامك اذا جردته ولولا حرمة امير المؤمنين لقتلتك بسيفك فاحترم الخليفة واردد يدك عن قبضه فما انا من يخاف السبوف . ولا يهزئك اني فتاة واذا اردت ان تعرف من انا فعليك بالنزال في ساحة الوشي »

فجذب الحضور هذه الحماسة وبهتوا جميعاً لما سمعوه ما لم يكونوا يتوقعونه من صاحبة تلك الطلعة وذلك القدر

أما مروان فنجعل من توبيخها وكظم غيظه وتظاهر بالاستخفاف وعاد الى مجلسه ضاحكاً وهو يقول « لولا حرمة امير المؤمنين لعلمتك معنى النزال »

قالت « كان يجب عليك ان نخترم مجلس الامير قبل ان تنبض على الحسام وما رجوعك عن وفاحتك الا جبن وخزي »

فهم مروان بالوقوف ثانية وقد امتنع لونه وارتعشت انامله فامسكه عثمان بكى واجلسه وهو يعجب لجرأة اسماء وقد اعجب بها كل السامعين . اما عثمان فجعل يبنّ على كتف مروان وقال له « لم اكن اتوقع منك اطالة الجدال على هذه الصورة وكأني بك اذا تركتك وشأناك جرّدت السيف امامي !!! »

فجعل مروان وسكت وفي نفسه حزازت ونفمة
واشار عثمان الى نائلة فهضت وامسكت اسماء ونحوت بها من الذرقة فخرجتا والناس يتبعون اسماء بابصارهم ويعجبون بما سمعوه وينظرون من ورائها الى لين قامتها واسترسال شعرها وثبات قدمها

فلما حلتا في حرفة اخرى همت بها نائلة وقبلتها والدموع ملء عينها وقالت « بورك فبك يا اسماء والله انك قد شلّمت غلبي من هذا الغلام ولكنني اعلم انه سيُنقِ الخليفة

ومجبهة على الرجوع »

قالت فلنقف هنا لعلنا نسبع ما يدور بيننا . فوقفتا فسمعتا مروان يقول لـ « مالنا ولا قول النساء ان الامر جل ولا ادري اذا كنت قد قلت ما قلته عن اجبار » قال عثمان « ومن هو الذي اجبرني عليه »

قال مروان « الا ترى في ذلك حطة لقد ربي امية كيف نستغفرهم على امر نرى لنا فيه الحق الواضح . الا تعلم يا امير المؤمنين ان بني امية تناخروا سائر قریش بل سائر العرب بخلافك فكيف نقول ما قلته على مسمع من الالف على اختلاف قبائلهم وبطونهم . فقد اذللنا واشمت بنا الناس . ومن هم هؤلاء الذين اعذرت لم جهازاً أم بخلعوا طاعتك لانك لم تؤثرهم على ذوي قرابتك ولانك لم تعزل احاك عبد الله بن سعد عن مصرونولي مكانه رجلاً بخنارونه . هل كان هؤلاء الواقفين على بابك الآن ان يقفوا موقفهم هذا بين يدي ابي بكر او عمر »

فتنفس عثمان الصعداء تنفساً سمعتا زفيره فعلما انه قد ضاق ذرعاً مما تراكم عليه من الهواجس ثم قال « وما العمل اذا »

قال مروان « العمل ان نبين لم اتنا لسنا بخائفين من كثيرهم » قال عثمان « اما انا فلا اكلمهم لاني استحيي ان اقول ثم ارجع »

قال انا اخرج اليهم . قال ذلك وخرج

ولم يبق عثمان كلامه حتى سمعتا وقع اقدام مروان في الدار فقولنا الى النافذة فرأناه قد وقف حتى اشرف على الناس من فوق سور الدار وقال « ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لهيب شاهت الوجوه الى من اريد . جئتم تريدون ان تنزعوا ملكنا من ايدينا اخرجوا عنا والله لئن رمتونا ليمرن عليكم منا امر لا يسركم ولا تحمدوا غيب رأيكم ارجعوا الى منازلكم فاننا والله ما نحن بمغلوبين على ما في ايدينا »^(١) فضج الناس حتى ملأ صهيحهم الضضاء

فقالت اساء في سرها تباً لك يا مروان وصاحت نائلة فبعك الله من غلام . انه والله سينودنا الى سر ما توقعه . قالت ذلك ونصت عن النافذة واساء تبعها فاذا يجاري تنادبها الى الخليفة فاعذرت من اساء ودخلت عليه

فسارت اسماء نورا الى غرفتها وهي تتوقع ان يأتيا منها مروان مهتدا او مستقفا فدخلت
الغرفة وهي لا تزال ترتعش من الغضب وعولت اذا جاءها مروان مهتدا ان تشدد
النكير عليه واذا تطاول فتكت به . واستحضرت خنجرا كانت تنقله تحت اثوابها في
الاسفار . ولم يكن والدها هناك

الفصل الثامن عشر

— ﴿ اسماء ومحمد ومروان ﴾ —

فأغلقت اسماء الباب وجلست على السرير وهي تتأمل في ما مر بها في ذنبك
اليومين من انواع الفرائب . فتصوّرت والدتها وحنوها وتذكرت كيف كانت تشكو
اليها ههنا في مثل تلك الحال فغلب الحزن عليها حتى بكّت . وفيما هي في ذلك سمعت
مشيا امام باب غرفتها فاجلست وافتقدت الخنجر وتحنّزت للوقوف وقد نسبت حزنها
ولبت ههنا فلم تسمع صوتا فظننت ما سمعته وقع اقدام مارٍ امام الباب . ثم سمعت نرا
على الباب فوثبت اليه وفجّته وقد نهيات للقاء مروان . فاذا في الباب محمد بن ابي بكر
فبغت وغلب عليها الحياء واخلط حياؤها بامارات البغته فزاد وجهها هيبه وجلالا
أما محمد فلما رآها على تلك الحال ابتدرها قائلا ما بالك يا اسماء ما الذي اخافك
فغالبته وحينئذ لم تنجبه على مواله

فردّ عليها القية ومد يده فسلم عليها وشعر عند لمس يدها ببرد اناملها وارتعاشها
فقال ما بالك ترتعشين وانت وحدك . قال ذلك وهو ينظر الى جوانب الغرفة لعله
يري احدا هناك فلم يجد فازداد تعجبا

اما هي فجلّت وقالت لا شيء يخيفني يا محمد وانا في حياي الحسن
قال لقد صدقت ولكنني اراك في اضطراب وهياج كما لك كنت تخصمين احدا
ام انت ترتعدين لقدومي على غرة وانا انما فعلت ذلك طوعا لا امر على فانه ارسلني
لافتقدك لعلك تحتاجين الى امر

قالت بورك فيك وفيك واشكر عنايتكما في فاني بحمد الله في خير وعافية ادعو
لسيدي ابي الحسن بطول البقاء . قالت ذلك وجلست الى السرير

أما هو فودّ أن يمكث عندها ولكنه خاف أن تستهجن ذلك منه لخلو المكان من الناس فقال « وابن والدك »

فتنهدت وقالت لا أدري ابن هو الآن

فقال ما بالك تنهدين يا اسماء اني اراك تكتمين امرًا هامًا

قالت لا اكتم شيئًا ولكنني وسكنت قال ولكم ما ذا . قولي

قالت لا أدري ما ذا اقول وانا لا انظر اليك الا وذكرْتُ والدتي المسكينة التي

ذكرت اسمك وهي على فراش الموت . قالت اسماء ذلك ونزقرقت الدموع في عينيها

فلما رأى محمد دموعها انظر قلبه لها وامسكها بيده وجوارحه فخلج وقال « رحم

الله تلك الوالدة فاني ما برحت منذ رأيتها وانا في شغل لا يهدأ لي بال قلنا عليك وقد

كان يجب عليّ انا افتدك قبل الآن ولكن الشواغل المحاضرة حالت بيني وبين ما

اريد فان امر هذا الخليفة قد حيرنا وشغل بالنا فلا تكاد نرتق فتقًا حتى ينتق غيرة

وكانا يتكلمان ومحمد واقف والباب مغلق نصف انغلاق فلم يتم محمد كلامه حتى

رأى مروان داخلا وملاح الغضب تلوح على وجهه وقد حمل سيفه يساره فلما رآه

محمد على تلك الحال توسم الغدر في عينيه فنظر اليه شذرا ولم يعبا بـ

اما مروان فقال وقد علاه الاصفرار والبنية « ما الذي جاء بك الى هذا المكان

يا ابن ابي بكر » . فقال محمد « ما شأنك وهذا السؤال وما انا في منزلك »

قال « بلى انك في دار الخليفة وقد دخلت على نساءنا بلا استئذان »

فاستغرب محمد قوله ونظر الى اسماء كأنه يستنهبها بمغزى تلك العبارة فاذا هي

تقول بقلب لايهاب الموت

« ان مروان يتكلم من عند نفسه في ما لا يناله باعة ولو هما تطاول »

فابتسم مروان ابتسام الاستخفاف وقد تعاطف غيظه وقال « سلي والدك اذا كان

باعي بنالك ام لا »

قالت « دع الآباء وارجع من حيث اتيت والا اسمعك ما لا يرضيك »

فضح مروان وتوكل بين علي سيفه وقال ويدك الاخرى على شاربه « اراك

تفررين بنفسك كأنك نسيت ما نالك في حضرة الخليفة الا تعلمين انك اذا بقيت

على غرورك ندمت حين لا ينفك الندم »

فاستغرب محمد ذلك الجدل ولكنه أدرك ما في نفس مروان فانقدت في قلبه نار الغيرة وعظم عليه ذلك البطاول ومروان يريد ضربها فاعترضت اسماء بينها وقالت « دعه يا محمد لا أرى ما هو فاعل » قالت ذلك وتقدمت الى مروان ويدها على خنجرها كأنها نهم باستلاله وقد افطبت حاجبيها وحي غضبها حتى كاد الشر ينطأ من عينيها فأنهله محمد لتلك الشجاعة ولم يكن يعهد مثل ذلك في النساء فأراد ان يقف بينها وبين مروان فلم تمكنه من ذلك

اما مروان فلما رأى ما كان من اسماء وأدرك ان محمداً منجدها خاف العاقبة وكان قد قبض على حسامه فرفع يده عن قبضته وتظاهر بالضحك ومثله يريد ان يمسك يد اسماء ويخاطبها فيجذب يدها وقالت « اسل حسامك وأرني شجاعتك وهذا ابن ابي بكر شاهد على المغلوب منا »

فقال مروان انظنين اني اجد حسامي على فتاة اما دولهك يا اسماء فهو عندي . قال ذلك وخرج متظاهراً بالغضب وهو انما خرج خائفاً كاذماً وعول على التفك باسماء غيلة

أما محمد فلما خرج مروان نظر الى اسماء فاذا هي قد علت وجهها مهابة اعظم الابطال وذهب عنها ذل الحزن وضعف النساء فاعجب بما خصها به الخالق من الهبة والافنة فأمسكها بيدها وأرجعها الى السرير قائلاً بورك بشهامتك يا اسماء ولكنني اراك قد اهتمت بهذا الشاب أكثر مما يستحق فاتركيه وشأنه

قالت وهي تحاول تخفيف غضبها « اني لا ابالي بشفتنك والله لو انه حمل علي بنة رجل مثله ما حسبت لم حساباً »

قال مالك وللإقامة في هذا المكان اذا تعالي نذهب معاً الى منزل علي فتقيمين ضيفة مكرمة

فقالت « أتريد يا محمد ان افر من هذا المكان كلاً وترية والدتي لا ازال مقيمة هنا حتى ارى ما يكون من امر هذا الغلام الغر »

قال انحسرين ذلك فراراً

قالت نعم فدعني اقيم هنا لا أرى ما يكون من امر

قال وما يهمك منه ذهب وشأنه

قالت يهني طيبة الذي وسع الخرق وأغضب المسلمين على الخليفة ولولا حماقة
لاغفل المشكل وخلص الناس من الفتنة

فقهر محمد كيف يخرج بهامن ذلك المنزل وقد همة بقاءها هناك غيرة طيها فأحب
ان يستطلع العلاقة بينها وبين مروان فقال وما الذي جعل لك هذه الدالة عليك هل
تعرفينه قبل اليوم

فتنهت وقد تذكرت ما فيها وقالت وهي تذمر « اننا عرفناه من الشام وقد رافقنا
بسررتنا المشومة الى قباء ثم دخل المدينة قبلنا وهو الذي كان السبب في موت والدي
قبل وصول علي

فحب محمد وقال وكيف سبب ذلك التأخير

قالت ان حديثنا يا محمد طويل يحتاج الى شرح ولكنني اقول بالاختصار ان
هذا الشاب قد رافقنا من الشام لمطعم كان في نفسه ينصر عن ان بناه ولولا ضعف
والدي وانحيازه له لما استطاع المسير معنا خضوة ولكن

فقال واي مطعم

فلم تجب كأن الضعف والحياء قد عادا اليها فأطرقت صامئة

فهم محمد مرادها فازداد بغضاً لمروان وغيرة على اسماء ولم يعد يصبر
على بقاءها هناك وحدها ونظراً لما يعلمه من تنوذر مروان لدى الخليفة خاف ان
بوسطة في اقناعها او استرضائها فتقبل هي بو ولو كرهاً ولما تصوّر محمد ذلك احسن
بهران هبت في بدنه وازداد رغبة في خلع عثمان او قتله . فصمت برهة ينكر ثم قال وهو
يريد ان يزبدها كرهاً واحتقاراً لمروان « اني اعرف عن هذا الغلام ما لا يعرفه سواي
فقد سمعت من اخوتي ام المؤمنين (عائشة زوج النبي) ان النبي (صلعم) لعنه وهو في
صلب ابيو فقال لايو الحكم بن العاص « ويل لامي ما في صلب هذا » (١)
فماذا ترجون منه بعد ذلك فاصفي لتولي وتعالني معي فتخلص من وقاحته »

قالت اما الآن فلا اخرج من هنا لان في خروجي عاراً ولكنني ربما خرجت في

فرصة اخرى

فبهت محمد وهو يود ان يبثها ما خالج قلبه من حياء ويستطلع ضميرها ولكن الحياء

والحمية منعاه عن ذلك فظل برهة صامتاً وهو لا يزال واقفاً بازاء السريروايماء جالسة
مطرفة وقد خالج ضميرها مثل ما خالج ضمير وفي أكثر حياء منه فظلت صامتة تنتظر
ان يفتح هو الحديث

الفصل التاسع عشر

﴿ يزيد ﴾

فقال محمد اني لا ارى عاراً في خروجك من هذا المكان الى منزل علي وهو
الذي كلني بذلك ولا اخفي عنك ان الامروافع على الخليفة فهو لن ينجو من الخلع او
القتل وخصوصاً اذا ظل مصغياً لمشورة مروان فيها بنا
فهمد في الجواب ولم تكذب تنعل حتى سمعت سعال والدعائم رأياً دخل بهتة
وقد عاد من سفر قريب فلما رآه محمد بكس ونفر من رؤيته لانه لم يكن يحسن الظن
فيه اما يزيد فلما رأى محمداً تقدم اليه وحياءً وتظاهر بالترحاب وسأله عن علي .
فاجابه محمد بهل سؤاله

فقال يزيد كيف مولانا ابو الحسن

قال هو في خير

قال ألا بنوي الخروج الى الحج فقد آن اوانه (١) وارى الناس يتأهبون له

قال لا اظنه يستطيع ذلك هذا العام

فقلت اساء ولماذا

قال لان خروجه من المدينة قد بوجب ارباكاً لما تعلمين من اختلال الاحوال

ولكنه دعاني ان اجمع ودعني شقوتي ام المؤمنين ان اخرج معها الى الحج ولا
اغني خارجاً (٢)

فالت ولماذا

فلم يجب ولكنه اشار بلام وجهه انه لا يرتاح باله في الخروج من المدينة طالما

كانت هي في ذلك المكان على تلك الحال

فادركت اسماء انه يجيها ويفارطها ولكنها تجاهلت مخافة ان يراها
شيئاً من ذلك

أما محمد فخطب يزيداً قائلاً . لقد جئكم مندوباً من مولاي ابي الحسن ادهوكا
للنزول عند اذناكم تريان في الإقامة هنا نعباً لجواركم من بيت الخليفة والناس
محيطون ، كما ترون

فقال يزيد لا اظن علينا بأساً هنا وقد فضّ الخلاف على ما سمعت
فابدرته اسماء قائلة كيف بنضّ الخلاف وصدقتك مروان واقف بالمرصاد
قال وما الذي فعله

قالت بعد ان رضي الخليفة باسترضاء الدائرين واستعطافهم حرّضة مروان على
الرجوع فعاد الامر كما كان عليه واظن محمداً اعلم منا بما ينوون لانه قادم من بينهم
فهزّ محمد رأسه وقال نعم ان كلام مروان في صباح هذا اليوم قد وسع الخرق
حتى استحل الخطب ولم يعد تلافيو ممكناً وهذا ما خوّفي عليكما لتربكما من الخطر
قال يزيد وما ذا ينوون

قال اذالم ينل هؤلاء الناس ما يرجونه لا ادري ما تكون النتيجة كفا ما الله
شرّ الفتنه

قال والحبث والرياء ظاهران علي وجهه اراهم تعصبوا عليه بغير حتى وهم انما
جاؤوه يلتصقون الدنيا وفيهم من حقد عليه لغنم فآتاه بعدلوا وآخرون لحدث سمعوا
من وائس مبغض وغيرهم لغير ذلك ولكنهم جاؤوا بدعوى الغيرة على الاسلام
قال محمد (وقد أنف من جدالو) « كل يعرف ما نواه » وسكت برهة . ثم قال
والآن ألا تخرجان معي الى منزل علي قال يزيد لا نرى ثم حاجة الى ذلك الآن
فتمض محمد وودعها وخرج وفي نفس حزازات وحقد على مروان وخاف من
عثمان اذا بني على منصة الخلافة ان يكون عوناً لمروان في استرضاء اسماء
اما هي فلم يكده بنواري محمد حتى ندمت على بقائها هناك ولكن انتمها لم تكن
تأذن لها بالخروج في تلك الحال

الفصل العشرون

﴿ الحيلة ﴾

اما يزيد فاستيقظ وسواسه لما رأى من اخلاء محمد بابتو واصبح يخاف عليها منه اذا جاءها من اخرى ففكر في حيلة تنجيها من ذلك فاحب ان يفضله اليها فقال « ارى محمداً من جملة الناقمين على الخليفة ولكنني لا اظنك تعلمين سبب نفيتمو »
فالت وما ذلك

قال قد علمت عن ثقة انه كان طامعاً في ولاية مصر وعليها عبد الله بن سعد بن ابي سرح اخو الخليفة من الرضاة فلما لم يؤمن الخليفة على اخيه نعم عليو . وقد بلغني انه كان قد ولاه مصر ووجه اليها ثم رجع عن عزمه وارجعه عن الطريق^(١) فعاد نائماً وهكذا شأن اكثر هؤلاء الناقمين وقد رأيتني لفت له بذلك فلم يجب . فاستنكرت اسماء من الطعن بمحمد وهي تشعر بالاعتفاف نحو ومهل شديد اليو فسكت . وفكر يزيد بعد ذلك في ما يأمن به خروج اسماء الى علي فلم يبرح خيراً من ان يدخلها منزل الخليفة تقيم فيه محجورة . فتركها في الغرفة وقصد نائلة وترامى على اقدامها وبكى

فالت ما يبكيك يا ابا اسماء

قال يبكي يا سيدتي حال ابنتي من الحزن والنوح على فقد والدها وهي وحيدتي فلا آمن اذا بقيت مقيمة وحدها ان تصاب بجنون وكثيراً ما اراها تمث بالخرج الى مدفن والدها في قبا . للندب والبكاء فامسها بالحنى فلا تمنع ولا يجنى على مولاتي عاقبة الاحزان وابنتي كما تعلمين فتاة صغيرة لا تعلم من احوال الدنيا شيئاً . قال ذلك وشرى بدموعه مكرراً وخداً

فالت نائلة وما ذا ترى ان نعمل بها

قال ارى ان تكون عندك وتحت جناحك

فسرت نائلة بذلك الرأي لانهما اسما لست باسما . وارتاحت لخدمتها وانجبت

بدهامها . فالت لك علي ذلك فأت بها اليها

قال اخاف اذا انا حملتها على الجيء ان لا تطيعني لنرط حزنها ولايتها اصبحت
بعد هذه المصيبة التي دأمتنا نسي الظن بي وقد تعترضني في كل عمل اعمله وانا ارفق
بها واسيرها مراعاة لمواطنها فاذا رأيت ان تدعها انت كانت اطوع لك
قالت اني فاعلة ذلك حبا وكرامة وممت بالبهوض والمسير اليها
فابندرها يزيد قائلا وانقدم اليك يا مولاي اذا اقامت عندك ان لا تأذي لها
بالذهاب من منزلك فط لايتها قد تحال في الخروج لغرض تدعيه ولا يكون غرضها
الا المسير الى قباء

قالت لن ترى سبيلا الى الخروج . فودعها يزيد وخرج
اما اسماء فلما خلعت بنفسها تذكرت مصائبها ومن اعظم تلك المصائب نسلط
والدها الغادر فحلا لها البكاء فاذاقت باب الفرفة واخذت تبكي وتندب سوء حظها .
وفيما هي تبكي دخلت عليها نائلة فلما رأتها على تلك الحال تحققت قول والدها فهتت
بها وجعلت تقبلها وتعزيها وقالت لها ما بالك تبكين يا اسماء لقد بالفت في الغيب
وقد عهدتلك رابطة الجاش قوية الجنان وانت تعلمين ان لا فائدة من الحزن . فلم
تردد اسماء الا بكاء حتى هاجت اشجان نائلة لتذكرها حال زوجها والخطر المهدق
يو قبكت معها

فلما رأتها اسماء تبكي شكرت مشاركتها اباهما مصابها وشعرت بتعزية داخلية
وقالت ما الذي يبكيك يا سديتي وانت زوج الخليفة امير المؤمنين مالك
وقاب المسلمين

فازدادت نائلة بكاء وقالت «كيف لا تعلمين سبب بكائي وقد ذهبت بعينيك
ما احاط بنا من البلاء بطيش ذلك الشاب الفر»

فانقبضت نفس اسماء عند الاشارة الى مروان وتنهت تنهيا عميقا ولسان حالها
يقول «ان ذلك الاحق هو سبب بلائي انا ايضا ولكن الحمياء منعوا عن التكم
فظلت صامتا

اما نائلة فلما سكن روعها قالت لك يا اسماء واسطة تعزيقي في هذه المشاق فاذا
كنت تحييني تعالي نعيم معا في منزلنا
فأنت اسماء على ذلك التنازل ويخيل لها ان حب نائلة قد يكون حوتا لها على

التخلص من مروان اذا وسط الخليفة في تنفيذ ما ربه فقالت اني طوع ارادتك باسديتي
لان الاقامة تحت جناحك شرف عظيم اثلي
فوقفت نائلة وامتنعت اسماء فتمضت معها وسارنا الى بيت نائلة

الفصل الحادي والعشرون

— التهديد —

قضت اسماء بقية ذلك اليوم وهي تفكر تارة في مروان وطوراً في محمد وأونة في
حالمها مع والدها وقد ندمت في باطن سرها لانها لم تذهب مع محمد الى منزل عليّ على
انها استأنست بنائلة وارناحت الى مجالستها وكذلك نائلة فانها اتخذت اسماء تعزية
لها في ضيقها لما آتته فيها من سداد الرأي وثبات الجأش وحسن الخلق وكانت قد
ادركت نفورها من مروان وهي ليست اقل كرهاً لهما ولولا قرابة من الخليفة لفرعت
له العصا واوقفته عند حده

ولما امسى المساء وتناولنا العشاء في غرفة المائدة والخدم والجواري وقوف بين
يديهما والاضطراب ظاهر على وجوههم على غير المعتاد
فلما فرغنا من الطعام وتحولنا الى حجر الرقاد نادى نائلة قيم الدار فسألته عما
هنالك من الخبر فأبكر أولاً ثم قال ان مولانا الخليفة لم يذق طعاماً في هذا المساء
وهو في اضطراب وارتياب شديد

قالت وما الذي دعاه الى ذلك . قال التضييق ألم تنظري الى الناس حول
الدار وعند الابواب فانهم قد حاصرونا ومنعوا الماء عنا
فبغمت نائلة وصاحت « وكيف بمنعونا الماء فبهم الله »

قال لقد منعوا يا سيدتي ونحن انما نستقي الآن ما بقي في الآنية من الامس ولا ندرى
اذا ظل الحصار كيف نستقي . وهذا هو الامر الذي دعا مولاي امير المؤمنين الى القلق
فلعلبت نائلة كفاً بكف وصاحت وبلاء كيف بمنعون الماء عن امير المؤمنين
ان علمهم هذا لا يشبه عمل المسلمين ولا الكافرين

فقالت اسماء لا يسودك ذلك يا خالة اني ضامنة لك الاستفاء ولو منها بالغ

هؤلاء في الحصار

قالت نائلة وكيف نستطيعين ذلك

قالت يسهل الامر بأن نُجمل الماء الى بيت جيرانكم آل حزم ونحن ننقله سرّاً الى هذه الدار^(١).

فارتاحت نائلة لهذا الرأي ولكنها ما زالت خائفة عاقبة الحصار فصرفت التيمّ وجلست الى اسماء وهي تنهد وتناوّه واساء يهوّن عليها . ولم تكد تجلس حتى سمعت جلبة ووقع اقدام في الدار فنهضت مسرعة ولحها بترجرج لسمتها ولم تكد تفتح الباب حتى لقيها مروان وقد تزمل بعباءته وتقلد سلاحه كأنه تأهب لسفر فلما رآها سلم عليها وتقدّم نحوها فاستعاذت بالله من رؤيته وقالت ما الذي جاء بك يا مروان قال اني سائر في مهمة وقد جئت لوداعك . وهل تلك الفتاة الدمشقية عندهم

قالت في عندي وما غرضك منها اذهب في مهمتك

قال بل اريد ان اراها قبل سفري . قال ذلك ودخل الغرفة فلما رآته اسماء اجفلت ولكنها لبثت صامتة لا تحرك فقال لما وهو يضحك « الا تزالين على قولك في منازلتي يا اسماء »

قالت وهي لا تزال جالسة لا نعباً بقولها « لو كنت رجلاً حرّاً لنازلتني لما دعوتك للنزال »

قال لولم يطرأ عليّ السفر المستعجل لعلّتك كيف تؤكل الكنتف وافهمتك ان ابن ابي بكر لا يفني عنك شيئاً

فلما سمعت احتقاره لمحمد ثارت فيها الحمية وقالت « لا تذكر رجلاً في غيبتو فاذا حضر سكّت ورجعت »

فاغرب في الضحك وقال سوف ترين وتسمعين ما تندمين عليه ندماً لا يبيدك ولسوف يذوق هو مرارة الحرمان من منصب طمحت انظاره اليه فنم من اجلو على امير المؤمنين وهاج المسلمين وحرّض على الفتنة

فارادت اسماء ان تخبية فاشارت اليها نائلة ان تكفّ وقالت لمروان سافر يا ولدي لعل في السفر راحة لنا ولك اسالم رّ في اقامتك خيراً

فضحك مروان وقد حوّل مرادها الى المزاح وامسكها بيدها حتى تواريا عن اسماء وهمس في اذنها قائلاً « احتفظي بها فاني عائد قريباً لكتابة الكتاب لانها والله جميلة واراني احبها واغار عليها بالرغم عني ولا ارى من بنات قریش اجمل منها ولا اكمل ولكنها لا تزال صغيرة السن لا تعرف مقام الرجال »

فتركته ماثلة وتحولت الى الغرفة وهي تعجب لطيشه وبهوّه فلما خلعت باسماء عادت الى هواجسها وفكرت في ما هم فيه من الحصار فلم ترّ وسيلة للملافة الفتنه الا بتوسط عليّ ولكنها تذكرت مقالته يوم اجتماعهم بالامس وتحذير زوجها من اغراء مروان ففحقت انه لن يقدم لصرتو فصبرت نفسها لترى ما يأتي بو الغد اما اسماء فانها سرّت لخروج مروان من المدينة لعلها تتمكن في أثناء غيابه من وسيلة تصلح بها ما افسد

الفصل الثاني والعشرون

— ﴿ التحريض على السلام ﴾ —

وقضت اسماء في دار عثمان بضعة اسابيع على تلك الحال كانت في اثناءها تعزية كبرى لثلاثة والدار محاطة بالرجال ليلاً ونهاراً وقد منعوا الماء عنها ولولا ما اشارت بو اسماء من الاستفتاء بواسطة آل حرم^(١) لمات اهل الدار عطشاً

اما نائلة فلم تعد تستطيع صبراً على تلك الحال فاصبحت ذات يوم وقد قضت ليلتها باكية لما تراكم عليها من الهواجس وما آتته من اضطراب زوجها وقلقه وخوفه ففكرت في الامر طويلاً فلم ترّ خيراً من استنجاد عليّ فشكت همّها سرّاً الى اسماء واستخفت حبيبتها . فاستسلمت اسماء كل صعب في سبيل اخماد تلك الفتنة وافاذا عثمان من عاقبتها . فقالت لثلاثة اني عارضة عليك رأياً ارجوان توافقيني عليه

قالت وما هي

قالت اري ان اسيرانا الى عليّ ومروان غائب واطلمه على جلبه الواقع فلعله

يسعى في اخماد الفتنة وهو رجل الخير وبه صلاح هذه الامة
 قالت لقد رأيت الصواب وانك اذا فعلت ذلك تقلدني جيلاً لا انساؤه
 قالت اني ذاهبة في مساء الليلة خفية والله ولي الامر
 فلما كان الغروب تزملت بلباس الرجال وتقلدت الحمام تحت العباءة وغطت
 رأسها بالكوفية والعنقال وخرجت من دار عثمان الى بيت بني حزم وخرجت منه
 فتهترق المجموع وسارت ثمانس بيت علي

وكان علي جالساً في بيته بعد صلاة الغروب وعند طلحة والزبير وامراء المسلمين
 القادمين من الامصار فتمت على عثمان وكلهم يحرضون الناس على الانتقام ولكنهم لم يجد
 محمد بن ابي بكر بينهم . وشاهدت في فناء البيت جماهير الناس من اهل مصر والكوفة
 والبصرة في ضجة وغوغاء . فوقفت في جملة الواقفين ولم ينشب لها احد فسمعت الامراء
 يلغظون ويضجون وكلهم يقول بقتل عثمان اوخلعو علي يخفف عنهم ويونجهم على
 ما ارادوه من الشر وهو يقول « والله يا قوم لا ارى في مقتل هذا الخليفة الا تعاظم
 الفتنة انكم والله ستختلفون على من يلي الخلافة بعد فابقوه عليها خيراً لكم »

فانشرح صدر اسماء لشهامة علي ودفاعه ولم تنالك عن الدخول فدخلت وهي
 في ذلك اللباس ودنت من علي فنظر اليها وقد عجب لجرأتها وهو يحسبها من بعض
 الواقفين خارجاً . فنظر اليها مستهتماً والتفت الامراء اليها فكشفت عن وجهها فلما
 رآها علي عرفها فاستغرب دخولها وهاب منظرها وقد علاها الغضب وتجلت في وجهها
 المهابة . فقال اهلاً بفتانتنا ومرحباً ما الذي جاء بك

فاستغرب الحضور كلامه لها وهم لا يعرفونها ولشوا يتظرون ما يبدو منها
 اما هي فوقفت بين ايديهم بقلب لا يهاب الموت وقالت « انسحون لنتأخر تقول كلمة
 في مصلحة المسلمين وتكشف لكم القناع عن حقيقة الواقع بعد ان خبرت الامر بنفسها »
 قال علي تكلمي يا بنية

قالت اغلقوا هذا الباب وكنفوا الناس عن السماع

فامر علي الجماهير ان يخرجوا من الدار واغلق الباب وامرها بالجلوس فاعذرت
 بانها تفصل الوقوف بين يديه ثم قالت « يا معشر المهاجرين وخيرة اصحاب الرسول
 انكم والله شاهدت اذا اردتم بامير المؤمنين شراً لظالموه وهو بري لا يستوجب قتلاً او

خلفاً ولا اظنكم اذا قتلتموه او خلعتنوه الا ناديين ساعة لا ينفخ الدم «
فاصغى الجميع وهم يعجبون لتلك الجسارة من فتاة حديثة السن بين يدي اعظم
الصحابه ولبثوا صامتين يسمعون ما تقول

فالت « اما اذا شئتم اخذوا الفتنة فاقتلوا اصل الشر . اقتلوا مروان بن الحكم فانه
سبب ذلك البلاء العظيم . ان الخليفة ايها الامراء بريء ما يقول الناس عنه وهو كما
تعملون من خيرة الصحابة شوقاً رأف^(١) وزد على ذلك انه اذعن واعذر جهاراً
على سمع من المسلمين وكلهم سمعوه . ولكن ان عمو مروان ذلك الغلام الفرو الذي
يفعل ما يفعله من عند نفسه فلا تقتلوا البريء بالمذنب . اقتلوا مروان بن الحكم فوستقيم
الامرا ما اذا اصاب الخليفة ضيم فاتم المسئولون امام الدين العظيم . قد كناكم انكم
منعم عنه الماء اربعين يوماً ولا يعلم ما يناسبه من جراء ذلك الا الذين يعاشره »
فهبت الجميع لنصاحة اساء وثبات جاشها وجسارتها وجعلوا ينظرون بعضهم

الى بعض وهم يعجبون

فالتفت علي^٢ اليهم وقال « هذا والله ما اراه يا اصحاب رسول الله (صلعم) ان
عنان اذعن واستغفر ولولا ان عمو لرقدت الفتنة وارى كلام هذه العذراء صوتاً من
اصوات الملائكة »

فقال طلحة « ولكننا لم نال جيداً في نصحو ليرجع عن مشورة ابن عمو وهو يصغي اليه
ويعمل بقوله اما سمعت ما قاله مروان على مشهد من المسلمين »

فقال علي^٣ « وما ادراكم ان كلامه لم يكن من عند نفسه . يكفيننا توبيخاً ونحن
اصحاب الرسول صلعم) ان نقف فينا السات العذارى موقف الراعظين بجرضنا
على العمل بسنة المسلمين . ومها كان من صرهم ونصحكم فاني اكثرهم صراً عليه ولقد نصحت
مراراً وخرجت من محلمو في آخر مرة وقد عاهدت نفسي ان لا انوسط في امر . ولكنني
لما علمت بمنع الماء عنه ركبت مقلماً الى محاصره وهم وقوف على بابي ووجنتهم وقلت
لم (يا ايها الناس ان هذا العمل لا يشبه امر المؤمنين ولا الكافرين وانما الاسير عند
فارس والروم يطعم ويسقى) فلم التى منهم مصغياً . ثم وجه كلامه الى اساء . وقال
والحق يقال « ان كلاماً من هؤلاء الاصحاب قد دافع عنه وسعى في مصلحته حتى ان

ام حبيبة زوج الرسول (صلعم) ركبت اليه بغلتها وحملت عليها وعاء فيه ماء وتظاهرت انها تريد ان تقابله وتكلمه عن وصايا عنده ليني امية او تمهلك اموال ايتامهم واراملهم فقالوا لا والله وضربوا بغلتها فنفرت وكادت تسقط عنها فذهب بها الناس الى بيتها ^(١) أما أنت فيورك فيك يا بنية والله انك انما جئت لخبر ثم نظر الى من حوله ونادى الحسن والحسين ابنيو فجاءا فقال « اذهبا الى بيت امير المؤمنين ودافعا عنه بسلامهما وارجعا الناس عن بابو وانت يا طلحة ارسل ابنك وانت يا زبير ارسل ابنك ايضا » فنادى كل منها ابنة . ثم قال علي « وابن محمد » فقالوا واي محمد تعني

قال اعني « محمد بن ابي بكر ابن هو » فجعلوا ينسألون عن مكانه فلم يعثر عليه احد فنأف علي وهز رأسه وقال « اي والله خائف ما في نفس محمد على الخليفة » فعلمت اسما ان محمدا حافدا على الخليفة انتقاما من مروان فلبت تنتظرا ما يقال عنه لعلها تعرف مقرة . فلما لم يعثر عليه احد ثم قال علي لابنيو ولسائر ابناء الصحابة « سيروا بهراسة الله ولا تألوا جهدا في الدفاع عن حياة امير المؤمنين ورد الناس عن بابو واذا رأيتم ابن ابي بكر اتقدوا اليه اي والله خائف ما بضمه »

فقال طلحة « انظنه حافدا عليه منذ ارجعه عن ولاية مصر » ^(٢) . فنظر علي الى طلحة ولم يجيب . ففهم انه لا يريد ذكر ذلك . فسار ابناء الصحابة وقد هاج الناس وماجوا وكلهم يلتفت الى اسما ليرى وجه التي تنكلم مثل ذلك الكلام . اما هي ففعلت من بين الجماهير وخرجت ولم يعد يراها احد

الفصل الثالث والعشرون

— العقد المزور —

عادت اسما . وهي تنكر في محمد وخافت ان تكون غيبته من مروان قد حملته على التلصق بعثمان فعولت على مراقبة ذلك وهي في دار عثمان فاذا تحققت ما ينوبو

محمد وكان فيه أذى لعثمان حوْلُهُ عن عزمِها لأنها أصبحت بعد سعيها في نجاة عثمان أكثر ضناً بجيائمه من امرأتها نائلة

أما نائلة فمكثت في البيت بعد ذهاب أسماء وهي على مثل الجهر والليل قد سدل نقابها فجلست في غرفتها تنتظر عودتها وهي تضم لها كل خير إذا جاءتها بالنرج وفيما هي تفكر في ذلك والغواء تتزايد حول الدار خطر لها أن تسير إلى زوجها تستطلع حالة فخرجت إلى الدار وتحولت إلى غرفته فرأت مروان خارجاً من عنده فاستعادت بالله من رؤيته . أما هو فاعترضها قائلاً لا تدخل على الخليفة انه في شغل ارجعي إلى غرفتك . قال ذلك وعلى وجهه إشارات الاضطراب . فلم تستطع نائلة معارضة لأنه كاتب الخليفة وحامل ختمه^(١) فرجعت وهو يتبعها حتى وصلت غرفتها فدخل هو معها ونظر في جوانب الغرفة فلم يرَ أسماء فقال وابن هي أسماء قالت ايها آتية قريباً

قال ألعها خرجت من هذه الدار

قالت لا ولكنها مشغولة في امر ولا تلبث ان تعود فأخبرني ما بال الخليفة وما الذي شغله الآن

قال لم يشغله شيء ولكنه يصلي منفرداً والقرآن بين يديه . فصدفته نائلة وصمتت اما هو فكرر السؤال عن أسماء فقالت قلت لك انها قادمة قريباً . فتركها ورجع ولبثت هي تنتظر عود أسماء بفارغ الصبر مخافة ان يعلم مروان بخروجها فيجئال في ضررها . ولم تكد تجلس حتى سمعت ضجيجاً في صحن الدار فاطلّت من خلال الباب فرأت جمعاً داخلاً وفيهم الحسن والحسين وابناء الصحابة فخافت ان يكون في قدومهم شر ولكنهما ما لبثت ان سمعت الحسن يخاطب اهل المنزل ويطيب خاطرهم وهو يقول لا تخافوا اننا جئنا للذب عن الخليفة . فادركت انهم انما جاؤوا بمساعي أسماء . وبعد هنيهة رأت أسماء داخلة وهي لا تزال متنكرة فاستقبلتها باشة واستطلعنها الخبر فطمأنها ان الصحابة انما ارسلوا ابناهم للدفاع عن الخليفة وارجاع الناس عن باي^(٢)

فسرت نائلة وهداً روعها وشعرت بنضل أسماء ورأت ان تسعى في افاذاها من مروان فاحتالت في الدخول على الخليفة فاذا هو جالس والقرآن بين يديه يقرأ

وبصلي صائماً^(١) ولا بلغت يمينا ولا شمالاً . فدنّت منه بخفة فانتبه لما فقال ما الذي جاء بك يا نائلة . قالت انما جئت اخفق امير المؤمنين واصطنع ان في الدار الحسن والحسين وسائر ابناء الصحابة وقد جاؤوا بعتنهم وسلاحهم يدفعون الناس عن بابنا

فقال وهو لا يزال ينظر في صفحات القرآن « لا حاجة لي الى دفاع ولا اريد ان يهريق بسبي محب من الدم » قال ذلك وعاد الى القراءة فجمعت نائلة ذلك وارادت ان تذكر اسماء لدهو فلم تر سبيلاً الى ذكرها فعادت الى غرفتها وقضت تلك الليلة لم يغمض جنبها واسماء تعزبها وتنجسها ولولا ذلك لما نلت قلقاً ورعباً . وقد كانت تسمع الفوضىاء حول الدار وعبد بابها ولا تفتح ان تطل

اما اسماء فلما علمت بعودة مروان من سفره نظاهرت بالذهاب الى الفراش لئلا تراه تلك الليلة وبات ابناء الصحابة في الدار سهارى نارة يتهددون الواقفين عند الباب وطوراً يتوعدوهم وكل اهل النصر في اضطراب وقلق الا عثمان فانه قضى ليلته يقرأ القرآن وبصلي

وفي الصباح التالي استيقظت اسماء على صوت مروان في غرفتها ونائلة جالسة الى جانبها فجلست في السرير واستعاذت بالله

فقال لها مروان « ما الذي خرج بك من هذه الدار »

فقالت « وما شأنك وخروجي او دخولي »

قال « كيف لا وانت امرأتى وقد كُتِبَ كتابك علي »

فأجملت اسماء ايما اجفال وصاحت « خست يا نذل الرجال اني لا اعرفك ولا اريد ان اعرفك دع عنك هذا الهذيان »

فمد مروان يده الى جيبه واستخرج رقاً عليه كتابة وقال « اليس هذا كتاب العقد وعليه ختم الخليفة » فنظرت اسماء وبائلة اليه فرأنا الختم ختيفة فيهننا

اما اسماء فتبسمت وهي لا نعباً بنهدين وقالت « قد عرفناك قبل اليوم تزور الكتب على لسان امير المؤمنين ان الخليفة بريء من هذه الاعمال ولم يخطئ الا لانه جعلك كاتبة . اما كتابك ما سببته من الشر بتزوير الكتب حتى جئت لتعمل كتاب العقد ايضاً فتركب التزوير في الدنيا والآخرة . ان هذا البلاء كله من تزويرك ذلك

الكتاب على لسان الخليفة الى والي مصر^(١) وكان الناس قد عادوا الى بلادهم فارجمعهم وابتغضت الفتنة فارجع هذا الكتاب الى جيبك واخرج من هذه الغرفة قبل ان اذبنك الهوان « قالت ذلك وممت به وهي تستخرج خنجرها من بين اثوابها وكان لا يبارق جنبها قط . فارادت نائلة ان تُعدها فأفلتت منها واغارت على مروان تريد قتله فاخلى من ضربتها وهم ينجريده حسامو والهجوم عليها فسمع ضجة عظيمة في صحن الدار وصوتا ينادي مروان مروان فخرج مسرعا والسيف في يده

الفصل الرابع والعشرون

❖ مقتل عثمان ❖

ولم يلبثوا ان رأوا الدخان يتصاعد من جهة باب الدار فظنوا الحريق قد لعب فيها فهاجوا وماجوا واشتغل كل بنفسه فصاحت نائلة وبلاء قد احرقوا وقتلوا وهرولت مسرعة الى غرفة زوجها

اما اسماء فاطلت من نافذة الغرفة الى باب الدار خارجا فرأت الناس قد تجههروا هناك وعددهم يزيد على الف نفس وجعلوا يرمون الدار بالنبال حتى اصيب بها كثيرون^(٢) ورأت بعضهم فنجوا اخوثة وهموا يريدون الدخول منها وابناء الصحابة وفيهم الحسن والحسين يدافعونهم . ورأت آخرين يرمون الامراس لينزلوا بها الى الدار واخرين قد اوقدوا النار في السقينة فوق الباب ليجرقوها ويحرقوا الباب معا . وسمعت الجماهير يصيحون بصوت واحد « ادفعوا اليها مروان فنقتله وكفى »^(٣) فاضطربت اسماء وتحولت عن اللافذة وخنجرها لا يزال في يدها وسارت نحو غرفة عثمان لعلها تنقذ بتسليم مروان فبنجوهو . فرأت الدار ملاء بالناس وقد دخل معظمهم من جهة دار بني حزم ورأت مروان في جملتهم ويده السيف يريد ان يدفعهم فهم عليه احدهم وضربه بالسيف على عنقه فداردورة ووقع فصاحت اسماء « بورك فيك اذا قتلتني فانه اصل الشر كله » ولكن الصرعة لم تكن قاضية بل قطع احد علباويه فعاش مروان بعد ذلك اوقص^(٤) ولكن اسماء ظنته

مات فتركته وسارت بين المجاهير الى غرفة الخليفة فرأته جالساً والقرآن بين يديه
وعند نائله واقفة والدموع له عينها فتأثرت لمنظرها
ولم تكف نفف حتى دخل الحسن والحسين وأولاد الصحابة وفي ايديهم السيوف
مسلولة ورأت ثياب الحسن مصوغة بالدم^(١) وكان عثمان لما سمع بدفاعهم عند باب
داره خاف عليهم فبعث يستقدمهم اليه ليردعهم عن ذلك فقال لهم «اغمدوا السيوف
وارجعوا فان الله قد عهد الي عهدنا وأنا صابر عليه . وقد علمت ان الناس قد احرقوا
السقينة فلم يحرقوها الا وهم يطلبون ما هو اعظم » ثم وجه خطابه الى الحسن قائلاً
« ارجع يا بني ان اباك الآن في شاغل عظيم من امرك فاقسمت عليك لما خرجت
اليه » اما الحسن وسائر ابناء الصحابة فلم يصغوا لقوله فعادوا للدفاع وظل هو
جالساً على مقعده يقرأ ولا يبالي بالغوغاء وليس عنده في الغرفة الا نائله^(٢)
وكانت أسماء واقفة هناك على حدة وقلبيها يخفق خوفاً عليه فما لبثت ان رأت رجلاً
من قریش دخل عليه وقال له « اخلعها (اي الخلافة) وندعك » فقال عثمان
« ويحك والله ما كشفت امرأة في جاهلية ولا اسلام ولا نغيت ولا تميت ولا وضعت
يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله (صلم) ولست خالعةً قميصاً كسانيه الله تعالى
حتى بكرم اهل السعادة وبهين اهل الشقاوة » فخرج الرجل . ثم رأت رجلاً عرفته
بعد ذلك انه عبد الله بن سلام فوقف في الناس وقال « يا قوم لا تسلبوا سيف الله
فيكم فوالله ان سلمتموه لانتدموه ويلكم ان سلطانكم اليوم يقوم بالدرة (السوط) فان
قتلتموه (أي الخليفة) لا يقوم الا بالسيف . ويلكم ان مدينتكم محنوفة بالملائكة
فان قتلتموه لتركها »^(٣) فصاحوا فيه « ما انت وهذا يا ابن اليهودية » فسكت
كل ذلك واسماء واقفة مضطربة القلب لا تدري ماذا تعمل وكانت قد نظمت
بما اصاب مروان لظنهما انه قُتل ثم ما لبثت ان رأت محمد بن ابي بكر دخل مسرعاً
ووراءه جماعة ولم ينتبه لها وما زال حتى دنا من عثمان . فواجهت من قدومه خوفاً
لعلها بما في نفسه فقال له عثمان « ويلك اعلى الله غضب هل لي اليك جرم الا حقه
اخذته منك » فامسكه محمد بلحيته وقال « قد اخزاك الله يا عثل » (وكان عثل
لقباً يلقبون به عثمان) فقال عثمان « لست بعثل ولكنني عثمان وامير المؤمنين »

قال محمد « ما اغنى عنك معاوية وفلان وفلان »
 فقال عثمان « يا ابن اخي فما كان ابوك ليقبض عليها » اي علي الحنفي
 فقال محمد « لوراك اي تعمل هذه الاعمال انكرها عليك والذي اريد بك اشد
 من قبضي عليها »

فقال « استنصر الله عليك واستعين به »
 فلما رأت اسماء ما دار بينهما خافت ان ينتك محمد بالخليفة فيكون ذلك
 نقطة سوداء في تاريخه . فدنّت منه ووقفت بحيث يراها وأشار اليه ان يكفّ
 عما هو فيه وان يتبعها حالاً . فلما رآها محمد ترك لحية عثمان وخرج يستنهم اسماء عما
 تريد . فانفردت به جانباً وقالت له من اين دخلت الدار
 قال دخلت من دار بني حزم ^(١)

فقال وانت ايضا على عثمان . واخبرته انه بري ما ينسونه اليه
 ولم تكذب نبيّن له ذلك حتي سمعت صياح نائلة فاسرعت اليها فاذا هي قد حلت
 شعرها ونشرت عثمان يقول لها « خذي خمارك فلهبري لدخولم علي اعظم من حرمة
 شعرك ^(٢) »

ثم رأت رجلاً ممن دخلوا مع محمد بن ابي بكر ثم بعثان ويد حديد ضربة
 بها على رأسه فسال دمه على المصحف فتبعته آخر لضربة بالسيف فاكّنت نائلة عليه
 والتفت السيف بيدها فقطع اصابعها ^(٣) . فثارت الحمية رأس اسماء فهتّت بخنجرها
 تريد قتل ذلك الرجل فامسكها محمد عن ذلك ولم تضي لحظات قليلة حتي قتل
 عثمان وفرّ قاتلوه

فلما رأته نائلة مقتولاً حملت يدها والدم يسيل منها وخرجت من الغرفة وهي تبكي
 ونادت الحسن والحسين فدخلا فرأيا عثمان مذبحاً محبب بدماء ^(٤) فصاحا قاتلين
 كيف يقتل عثمان ونحن في داره ما الذي نتوله لوالدنا اذا سألنا عن ذلك
 اما اسماء فلم تتمالك عن البكاء ولكنها لتتمها على القاتل جعلت تنظر يمينه ويسره
 لعلها تراه فاذا هو قد فرّ وتهافت الناس على بيت عثمان للنهب والسلب وعلت
 الغوغاه واشتغل كل بنفسه

(١) العقد الفريد ج ٢ (٢) الاغانى ج ١٥ (٣) ابن الاثير ج ٢ (٤) العقد الفريد ج ٢

الفصل الخامس والعشرون

﴿ محمد واسماء ﴾

أما محمد فهم باسماء وامسكها بيدها وقال انبعني فتبعته حتى خرج بها من الدار وهي تود البقاء لترى ما يكون من حال نائلة ولكنها راقت محمدا طوعا لميل قلبها . فلما رأت نفسها خارجا ومحمد ممسك بها تذكرت ليلة خلت به في قبر النبي ولم تكن تعرفه فهاجت اشجانها فوقفت بغته فجذبها محمد فتبعته حتى وصلا الى خلوة بازاء نخلة عظيمة فوقفت في ظلها وجذبت يدها من يد وقالت الى ابن نحن ذاهبون يا محمد قال هل ترين لك ما ربا في دار عثمان بعد . لقد نصحت لك ان تخرجي منه منذ ايام فلم تقبلي حتى رأيت قتله بعينيك وهذا ما كنت اخافه عليك

قالت انكم ظلمتموه يا محمد ولو استطعت انفاذه من ايديكم لنعلت تبا لروان انه سبب هذا البلاء . قالت ذلك واغرورقت عينها بالدموع فقال محمد دعينا من الظلم والعدل فقد قتل عثمان ولا خيرة في الواقع ولم يعد بقاءك في داره ممكنا والناس قد دخلوها وثبوا بنهبها . فافصي الآن عن رأيك ان الوقت ضيق والامر جلل ولا استطيع البقاء معك الا قليلا

قالت وماذا تريد مني

فامسكها بيدها وضغط على امامها وقال ألا تعلمين ما الذي اريد

قالت نفسي تحدثني وسكنت

قال ارجوان يكون قلبك يجذبك لا نفسك . قولي حالا

قالت يظهر لي ان منزل عثمان لم يهلك . اني والله لا استطيع تذكر حاله وقد

فارده ناه والدم يجري من عنقه

ه تنهد محمد وقال أنظيني لم آسف لموتو

فما رأت لا اظنك آسفا وانت البادئ بالقتل . والله لو لم يسق الى قلبي سابق

. ما استطعت النظر اليك

فان ادراكه

لطال بنا المقام ونحن في حال تدعوا الى المبادرة ولكنني سوف ابسط لك حقيقة الواقع فتعذريني . وأما الآن فاني مسرع الى منزل علي لاني اتوقع خلافاً عظيماً يقع بين الصحابة ولا بد لي من حضور مجلسهم . وأما انت فلا أرى ان تقبي هنا والحال في اضطراب

قالت اني صابرة حتى اسمع عذرك في قتل خليفة الرسول فان لم اَرَ ما تُعذّر به علي قتلوه وسكنت وفي تنظر الى الارض حياء ما كاد ينطق به لسانها فاعجبت حربة ضميرها وصحة مبدأها وتيسم وازداد ميلاً لها وقال « اني واثق بانني سأبرئ نفسي من تهمة القتل ظلماً فاصبري حتى نجمع على سكتة واذهي الآن الى ما من »

قالت الى ابن اذهب وامتعني وجوادي لاتزال في دار عثمان قال لك عليّ تخلصها أما ذهابك فلا اقول الى ابن قبل ان اعرف ضميرك فهل انت فاهمة مرادي . قالت وما مرادك

قال اقول لك بالاختصار اني احبك فهل انت لمحبيني فعلت وجهها حمرة الخجل وارخت النقاب على وجهها ولم تجب قال انك لم تريدني بهذا الخجل الا ثقة بحبك . فاعلي يا اساء اني عازم على ان ارجعك من انعابك واخلصك من والدك او الذي يدعي انه والدك . وقد تركك منذ ايام ولا اظنك تعلمين مرقه . أما مروان فلا فضل لي في انفاذك منه وقد نال نصيبه

فلم يكذب ذكر اسم مروان حتى نهدت اساء وقالت قمع الله مروان انه سبب هذا البلاء وقد كنت اود اني قتلته بيدي لاشفي غليلي منه

قال لا اظنه قتل فقد تركته في الدار يعصب عنقه على أثر جرح اصابه دعينا منه ومن اسوء . أما والدك الشيخ الفرّ فلا اظنه يجبراً على الظهور بعد مقتل عثمان وارجوان لا تدعوه والدك بعد الآن فانه بعيد عن هذا القلب بعد الارض عن السماء . وما اني ذاهب الى بيت علي وهو الذي سبب الخلاف لانه احق بها من الجميع . ولكنني لا اظنه ينالها الا بعد خلاف عظيم فلا آمن اذا كنت في منزله من شره يصيبك فاري ان اذهب بك الى ما من تبين فهو حتى تهدأ الاحوال فنعيش معاً باذن الله

ألا ترين ذلك

فاطرفت اسماء وقد هاجت اشجانها وتذكرت والدها وهي لم تأسف لفرافقو لكنها اسفت لفرافقها نائلة في حال حربها واضطرابها وزوجها ملقى على الارض فتيلًا . على انها شغلت بما يخالج قلبها من حب محمد وهو الذي اول ما رأته أخته بمجرد ذكر والدتها اسمهُ واصبحت بعد ما علمت من منزلتي عند علي وانه ابن اول الخلفاء شديدة الميل اليه فضلت ربه صامنة بهم بالكلام ويمنعها الحياء وقد ذهبت منها تلك الجراءة وانتثأت تلك المحمية التي كانت تسحر بها اعظم الرجال وشعرت للحال بخنقان قلبها وهياج عواطفها فابرت اسرتها واللائات عيناها وكأن لسان حالها يقول « ان الله قد يهيني ولكنه نظر الى حزني فخبيني الى خير ابناء الصحابة »

فأدرك محمد انها تنكم حبة فام يشأ ان يضغط على عواطفها . فقال لها قد فهمت مرادك يا اسماء وفي نيتي الآن ان اذهب بك الى احدى ذوات قرابتي في بعض اطراف المدينة نعيمين عندها ربنا تنفسي الازمة التي نحن فيها ونعهد الخلافة الى علي ف يرجع الامر الينا ويعود السلطان الى قبضتنا فنقيم في رغد وهناء باذن الله . قال ذلك ومشى فمشت وهي لا تتكلم حتى انتهى بها الى منزل في طرف المدينة فدخله واذا فيه امرأة عجوز لم تكد ترى محمدًا حتى همت بو وقبلته ورجعت بو فقال لها لقد جئتك باعز شيء عندي ارجو ان تخففني بها ثم حول وجهه الى اسماء وقال امكثي هنا يا اسماء ربنا اعود ولا تفجري اذا طال غيابي فقالت لا تندرنى بطول الغياب اذ ربما لا استطيع صبرًا على البقاء هنا فقالت العجوز أعلك خنث الاقامة عندنا يا ابنتي والله اني اكثر عناية بك من ولدي هذا — وأشارت الى محمد ثم اخذتها بيدها ودخلت بها وودعها محمد وخرج

الفصل السادس والعشرون

— ﴿ مدفن عثمان ﴾ —

فلما خلت اسماء بالعجوز احسّت بالوحشة فالتفت غرقة دخلت اليها لتخلو بنفسها فلم تكد تفعل حتى تصورت عثمان مطروحًا ونائلة واقفة فوق رأسه وقد حلت شعرها

واخذت تلطم خديها وتندب زوجها . فلما تصورت اسماء ذلك اقشعرّ بدنّها وندمت على مجيئها ومفادرة نائلة في تلك الحال

فقضت بقية ذلك اليوم منفردة كثيبة ولما امسى المساء توسدت الفراش تلتبس النوم فلم يغمض جفناها ولا غابت صورة دار عثمان من امامها

فقضت ليلتها تنقلب على مثل الجمر نارة تفكر في محمد وطوراً في والدها وهي لا تعرف ابن هودا ونة في عثمان ونائلة حتى مضى هزيع من الليل فغلب عليها النعاس فانامت فاصبحت في اليوم التالي وضميرها يبكتها على هجرها صديقتها نائلة في ساعة الضيق وحدثتها نفسها ان تسير اليها ولكنها خافت ان يجيىء محمد في اثناء غيابها فيغضب فمضى النهار ولم يأت محمد فانشغل بالها عليه على انها التمسست الفراش باكراً لعلها تنام فتعوض عن سهرها بالامس وتنسى هواجسها فلم تنم الا لحظات منقطعة

واغمضت جفنيها عند الفجر فرأت طيف نائلة في حالة يرئى لها من الكآبة والحزن وقد احمرت عيناها وتقطع شعرها من البكاء والندب واللطم . فلما نخلتها اسماء على تلك الحال شلب النجمل عليها وشعرت ان خيال نائلة يوتغها على خروجها من عندها في ذلك الحين فأفاقت مدعورة باكية وقد بلل الدمع وسادتها فنظرت الى السماء فرأت الشمس قد طلعت فعولت على المسير الى دار عثمان تنفذ حال نائلة من بعدها ولكنها تذكرت ان محمداً اوصى العجوز بالاحتفاظ بها فخافت اذا ارادت الخروج ان تمنعها فقضت ذلك النهار قلقة مضطربة وهي تتردد بين الذهاب والبقاء حتى امسى المساء وذهبت الى منامها فجعلت تنقلب على الفراش كأنها توسدت شوكاً فانقضى نصف الليل ولم تطبق جفنيها قلماً على نائلة وحالها حتى اشتد بها التلنى ولم تعد تستطيع صبراً فنهضت ولبست ثيابها ونقلت المنجبر كما دتها في مثل هذه الحال وانطلقت تطلب دار عثمان على عجل وهي لا تشعر ببرد لان الوقت كان صيفاً (١) وجعلت طربتها في اطراف المدينة لئلا يراها احد على انها لم تكن تخاف رقيباً وقد سترت وجهها بالثياب

ولم تكد تمشي هنيهة حتى رأت اشباحا تفرست فيهم فعرفت من قياضهم انهم من

(١) لان عثمان قتل في ذي الحجة سنة ٣٥ للهجرة بلا خلاف ومرو يوافق شهر يونيو

(حزيران) سنة ٦٥٦ م (التقويم العام)

بني أمية يهرعون بين راكب وماشي فراراً من المدينة كأن احداً يطاردهم . فسارت محاذية لبعض الجدران حتى مرّوا بخافة ان يكون مروان معهم فيعرفها وقد علمت ببقائهم حياً بعد تلك الضربة . فطال بها المسير ولم تصل دار عثمان لانها كانت تجهل الطرق فارادت الرجوع الى منزل العجوز فلم تعد تعرف الطريق . وكان الفجر قد دنا وطلع الشفق فخيّل لها انها اذا اشرفت على المدينة من مرتفع تمكنت من تعيين مكان الجامع فاذا عرفته عرفت منزل عثمان . فتولت نحو سور المدينة في مكان خارج البقيع وهناك ارض مهجورة قلّ من يمرّ فيها . ولم تك تدرك المكان حتى رأت بضعة عشر رجلاً مهرولين عن بعد وفهم اناس يحملون لوحاً عليه شيء . فظنهم من جملة الماهريين يحملون امتعة وانهم انما طلبوا ذلك الطريق البعيد خوفاً من العيون . فتحت الى زقاق ضيق واستترت بخلفه بحيث ترى المارة ولا يرونها . فلما دنوا منها عرفت منهم اناساً في جملتهم مروان وعبد الله بن الزبير وكانت قد رآته في جملة من جاء للدفاع عن عثمان^(١) من ابناء الصحابة . فلما رأت مروان بالغت في الانزواء وتطلعت الى ما يحملونه فاذا هوجنة مطروحة على باب وحجبتها عارية تفرع الباب لاسراعهم في المسير من شدة الخوف^(٢) ورأت تحت الجحبة لحية كبيرة غضة مصفرة عرفت انها لحية عثمان . وتأملت الثياب فاذا هي ثيابه ولا يزال الدم عليها^(٣) فلم نشك ان الجثة جثته . فحنق قلبها وارتعدت فرائصها لما لحق بهذا الخليفة من الالهانة بعد موته . وادركت من وجودهم هناك في تلك الساعة انهم خرجوا بلبلا وتذكرت موت والدتها فتأسست لانها دفنت مكرمة . ولبثت مستترة وراء النخلة تنظر الى تلك الجنازة الحزينة فاذا بهم لما وصلوا الى حائط هناك يقال له حش كوكب^(٤) حضروا له حفرة دفنوها فيها وهم ينظرون الى ما ورائهم خوفاً ورهبة

فصبرت ريثما تفرقوا وسارت حتى صعدت الى مرتفع اطلّت منه على المدينة فاشرفت على جامعها فاذا هو بعيد عنها كثيراً فجعلته وجهتها ونزلت تحترق الاسواق فلم تجد فيها الا نفراً قليلاً تخافت ان يلاقوها محمد وهي في تلك الحال . وما زالت حتى وصلت منزل عثمان والشمس قد طلعت فرأته موصداً فالتصمت باب بني حزم

(١) ابن الاثير ج ٢ (٢) العقد الفريد ج ٢ (٣) تاريخ الحميس ج ٢

(٤) ابن الاثير ج ٢

فأرأته مغلقاً فتنصنت فلم تسمع صوتاً فوقفت برهة ثم همت بالباب ففرعته فلم يجيبها احد فأعادت القرع فأطبل عليها رجل من كوة فوق الباب عرفت انه من خدم عثمان فلما أرأته اومأت اليه ان يفتح . فلما عرفها فتح لها فدخلت وسألته عن نائله فأوما إليها ان لا تتكلم وسار امامها فتبعته فدخل بها غرفة رأت فيها نسوة احطن بنائله وهي لا تزال محمولة الشعر كما رأته في منامها بالامس

الفصل السابع والعشرون

﴿ قميص عثمان وأصابع نائلة ﴾

فحالما وقع نظر نائلة عليها صاحت بها قائلة ما الذي جاء بك يا اسماء يا حبيبي المَلِكَ أُنبتَ ليزي امير المؤمنين . فقد فانك ما لاقاه من اكرام المسلمين بعد موته . قالت ذلك وأوغلت في البكاء

اما اسماء فألقت نفسها على نائلة ولم تتمالك عن البكاء والشهيق وهي تقول ان خسارتك يا خالتي خسارة المسلمين كافة لقد فسد امرهم بعد عثمان لانهم سفلوا دماً بريئاً بجوار قبر الرسول (صلعم)

فلعلمت نائلة خديها بكتفها وإذا باحدى يديها معصوبة فتذكرت اسماء انها اليد التي اصيبت بالسيف فقطعت اناملها . وقالت نائلة يا ضيعة نعلك يا اسماء ويا خيبة ما املناؤه من سعيك لقد غشونا والله وغدروا بنا فارسلوا اولادهم للدفاع عنه وبعثوا يقتلونه مع آخرين . ألم نري ابن ابي بكر قبض على لحيتو رحمه الله

فلما سمعت اسم محمد تأسفت لانه فعل ذلك ولم تجد ما تدافع به عنه فسكنت وهي تفكر في عبارة تعزيها بها فلم يفتح عليها . ولكنها قالت اصبري يا خالة ان الله مع الصابرين وقد كنت بالامس تعزيبني وتصيريني فأنت اولي مني بالناس بالصبر

فصاحت نائلة ﴿ اواه يا اسماء كيف اصبر وقد قتلوا عثمان قتلاً لم نسمع بمثله ابن منه موت والدتك رحما الله فقد ماتت وصلوا عليها ودفنوها مكرمة اما هو فقد طعنوه في صدره ثلاث طعنات وضربوه على مقدم الحجبين ضربة اسرعت في العظم والله اني لا ازال اسمع صوته يرن في اذني وهو يقرأ القرآن لا يبالي بما يفعلون

واظنك رأيتني وقد سقطت عليه وهم يهيمون به وفيه بقية والمني عليه يريدون قطع رأسه لا ادري ما ذا يريدون به حتى أتت هذه الفتاة بنت شيبه (قالت ذلك وأشارت الى فتاة بجانبها) فالتفت نفسها معي عليه وكنت قد خرجت فقوطاً نا وطناً شديداً وعُزْباً من ثيابنا وحرمة امير المؤمنين اعظم فقتلوه رحمة الله عليه في بينو وعلى فراشه ^(١) » ثم انتهت تنهداً شديداً وقالت « ولو آكتفوا بذلك لكان خيراً ولكنهم منعوا الناس ان يصلوا عليه وقالوا لا يدفن في مدافن المسلمين ^(٢) كأنه كفر او كان من المشركين . جزاهم الله بما فعلوا . فظل في بيننا ثلاثة ايام وجثته ملقاة بين أيدينا ونحن نكيه ونكيه الاسلام من بعد ولولم نلق اخواناً من اهل الغيرة يحملونه بعد منتصف الليل خلسة لظل غير مدفون . وكم ساء لي ما اصاب الذين قتلوا معه فقد جرؤهم بارجلهم ولعلمهم القوم على التلال لنا كلهم الكلاب واما والدك المسكين فلا ادري اذا كان قد اصابه مثل مصابهم

فلما سمعت اسماء ذكر والدها افزعرت بدنها وامتنع لونها وصاحت وماذا اصاب والذي قالت أما علمت بما اصابه وقد كُتِبَ في الدار معنا . قالت لا . ما ذا اصابه

قالت سمعت انه قتل مع الخليفة في بعض جوانب الدار

فلطمت اسماء وجهها وصاحت وبلاء وأثناء . واوغلت في الكاء . ونهضت مذعورة وقالت ابن هو الان . ارون والدي ابن هو

ولم تكن نائلة تتوقع من اسماء حزناً شديداً على والدها لما تعلمت من حديثها عنه أما اسماء فأخذت في الكاء والنوح والنساء هناك يخفخن عنها فقالت لها مائلة نصيري يا ابنتي ان له اسوة بآمير المؤمنين وسوف يلقيان ربهما معاً ولكن الله سيقيم من القوم الظالمين . ان للخليفة قوماً يأخذون بثأره وثأري امية جميعاً نعم انهم لم يدركوه حياً ويدفعوا عنه القتل ^(٣) ولكنهم سوف يظالمون بثأره اذ رأوا قبضة الملوث بالدم واصابعي المقطوعة فقد ارسلت القميص والاصابع الى معاوية في الشام ^(٤) واصبح الامر لبني امية وهم سواد قریش . وقد ظن بنو هاشم انهم اذا قتلوا عثمان يضعف شأن بني امية والله انهم اكثر رجالاً واوفر عنة واصعب مراساً وسوف يلقي بنو هاشم عاقبة ما جئته ايديهم ان شاء الله

(١) الاغانى ج ١٥ (٢) العقد الفريد ج ٢ (٣) ابن الاثير ج ٢ (٤) ابن خلدون وغيره

فلما سمعت تهديد نائلة وحكاية قميص عثمان وإمامها وما ذكرته من تفضيل بني أمية على بني هاشم علمت انها انما ارسلت الاصابع والقبض استغنائاً لني أمية على المطالبة بدم عثمان وتحققت انها تصبر السوء لعلي فلم تصر على الدفاع عنه فقالت « ولكنك تعلمين ان بني هاشم كانوا اكثر الناس دفاعاً عنه فان علياً ارسل ابني الحسن والحسين لرد الناس عن ما به ولو اذن لها امير المؤمنين رحمه الله بالقتال لجاهدا في الدفاع عنه الى آخر سنة من حياتها . أمثل هؤلاء بطالون بدم عثمان ام يقال انهم دافعوا جهدهم » قالت « واي دفاع نريدن . فوالله لو ارادوا دفاعاً ما مات عثمان لقد اخذوا الامر بالاهاـل والصبر حين لا ينفع الصبر بل هو عجز وسوء نية . ولا يغررك ارسال اولادهم » . قالت ذلك وحرفت اسنانها وسكنت

فعدرتها اسماء لهاج عواظها على مقتل زوجها ولم نجبها . ولكنها عادت الى السؤال عن والدها . فقالت لها احدى الحضور لا نعي فسك يا اسماء ان والدك قد قتل في جملة الذين قتلوا مع عثمان وهم اثنان هو نائـم . وقد حملوا جثته خلسة الى حيث لا يعلم احد . فتعزي بمقتل امير المؤمنين خاتمة رسول الله (صلعم) بعد ان سمعت ما جرى له

وظلت اسماء هناك برهة تنكي مع الباكين حتى هذا روعها فتذكرت ان وفاة والدها خيرها في مستقبل حياتها فنظرت الى نائلة وقالت « ما الذي عزمت عليه يا خالة الآن » قالت « لقد عزمت على المسير من هذا المكان الى حيث لا أرى هاتين ولا اسمع بهاتين ولكنني لا استطيع الخروج الآخسة وما مقامنا هنا الأخنية . ولو عرف هؤلاء الظالمون مقامي لادركوني وقتلوني . ولكن بني حزم اهل جوار فقد خبا وني جزام الله خيراً » ثم تذكرت اسماء انها تركت بيت العجوز على غرة فحافت اذا افتقدتها ولم ترها فقلت عليها وخصوصاً اذا عاد محمد ولم يجدها وزد على ذلك انها خافت مجيء مروان وهي لا تريد ان ترى وجهه بعد ما جرى بينها وبينه . فنهضت للحال واعتذرت انها تريد المسير الى بعض ذوي قرابتها في اطراف المدينة

فقالت لها نائلة « اذهبي حينئذ شئت يا ولدي ولو كان لي بيت لدعوتك اليه ولكنني اصبحت غريبة بين اهلي اتوقع الخطر على حياتي . فاذهبي حرسك الله ووالك واذا من الله علينا بالاجتماع ارجوان آكافك على صنيعك الجميل وحينئذ التي لم ارها سيري

يا ابنتي بجراسة الله « قالت ذلك وضمنها الى صدرها وودعتها وهي تبكي وبكت اسماء ايضاً وقد انظر قلبها لما سمعته من كلام نائلة وشق عليها ان تراها في هذا الحال وقد كانت بالامس زوج امير المؤمنين ولها الامر والنهي

الفصل الثامن والعشرون

— ﴿ بيت علي ﴾ —

ثم ودعت اسماء نائلة ومن حضر من النساء وخرجت تلمس بيت العجوز وهي تحسب انها تعرفه لكنها تاهت في المرق ايضاً لا سيما وان البيت صغير لا يرى عن بعد . على انها وصلته في آخر النهار وقد مالت الشمس الى المغرب فوجدت الباب مغلقاً ولا نور هناك ولا حركة فقرعت الباب مراراً فلم يجيبها مجيبٌ

فوقفت رهة تنكر في ما تنعله فلم تر خيراً من الذهاب الى منزل علي تنتقد محمداً فاذا لم تجد بآنت تلك الليلة هناك فقد طالما دعاها للاقامة في منزله . ولكنها خافت اذا سارت بلباس النساء ان تكون موضع التفات الناس في الطريق او في فناء الدار لان بيت علي لا يخلو من القادمين والغادين . فنضأت التكر وكانت منطقة بكوفة حلتها ولفت بها رأسها كما يفعل الرجال باسماءهم وتزملت بعباءة كانت قد خرجت بها بالامس وسارت تلمس بيت علي فلم تصله الا نحو العشاء . فرأت بعض الناس في فناء الدار وكانت تتوقع ان ترى ازدحاماً . ثم علمت ان اهل البصرة والكوفة والمصريين الذين كانت تزدهم بهم المدينة قبل مقتل عثمان تحولوا الى مضاربهم خارج المدينة للمبيت . فسألت عن علي فقيل لها انه في خلوة مع بعض الامراء لا يدخل عليه احدٌ فوقفت تنظر في الامر فحدثتها نفسها ان تدخل المنزل فتبيت عند بعض نساء علي ولكنها هابت الدخول عليهن وهي لا تعرفن قبلاً

وفيما هي في ذلك رأت محمد بن ابي بكر خارجاً من الدار فتبعته فلما رأى عباءتها ومشيتها عرفها فدنا منها وتفرس فيها فقالت « محمد » قال « اسماء » .

قالت نعم اين انت

قال « لقد شغلت بالي لغيا بك ابن كنت »

قالت خرجت في حاجة سأقضيها عليك الآن وابن هي عجوزك
قال انتني في صباح اليوم وهي قلقة لغيبك وقد قضينا طول هذا النهار في
البحث عنك فشفغلنا عما نحن فيه من الامور العظام تعالي معي ادخلك الى والدتي
قالت وهل تقيم والدتك هنا في منزل علي

قال نعم وهي زوجة^(١) بعد والدي رحمه الله واسمها مثل اسمك بورك في هذا الاسم
فسررت اسماء لمعرفة والدتي ورأت بانا للفرج بالاقامة عندها واحبت زيادة
التفصيل فقالت « وهل تزوجها هي من زمان طويل »

قال « تزوجها بعد موت والدي وكنت اما طفلاً فريت في حجر^(٢) فاما اعدته
بمنزلة والدي وهو يحيي كأحد اولاده »

قالت « لند آنت في ذلك رحم الله والدك وعاش والد ربك » قالت
ذلك وقد ابرقت اسرتها اعجاباً بولكتهما ما رالت نظهر النور سمة حدينها فشعره
بذلك فقال « اراك قد تغيرت يا اسماء بعد خروجك اليوم »

قالت بل انا باقية على ما تعلم ولكم سألني عن سبب خروجي
قال نعم والى ابن كان خروجك

قالت خرجت الى تلك المسكينة التي قتلتم زوجها وتركتموها حزينة كئيبة فلم
يسعني مغادرتها على تلك الحال وقد كانت تعريتي الوحيدة في حال حرني واضطراي
قال العلك سرت الى مائنة

قالت « نعم سرت اليها ورأيت مدفن فتيلكم رحمه الله . فقد حماه على باب
وساروا به خلصة ليدفنيه خارج المدينة وسمعت طعماً بك ساء في ان اسمعه وساء في
فوق ذلك ان لا استطيع الدفاع علك لاني شهدت دخولك وتعهدك قتل الخليفة »
قالت ذلك وفي نعمة كلامها ما لا يصدر الا عن سلطة الدالة وسلطان الدلال

فأدرك محمد ان اعتقادها هذا سيكون نقطة سوداء على صفحة حيها فساءه
ذلك لكنه اعجب ما نفعها وصدق ادبها فقال كل الميل الى تبرئة نفسه عندها فقال وهو
ينقسم ناكبداً للبراءة ساحتها « لقد قلت لك يا اسماء ان الرجل لم يقتل ظالماً وهي اني
قتلته بيدي فما انا نادم على ذلك وسأطلعك على جليته الواقع في فرصة اخرى . اما
الآن فادخلي بنا لاعرفك بوالدتي وهي تعرفك بأهل علي » قال ذلك وهم بالدخول

الفصل التاسع والعشرون

- ﴿ الحسن بن علي ﴾ -

ولم يكذبون من الباب حتى سمع وقع اقدام في الدار ثم رأى شأنا خارجا حالما رآه علم انه الحسن بن علي فالتى حسن السلام . فقال محمد وعليك السلام يا ابن امير المؤمنين

فقال الحسن اراك تبشرني بخلافة اما خائف منها

قال لا تخف يا ابن بنت الرسول وابن ان عم الي انكم اولى الناس بها وكان الحسن يحاطب محمداً وينظر الى اسماء وقد انكرها لثنتها . فابتدعه محمد قائلاً ان رفيقي امويّ جاء للمبيت عنكم فهل قبلوه

قال اهلاً يا ابا كان فليدخل . قال ذلك ودخل فدخل في أثني واسماء لا تزال ملثمة والحسن ينظر اليها ويتوقع حسر اللثام . فلما حسرتة ووقع نظره عليها تذكر انه رآها في منزل عثمان وقد كانت حاضرة ساعة مقتله . فوقعت من نفسه موقعاً حسناً وأعجبته هيبتها وجهاها . فقال « اهلاً لك يا اخية فقد رلت اهلاً ووطئت سهلاً » اما اسماء فغلب عليها التهيّب لوقوفها بين يدي ابن علي ونظرت اليه بطرف خفي . فاذا هو ابض اللون مشرب بالحمر اذبح العينين سهل الخدين كثر اللحية ربع القامة جعد الشعر لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره وكان اشبه الناس بأبي (١) فلم تمالك اسماء ان نظرت اليه حتى غلب عليها الحياء فاطرقت وقالت « بورك في بيت شرفة الله » فقال محمد للحسن « وازيدك تعريفاً بها انها اسماء بنت يزيد التي جاءت منذ بضعة اسابيع تستدعي مولاي الي الحسن لمشاهدة والدتها وهي على فراش الموت لسر كانت عازمة على اطلاقه عليه ففضت رحمتها الله قبل وصوله وذهب ذلك انسرها معها الى القبر »

قال الحسن وهو ينظر الى اسماء « ان والدي ما زال يذكر ذلك ويأسف لضياع السر ويعجب بما آتته في هذه الفتاة من التهمة والامة » قال ذلك وسار

امامها فمشيا في اثر وقد شعر محمد من ذلك الحين بغيرة من الحسن وندم على مجيئها الى ذلك المكان ولكنه تجاهل وقال « الى اين نحن ذاهبون »

قال الحسن « الى خالتي امامة اعرفها باساء فتبت عندها الليلة وهي نعرفها بالاسم قبل اليوم ولا ريب انها سنسرُ لثيابها كثيرا »

فلم يستطع محمد معارضته لئلا تكشف غيرة فاجابه وهو غير راض بذلك التعريف لان الحجاب يبعثه من الدخول معها الى امامة فتبي خارجا على مثل الجهر ودخل الحسن الى عرفة امامة لا استئذان . وكانت متردة وقد لبست ثوبا بسيطا وفي عنقها فلاة من جرع كانت كثيرة الاحتفاظ بها . فلما رأت الحسن داخلًا قامت ان تسأله عن امر الناس والحلقة فاذا هي اساءة تبعته فلما رأيتها اعجبها حسن طلعها فدنت اساءة منها بهم بنقيل يدها فتمعتها وقبلتها فابتدرها الحسن قائلا « اقدم لك يا خالة اساءة واذلك تذكرين حديث والذي عن والدتها التي ماتت في فناء ومات ذلك السرُ معها فهذه هي ابنتها وكثيرا ما سمعت والدتي يذكرها ويتعجب بها »

ثم التفت الى اساءة وقال « وائلي يا أختي انك بين يدي امامة زوج والذي وهي بنت زينب بنت الرسول وكان جدِّي (صلعم) يحبها كثيرا وانظري الى هذه الفلاة التي تزينها في عنقها فقد اهداها اليها رسول الله يوم ولادتها وكانت احب اهلها له (١) »

فاردادت اساءة اجلالا لامامة وظلّت واقفة حتى دعتها الى الجلوس فجلست على وسادة بالقرب منها . فقال الحسن « لا حاجة لي ان اوصيك بصيغتك وانت اولي من اكرم الضيف مع علمك بمنزلها عد والذي » قال ذلك وخرج وكان محمد في انتظاره وهو على مثل الجهر وقد لام سسه على مجيئها فلما التقيا قال الحسن كيف عرفت هذه النناة يا محمد

قال عرفتها يوم جاءت لاستدعاء مولاي ابي الحسن الى والدتها وقد صحبتها الى قضاء وهي متئكة نزي الرجال ثم شاهدتها مع في منزل عمان ورأيتها الآن جاءت تطلب منزلكم لانها غريبة وكان والدك قد دعاها للاقامة عندكم تعزية لها على حزنها وبنتها فقال الحسن انها والله ذات جمال ووقار واظنها ستبقى عندي واني شاكر لهذه الصدقة

الفصل الثلاثون

﴿ خلافة علي ﴾ -

فادرك محمد ما في نفس الحسن فانفذت نار الغيرة في صدره ولكنها غيرة لم يشبها بغض لاحترامه الحسن . والله . على انه احب تغيير الحديث فقال « وابن مولاي ابو الحسن الآن »

قال تركته في غرفتي وقد اجتمع الامراء حوله يريدون مبايعته وهو يقول لم « لا حاجة لي في امركم فمن اخترتمو رضيت به » وهم يلحون عليه في القبول ويقولون له « لا نعلم احداً احق بمسك لا أقدم ساقه ولا اقرب قرابة من رسول الله (صلعم) » (١)

فقال محمد الم يقل

قال كلاً وقد تركته وهو يقول لم « لا تفعلوا فاني اكون وزيراً خيراً من ان اكون اميراً » وهم يقولون « ما نحن فاعلمين حتى نبايعك »

فقال محمد اني لأعجب من رفضه امراً هو اولي به من سواه انها والله لا يجب ان يلبها غيره

فقال الحسن واني أكثر تعجباً . لك

قال محمد وما رأيتك ملحقاً والربير فاني اخالهما غير راضين به لان كلاً منها طامع بالخلافة لنفسه

فتبسم الحسن وقال « لا يهلك دلمعها فانها سييايعان كارهين ان شاء الله على اني اراها يتظاهران بالقبول وسنرى ما يكون منهما في الغد فقد سار اليهما بعض الناس يدعونها الى المبايعة

واقترفا بعد هنية فسار محمد الى فراشه وقد همة أمر اسماء أكثر ما همة امر الخلافة لعلوا ان الحسن اذا وسط والى في تزويجها به ما لها لا محالة . فلم يبق لديه الا ابعادها عن ذلك المنزل وتمكينها من محنته . وقضى ليلته يبحث في وسيلة تساعده على الخروج باسماء من هالك حتى يخلو بها فيقتنعها اولاً ببراءته من الظلم في مقتل

عثمان ثم يكتب كتابه عليها قبل ان يصرح الحسن بطلبها فيكون له عذر في ذلك
اما اذا سبق الحسن الى طلبها صريحاً فلا يجزأ هو على التعرض لها
وفي الصباح التالي بكر الى غرفة الحسن فلم يجد هناك فسأل الخدم عنه فقالوا
له خرج الى غرفة امامة باكراً . فعلم انه على ذنبه باسماء فأسرع في ارسال من
يستقدمه فجاء الحسن وقد اشرق وجهه ودلائل المحبة ظاهرة عليه فانقضت نس
محمد وكادت الغيرة تظهر على وجهه ولكنه تجلد وحياء وقال كيف أصبحت فتاتنا اليوم
فقال الحسن لقد أصبحت في خير ولكنني اراها منقبضة النس
فسر محمد لا قباضها لعلها ان ذلك يدل على عدم ارتياحها الى محبتها الجديد
فقال « اظنها منقبضة لحزنها على والدها لأنه قبل في منزل عثمان وارى ان نخرج بها
لتحضر مجلس والدك وحديث القوم في أمر المبايعة لعلها تشتغل بما تراه هناك عن احزانها »
قال وكيف تجلس مع الرجال
قال لنذهب متنكرة كما اتتنا اليوم
وكان الحسن أكثر ميلاً من محمد الى اصطحابها وهو غافل عما يجالج قلب محمد
فقال « لقد رأيت صواباً ونحو لا استفد منها وما عثم ان عاد واسماء معه وقد تكبرت فلما
رأها محمد حياءاً وهو ينظر الى وجهها نظراً لا يفتقها الا من عانى الحب والغيرة ولبث
ينظر الى ما يبدو منها فاذا هي حالما وقع نظرها عليه ابرقت اسرتها فارتاح بالة
وتظاهر بعدم الاكتراث وقال لها « اظنك تودين حضور مجلس مولاي ابي الحسن »
قالت « كيف لا وانت تعلم ضميري » فادرك محمد انها تشير الى حبها له فتحقق انها
باقية على عهد فقال « فاذا فرغنا من ذلك المجلس سلمت لك جوادك وامنعك التي
تركها في منزل عثمان وقد وعدتك ان احفظ بها فاستخرجتها من سائر المملوكات »
فأنتت عليه وإشارت بعينها اشارة خفية فهم محمد بها مرادها وإحس لم يشعر
ثم قال الحسن هلم بنا ندخل على والدي قبل مجيء الناس فدخل هو أولاً حتى
تحقق انه نهض ولبس ثيابه ثم عاد واستقدمها



الفصل الحادي والثلاثون

﴿ الصحابة وعلي والخلافة ﴾ -

فدخل محمد واسماء وهي في لباس الرجال ولكنها حائلاً دخلت حسرت اللثام وهمت بتغيير بد علي وكان عليّ جالساً على وسادة وعليه ازار ووطاق وعمامة خز^(١) وهو في هيئة المعهودة وقد ارسل عمامته الى الراء حتى مات صلته^(٢) لما قام في نفسه من الامر الذي دعوه اليه فجلس وهو يمشط لحية ماصابوه وعيناه الدعجوان ثلاثاً في وجهه والذكاء ينبعث منها . فلما رأى اسماء مقابلة اتسم لها وحيها وسأها عن حالها

فالت اني بفضل مولاي في خير وعافية
قال ان كلامك يا بية لا يزال يرن في اذني مذ جننا قبل مقتل ذلك الرجل
رحمه الله وقد قلت وقولك هو الصواب « ان في مقتل الخليفة ايقاظاً للامة » فلا
اظهرها الا استيقضت

فالت ان الامة لتستحي من ان عم رسول الله فتعود الى الرقاد اذا قبض هو
على ازمة الخلافة

فأعجبته حسن اسلوبها وحن ذهنها وكان الحسن أكثر اعجاباً من الجميع
ثم دعاها عليّ الى الجلوس وهو يقول « اراك قد خلعت زي النساء ولست زي
الرجال يا اسماء »

فالت لقد ترديت باللباس الذي يليق ان الاتي به رجل هذه الامة
فقال عليّ « بل هو بشر الى ما اودعه فيك الخائف من اخلاق الرجال وككة
سجانه ونعالى قد جمع فيك حسنات الجنسين »

ولم تك اسماء تجلس حتى جاء بعض الخدم يستأذن علياً في دخول بعض الصحابة
فاذن لهم فدخل جماعة من المهاجرين والانصار وفيهم طلحة والزبير وكانت اسماء تعرفها
من ذي قبل . فجلسوا جميعاً حتى غصت القاعة بهم وجلس طلحة والزبير في صدر القوم

وعلى وجهيهما آثار الاقباض كأنهما يخنيان امرأَةً مَاتَا فادركت اسماء انهما انما جاءا
مكرهين

فلما استوى النوم نهض واحدٌ من اهل المدينة وخاطب عليّاً قائلاً « لقد جئنا
مولانا ابن ابي طالب نطالب اليك امرأَةً رجوان لا بردنا عنه خائبين كما فعل بالاس
وما قبله »

فقال عليّ « قولوا ما تريدون »

قالوا « جئنا لبايعك بالخلافة لاننا لم نرَ احداً احق بها منك »

قال (وهو ينظر اليهم جملة) « قلت لكم دعوني من هذا الامر فاني اراه طريقاً وعراً
فقال قائل « من ترى اقدم ملك سابقة واقرب قرابة من رسول الله (صلعم)
وقد قال فيك الرسول « لا يحكك الا مؤمن ولا يعضك الا منافق »

قال « ككم كف » والذي تايعونه اقبل به »

قالوا لا رى غيرك احق بها وقد قال الرسول (صلعم) « ان عليّاً مني وانامن
علي وهو ولي كل مؤمن بعدى » (١)

قال « قلت لكم دعوني والتسوا غيري فانما مستقبلون امرأَةً وجوه وله الهان
لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول »

فوقفوا وقد نفد صبرهم وقالوا « نشدك الله ألا نرى ما نحن فيه . الا نرى
الاسلام . الا نرى الفتنة . الا نخاف الله . . . »

فلما سمع عليّ تأييدهم سكت وقد ضاق ذرعاً وعظم عليه الامر فاشتغل به شيطان الحينو
باصابعه وهو مطرق يلملح . ثم نظر اليهم فاذا هم سكوت ينتظرون جوابه . فقال
لهم « قد اجبتكم »

ولم يكدهم بلفظ الادانة حتى ضج الناس بالاستحسان ونهللت وجوههم فرحاً ألا
طلحة والزبير فانها خلاصاتين

فلما رأى عليّ استخسانهم وضجهم مع ما آتته من سكوت طلحة والزبير نهض فنهض
الناس وهم ينتظرون اليك ليرى ما يدوم له فاذا هو قد علا اضطراب كأنه نبياً من
ساعته بما يتوقعه من الامور العظام ف اشار اليهم بيده بانهم اصغاهم وقال « واعلموا

اني اذا اجنكم ركبت بكم ما اعلم فانما انا كاحدكم الا اني اسمعكم واطوعكم لمن وايمنوه
فقالوا كلنا اطوع لك من بنائك ومن لا يطيع ابن عم الرسول واخاه ووصيه
ونصيه وربيته وحبيبه وخليفته والذي قال فيه (صلعم) « من كنت مولاه فعلي
مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » وقال (صلعم) انك منه بمنزلة هرون
من موسى فكيف نبايع سواك
فقال اذا كنتم لا ترون بدا من المبايعه فلتكن في المسجد وليس في هذا المنزل
قالوا هلم بنا الى المسجد

الفصل الثاني والثلاثون

— * المبايعه * —

فنهضوا ونهض علي ونعلاه في يد ومشي وهو يتكفأ^(١) ويد قوس يتوكأ
عليها^(٢) حتى اقبل على المسجد والناس بين يديه وكان محمد وحسن واسماء سائرين
بالقرب منه واسماء تنظر الى ما سيكون فلما دخلوا المسجد قرأ علي الفاتحه وصلى ثم وقف
ووقف الناس فنظرت اسماء الى الجميع وقد هاجوا وماجوا فرأت طلحة تقدم فحوه
قبل الجميع ومد يده فمد علي يده فصافحه طلحة وقال « انا نبايع سيدنا ومولانا الامام
المنير الطاعة على جميع الانام علي ابن ابي طالب على كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد
امير المؤمنين^(٣) ونسأ له النظر في امورنا وامور المسلمين لا تنازع في شيء ونطيعه
في ما يكلفنا به من الامر على المشط والمكسر^(٤) وان لا خليفة سواه » وادركت اسماء
من هبة طلحة وغنة صوته ومجمل حاله انه انما بايع مكرماً . ثم سمعت رجلاً من الوقوف
خلها يقول لجاره همساً « انا لله وانا اليه راجعون ان اول يد بايعت يد شلاه لا يتم
هذا الامر » فالتفت اسماء الى محمد كأنها تستنهمه عن مغزى ما يقوله الرجل .
فدنا منها وقال لها « ان في يد طلحة شلاً خفيفاً من نوبة احد^(٥) والذي سمعوه

(١) تاريخ الخميس ج ٢ (٢) ابن الاثير ج ٢ (٣) البيهقي

(٤) مقدمة ابن خلدون (٥) ابن الشعنة

يتكلم رجل من اهل العيافة نشام بتلك المباشرة :
 قالت ارجو ان لا تصدق عيافته . وبعد ان بايع طلحة نقي وتقدم الزبير فبايع
 ثم بايع غيره من الامراء افراداً واجمالاً

فاصبح علي* من تلك الساعة امير المؤمنين فصعد المنبر فلما رآه الناس صاعداً
 علموا انه يريد ان يتكلم وهم طالما سمعوا خطبة وسحرها ببلاغته فانصتوا الى ما سبقوله .
 وظلت اسماة في موقفها ومحمد الى جانيها وعيناها تسارقان الحسن النظر ليرى ما في
 نفس من اسماة . فرأى انه على هول الموقف ورهبة المقام لم يشغل عنها لحظة
 أما هي فظلت ثابتة ثبوت الجبال لا تلتفت لينة الأمر هام . فلما وقف
 الامام علي* أصغت واصغى الجميع . فمسح علي* لحينه بيده واجال نظره في الناس والعمامة
 الخبز على رأسه وعليه الآزار وبطنه يتقدمه لانه كان ذا بطن^(١) فلبث هنيهة لا
 يتكلم حتى سكنت الجميع ونظاوا لولوا باعناهم لسامع كلامه في ذلك الموقف ومما واول
 كلام له بعد الخلافة . فحمد الله وأثنى ثم قال بصوت يسمعه من في المسجد جميعاً :

« ان الله تعالى أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر فخذوا نهي الخير نهتدوا
 واصدقوا عن سم الشتر فتصدوا . الفرائض الفرائض أدوها الى الله تودكم الى الجنة .
 ان الله حرم حراماً غير مجهول واحل حلالاً غير مدخول ونصّل حرمة المسلم على الحرم
 كلها وشد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها . فالمسلم من سلم المسلمون
 من لسانه ويده الآ بالحق . ولا يجل أذى المسلم الأما يجب . بادروا أمر العامة وخاصة
 أحدكم الموت فإن الناس امامكم وان الساعة تحدوكم من خلفكم . تخشعوا لتعقلوا فاما
 يتظرباً ولكم آخركم . اتقوا الله في عبادته وبلاده فانكم مسئولون حتى عن البقاع
 والبهائم . واطيعوا الله ولا تعصوه . واذا رأيتم الخير فخذوا به واذا رأيتم الشر فاعرضوا عنه
 واذكروا انكم قليلون مستضعفون في الارض »^(٢)

ولم يكذب بكلامه حتى نصيب العرق عن جبينه وانحدر منثوراً كاللؤلؤ على
 لحيه وكانت يضاء طويلة لانه فلما نعاطى الخضاب^(٣) ثم نزل وسار الى منزله فتنفرق
 الناس واكثرهم فرحون بخلافته وخصوصاً اهل المدينة

المصل الثالث والثلاثون

- ﴿الفرار من المدينة﴾ -

أما محمد فكان يحامس سروره فأتى لما قام في ذهنه من أمر الحسن وإساءة فلما انتهى الخطاب اغتم الفرصة بانشغال الحسن في المسير مع والدك وتجمع الناس حوله لنهشيتو وأشار إلى أسماء فتبعته وقد أدركت ما يجالح ذهنه . وكانت قد لحظت ما في بس الحسن وقد أحبت واستلطنته ولكنها ما زالت على ولاء محمد وهو أول من طرق قلبها . فلما دعاهما أن تتبعه سارت في أثره وهي تنجاهل مراده حتى وصلا إلى بيت العجوز وكانت قد عادت إلى منزلها بالأمس ما يعاز من محمد . فلما خلا بأسماء هناك نظر إليها نظره لم يحفّ مفراها عليها فابتدرته قائلة « أرى المدينة غاصة بالناس وقد شغلوا بخليفتهم فلم يعد يحلو المقام فيها »

فلما سمع محمد كلامها عجب لحسن فراسنها ورقة . احساسها فازداد هياماً بها ولكنه خاف أن تكون مضجّع غير ما تظهر فقال لها وما الذي بنّس إليك الإقامة في المدينة قالت « بنّسها إليّ ما حبّب محمدًا إليّ »

قال وكيف نركبن عليّا وإهله

قالت مالي ولاهله

قال ألا نطنبين امامة تنفدك

قالت اظنها تنفدني وقد ينفدني غيرها ولكنني لا انا إلى باحد فادرك انها لحظت ما قال لها لقد غدت الممايلة لعليّ فهو اليوم امير المؤمنين وقد استقام الامر لنا بذلك . ولكنها تنتظر ما سيكون من تدبيل عماله على الامصار وتتدبر ذلك في حينه . اما الآن فأرى ان تقيسي عدد اخوتي عائشة ام المؤمنين وكانت أسماء قد علمت منه انها سارت إلى مكة لنضاء مناسك الحج وعثمان محصور^١ ولم تسمع انها عادت فقالت « هل عادت ام المؤمنين من مكة » قال لم تعد بعد وقد قُتل عثمان وتولى علي وهي غائبة وربما نقيم هناك مدة اخرى

(قال ذلك وهو يعلم ان عيبتها قريب ولكنه خاف اذا اعترف بذلك ألا تؤود
تُمت حاجة الى خروج اسماء من المدينة فتضطرب للاقامة في بيت علي وغيرها لا تسبح
له بذلك)

فقالت اسماء هل اذهب اليها

قال ارى ان - هي فتنبني هـ اك وتشاهدي بيت الله الحرام وتخرجي بمشاهد
مكة فاذا عادت اختي سريعاً عذب معها واذا اقامت طويلاً ذهبت انا لاستفدامك
ويكون قد عرفنا مصيرها بعد هذه الاخلافة

قالت ان في ذهائي اليها شرفاً عظيماً لا ارى ما عافى فيه ولكن كيف اسبر وحدي
قال ارى ان تصحك هذه الحالة (وأشار الى العجوز) فان لها معرفة ودالة
عظمتين على اختي وذهابها معك يغنيني عن كتاب النوصبة او نحو وارسل معكما
من بوصلكما اليها . ولكي ارجو ان يكون ذهالك بنا على التماسك رغبة منك في
البعد عن التلاقل . قال ذاك ونظر اليها وهو يبتسم

فهمت اسماء مراده وادركت انه يخاف ان يعلم علي او الحسن انه هو الذي حملها
على المسير . فقالت بل انا الراغبة في المسير الى هناك لاكون مجواراً للمؤمنين .
ابن جوادى وامتنعتي

قال هي هنا عند هذه الحالة فامكثي عندها الى الغد فاتي اليك بمن يسير بك الى
مكة قال ذاك وهم بالخروج

فقالت له اسماء ولا يرح من ذمك اني لا ازال اتوقع ان اسمع الخبر عن مقتل
عثمان وتفصيل ما تبرئ نفسك به

قال غدا نلاقين ام المؤمنين فاسأليها عن عثمان وهل هو به وجب القتل وهي
تحبيبك بما يغنيك عن سؤالي . الا تقبلين قولها

قالت بلى

قال انها من اول القاتلين يقتلن ومن قولها « اقتلوا عثماناً (لقب عثمان)
فقد كفر » (١)

فقالت اني صارت على ذلك فاذا كانت هي القاتلة فتولها بكيني

وتركها محمد ومضى فبانت في هناك تلك الليلة . فجاء محمد في الصباح التالي وقد اعدَّ هجناً ومودجاً . فلما رأت اسماء الجبال قالت وما ذلك قال في جمال ولا يصلح لركوب الصحراء غيرها فان بيننا وبين مكة بضع مراحل والطريق وعراً لا يصلح للسفر فيه غير الجبال

قالت اعلم ذلك ولكني افضل ركوب الافراس وكذلك فعلت في قدومي من الشام وقد خوفوني ركوب الافراس في الصحراء . فأبى الأما

قال لا يحسن ركوبك الفرس ورفيتك هنـ لا تستطيع ركوبة فاركي الهجن انها اصلح لهذا الطريق واتركي الدرس ها لاخوف عليـ . وقد علمت ان رجلاً من اخوال ام المؤمنين من بني الليث واسمه عبيد بن ابي سلمة مسافر اليوم الى مكة فعهدت اليـ في ان تسيرا برفقتي فيوصلكما الى منزل اختي

فحببت اسماء لقولـ ان الرجل من اخوال اخيـ ولم يقل من اخواله فسألته عن ذلك . فقال ان عائشة من ام غيرامي التي ذكرتها لك ولم تسمح لك الفرصة ان تربيها امس فعمسى ان تربيها في فرصة اخرى

قال ذلك وامر العجوز فاخذت في اعداد ما يلزم للسفر وجعلت تجمع صررها صرة فيها المنشط وصره فيها السواك وصره للعقال ونحو ذلك . ولم تمض ساعتان حتى تهيأ كل شيء وجاء عبيد بن ابي سلمة فارصاه بالعجوز والثناء خيراً وودعها فتالت له اسماء وهي نشد منطقتها حول خصرها ونهياً للدخول في المودج « متى اراك »

قال ارجو ان اراك قريباً في مكة او ان ابعت اليك فتقدمي البناء متى استقام الامر وهدأت الاحوال ونوسي خاطر اخي الحسن : قال ذلك بهوت مغتض وضحك فصحك هي وودعته وسارت على ناقها وقد تاشمت لنام السفر



الفصل الرابع والثلاثون

ـ عائشة ام المؤمنين ـ

ولم تكد اسماء نخرج من المدينة حتى اشرفت على قباء فهاجت اشجانها وتذكرت والدتها فترجلت عند المسجد فلقبها خادمة الشيخ فدعا قريبته فرجبت باسماء ومن معها . فطلبت اسماء ان تزور قبر والدتها فزارته وبكت عليه بكاء مرًا حتى كاد يغشى عليها لو لم ينهضها عنه الرفاق . ولما رآها ابن ابي سلمة في تلك الحال اسرع في الترحال فشدوا الاحمال وركبوا فاصدين مكة . وتأثر عبيد لما رآه من حزن اسماء فاحب تعزينها فلما اشرف على جبل أحد وهو على اربعة اميال من المدينة لجهة الغرب ^(١) احب ان يغفلها بالحديث فقال لها انظري الى هذا الجبل فانه جبل أحد الذي حدثت عنده الواقعة الهائلة بين المسلمين ومشركي قريش على عهد النبي . وقصص عليها حديث تلك الغزوة وقصوا في سفرهم هن ثلاثة ايام فاشرفوا في ظهر اليوم الثالث على جبال مكة في قرية يقال لها سرف على ستة اميال من مكة ^(٢) فرأوا ركبا قد وصل حديثا وفيه ناقة عرف عييد انها ناقة عائشة وتأكد ذلك لما رأى هودجها وعليه رداء احمر يجلالة كلة . فترجل وزجلت اسماء والعجوز واشتغل العييد في تدبير النوق وعقلها اما اسماء فسرت برجوع عائشة عاجلا لعلها ترجع معها الى المدينة فتلتقي بمحمد قريبا . فقالت للعجوز وابن ابي ام المؤمنين يظهر انما اسرعت في الرجوع من مناسكها . فالتفت العجوز بئمة ويسرة حتى وقف بصرها على فسطاط كبير مبطن الحرير الاحمر عند بابو بدويان واقنان . فقالت هذا هو فسطاطها وقد وقف الخدم عند بابو فقالت وهل نذهب اليها الآن

قالت نهلي لنرى ما يكون من ابن ابي سلمة ثم سارت العجوز اليه وكان مشتغلا بعقل ناقتيه واصلاح حاله وثيابه قبل الدخول الى الفسطاط . فازدادت اسماء تهيبا من الدخول على ام المؤمنين وقالت للعجوز وهل هي تنوي الاقامة في هذا المكان قالت يظهر انها على سفر . ثم دنت من قائد جعلها فسألته عن سفر ام المؤمنين

فقال انها شاخصة الى المدينة

فقات اسماء وما العمل الآن هل رجع معها ام نضل في طريقنا الى مكة
قالت سئري في ذلك متى التفتينا بها وهي ترشدنا فاذا امرنا بالرجوع معها رجعنا
او ارادت ان ندخل مكة دخلنا

قالت هل تنتظر رفيقنا !مدخل معه ام نسفه اليها
قالت أرى ان ندخل قبله مخافة ان تكون هي مسرعة في القيام فلا يمكن من مخاطبتها
قالت وهل تعرفينها قبلا
قالت اعرفها جيدا وقد عشت في منزل والدها رحمه الله وكثيرا ما حملتها
على عاتقي وهي طفلة فاني احب اليها حوالا الذي
قالت فلندخل عليها

قالت هلم بنا ومشت امامها
فبعثنا اسماء حتى دتنا من النسطاط فاستأذنا في الدخول فأذن لها . فدخلنا
وكلاما هائبة الوقوف بين يدي زوج الـ

اما اسماء فكانت على شجاعتها وثبات جاشها قد شعرت عند دخولها النسطاط
بمخففان قايها وزاد خفافه حتى احمرت وحنناها ثم امتنع لونها رهبة من لقاء ام المؤمنين
وكانت عائشة جالسة الارعاء على وسادة من الخزفي صدر الخيمة . فظرت
اسماء اليها فاذا هي ربعة ممثلة الجسم عيها نالآن صحة وذكاء فوفها حاجبان
متقاربان بشيران الى ما اودعه الخالق فيها من الالة والهمة . وقد تجلبت مجلاب
من الحرير يغلي كل اثوابها فوقه نقاب يكسو رأسها فيزيده جلالا وعظمة
فاستأذنت اسماء بظهارها لمشايهتها محمد احني لايشك الناظر اليها انها اخنة .
وكانت قد علمت قبل دخولها عليها انها في نحو الثالثة والاربعين من عمرها فلما رأتهما
خجل لما انها في ما دون الثلاثين لما في وجهها من نور الصحة والجمال

فلما دخلنا الخيمة حيناها وهمت العجوز تنميل يدها فبعثتها عائشة وقالت اهلا
بك يا خالة اهلا بك وامرتها بالجلوس فجلست وتقدمت اسماء بوقار وحشمة وقدمت
يدها ووقفت متأدبة حتى اذنت لها بالجلوس فجلست مطرقة لا تتكلم وقد ذهبت عنها
جسارتها لهول ذلك اللقاء

فظنرت عائشة الى العجوز واتسمت ابتساماً بكاد يكون اغصائياً كأن في نفسها امرأً تخوفة او كأنها مشتغلة بالمخاطر بامر هام . ثم قالت « مرحباً بك يا خالة ما الذي جاء بك الى هذا المكان كيف فارقت محمداً »

قالت فارقت في خير وعافية وقد بعثني اليك بمن الفناء لنقيم عندك ودبة له ريثما يأتي . قالت ذلك ونسبت

فظنرت عائشة الى اسماء فاعجبها ما فيها من الجلال والهيبة وادركت ما علا وجهها من اظلال الحياء عند ذكر محمد انها تحبه فتبسبت ونظرت الى العجوز ف اشارت العجوز بعينها اشارة اكدت ظنها

فقالت لاسماء اهلاً بالصيفة الزيرة ودبة اخي فانت اذاً اخي
فبالفت اسماء بالاطراق خجلاً وتوردت وجتها ولم تحب
فقالت عائشة اظنكما جئتما لتقيا عندي في مكة

قالت العجوز نعم يا مولاتي
قالت ولكنني شاخصة الآن الى المدينة على ان ذلك لا يمنع مسيركما الى منزلي
بمكة ريثما اعود او انا شئتما سرنا معي الى المدينة . ثم التفت الى اسماء وقالت ما بالك لا تتكلمين يا اسماء

فرفعت اسماء راسها وقالت « لي عذر بتلعثم لساني لمثولي بين يدي ام المؤمنين زوج الرسول (صلعم) »

فاجدرتها عائشة قائلة ولكنك ستكونين من ذوي قرانا باذن الله فلا يجب ان نهيب . اهلاً بك ومرحباً

فقالت العجوز وهي تريد ان تعبت باسماء « واخبر مولاتي ان اسماء بنت يزيد الاموي من بني امية لم تأت المدينة الا منذ بضعة اشهر وكانت مقبلة في الشام فهي لا تعرف عادة اهل الحجاز »

فقالت عائشة مها يكن من اصلها فهي لا تلبث ان تصير حجازية



الفصل الخامس والثلاثون

— ﴿ انقلاب سريع ﴾ —

وسكنت عائشة هنيئة وهي منطبقة الوجه . ثم استأنفت الحديث قائلة وهل جئنا
في رفاق ام مع قافلة

قالت اما جئنا مع عبيد بن ابي سلمة احد اخوالك

فلما سمعت عائشة اسمه اجفلت بغتة وقالت وابن هو

قالت هو آت قريباً

فلم تصبر عائشة على انتظاره فنادت بعض الذين في بابها وامرته ان يأتي به وأرخت

النقاب ولثت صامتة وهما صامتتان هائبتان حتى دخل عبيد . فلما دخل همّ بتقبيل

يد عائشة فمنعته وقالت اهلاً ، الخال قل ما وراءك كيف فارقت المدينة

قال فارقتها وقد قُتل عثمان وبنو ثمانية

فلما سمعت ذلك اقطبت حاجبها وظهر الغضب على وجهها ففرست في عبيد

والشرر يكاد ينطير من حدقيتها واسماء تراقب ذلك فيها من خلال النقاب وقد

ذهلت لما بدا منها

اما عائشة فلم تصبر على انعام حديثه . فقالت وهي كأنها نخعز للنهوض

« ثم صعلوا ما ذا »

فلم يستغرب عبيد ما بدا منها ولعله كان يتوقعه فقال « اجتمعوا على بيعة علي »

فهبت عائشة من مجلسها ثم وقفت رهة واطرقت وقد امسكت طرف نقابها

وشدته كأنها تصلح ثم رفعت رأسها بغتة وإشارت يدها الى السماء ثم الى الارض

وقالت « ليت هذه انطبقت على هذا ان تم الامر لصاحبك » قالت ذلك وخرجت

مسرعة وهي تقول « ردوني ردوني الى مكة . قُتل والله عثمان مظلوماً والله لاطلين

بدمه » فبغنت اسماء لما رأت من اهتمام عائشة في الامر الى هذا الحد وساءها ما سمعته

من التعريض بعلي ولكن التهييب منعها عن الكلام

اما عبيد فما زال ثابت المجاش والظاهرائه كان على بينة ما سيبدو من ام المؤمنين

فاعد لكل خطاب جواباً فاستوفوها وقال لها « ولم والله ان اول من امال

حرفة لامت^(١) ولقد كنت تقولين اقتلوا نعلماً فقد كنز^(٢) ألم تخرجي قبض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وشعره لما علمت باعمال عثمان وتقولين « هذا قبضة وشعره لم يبل وقد يلي دينه »^(٣)

فلما سمعت عائشة ذلك حولت وجهها نحوه وقالت « انهم استنابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وتقولين الاخير خير من تولى الاول » قالت ذلك وامرت رجالها ان يهتولوا الاحمال للرجوع الى مكة . فظفر اليها عبيد وهي خارجة وانشد

فمنك البداء ومنك الغدير * ومنك الرياح ومنك المطار
وامت امرت بقتل الامام * وقلت لنا انه قد كبر
فهبنا اطعناك في قتله * وفاتله عددا من امر
ولم يسقط السقف من فوقنا * ولم ينكسف سمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذات ندر * بزيل الشما وبقيم الصفر
ويلس للحرب انوابها * وما من وفي مثل من قد غدر
فلم نعتا عائشة نقول فتركها واصرف

اما اسماء فلبت هي والعجوز وكان على راسيها الطير لا تديان خطابا . وكانت اسماء قد همت بحجاب عائشة ولكنها خافت غضبها فرأت من الحكمة والتعقل ان توجل ذلك الى فرصة اخرى

فلما نهأت الاحمال بعثت عائشة الى العجوز واسماء فركبتا معها وسارا جميع قاصدين البيت المحرام واسماء صامتة وقد ادهشها ما رأت من تغير عائشة بغتة لامر لم تكن تتوقعه . على انها مالت كل الميل لسماع الادلة على صحة قولها في مقتل عثمان وهو الامر الذي ما زال يشغل بالها ولكنها كانت من الجهة الثانية تخاف ان يثبت قتله ظلماً فيحدث ما يدعوها الى التبعاد عن محبذ وقلمها لابطاوعها على ذلك ; فقضت مسافة الطريق غارقة في هذه المواقف ولم تنبه الا وقد اطلت على مكة فاشرفت على الكعبة وهي في وسطها كائناً ملك وسائر الابنية حولها اجساد . ولم يرض قليل حتى وصل ركبهم الى مسجد الكعبة فترجلت عائشة من هودجها وترجل الجميع وسارت هي تورا الى الحجر^(٤) فاستنرت فيه . وهو مصداق محوطة بمخاط الى دون الصدر منه

ما تركت قریش من الكعبة واقتصرت في بنيان الكعبة عنه^(١) ويقال ان فبو قبر سارة . فلما رأتها اسماء دخلت الحجر دخلت في اثرها والعجوز معها ولكنها لم تكلماها لعظم ما هالما من غضبها

الفصل السادس والثلاثون

—* الطلب بدم عثمان *

وما كادت عائشة تدخل الحجر حتى اجتمع الناس حولها وفي مقدمتهم عبدالله ابن عامر الحضرمي عامل عثمان على مكة . وشاهدت اسماء بينهم جماعة من بني امية ممن غادر المدينة بعد مقتل عثمان لكن مروان لم يكن معهم . أما عائشة فلم تصبر على ما فؤا به من التحية والاحلال فوقت فيهم وقالت وم سكوت يصفون لمقالها وكانت جمهورية الصوت^(٢) « ايها الناس ان الغوغاء من اهل الامصار واهل المياه وعبيد اهل المدينة . اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً وقبوا عليه باستعمال من حدثت سنة وقد استعمل امثالهم من كان قلة وموضع من الحمى حاما لم فتابعهم وتزع لم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً بادروا بالعدوان فسكوا الدم الحرام واستولوا البلد الحرام والشهر الحرام واخذوا المال الحرام . والله لاصبع عثمان خير من طباق الارض امثالهم ولوان الذي اعندوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبث او الثوب من درنو^(٣) »

فما اتمت كلامها حتى هاج الناس وماجوا . ثم تصدى عبدالله بن عامر الحضرمي وقال والناس يسمعون « ها انا اول طالب » وكان هو اول من اجاب الدعوة الى الطلب بدم عثمان

وكانت اسماء لا ترداد من ذلك الا نجيها ولم تنفقه لهذا الامر سبباً معقولا . فالتفت الى العجوز يجانها فرأتها صامنة مطرقة وقد امتنع لونها وارتجنت شفتاها فلما رأت اسماء نظر اليها غضت على شفتها تلمس سكونها فأدركت اسماء ان في الامر سرّاً لا نستطيع ان نبوح به

(١) مرصد الاطلاع (٢) ابن الاثير ج ٢ (٣) ابن خلدون ج ٢

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فاشارت عائشة الى الناس ان ينصرفوا
فنفروا وخرجت هي تلمس منزلها وسارت اساء في أثرها وقد شد صبرها لاندهاشها
ما رأت في ذلك اليوم من الفرائب وقد عوّلت ان تغتنم اول فرصة للاستنهام عن
سبب ذلك

فوصل الجميع الى منزل عائشة في العشاء فمدت لم الاطعمة فتناولوا العشاء ولم
يغزأ العجوز ولا اساء على مجالستها في تلك الليلة فدائنا في بعض حجر المنزل واساء
تنتظر الغد لتقابل عائشة وتستطلعها الحقيقة

فلما اصبح الصباح نهضت اساء والعجوز . فلما جلسنا قالت اساء لقد ادهشني امرٌ
لم يبق لي صبرٌ على السكوت عنه وليس لي من يفرج كربتي سواك
قالت قولي ما تريدن

قالت لقد سمعت من ام المؤمنين كلاماً يوخذ منه المجاهرة بعداوة امير المؤمنين
علي بن ابي طالب والذي اعلم ان علياً ان عم الرسول (صلعم) وعائشة زوجة
الرسول وقد كنت اتوقع وفاقاً بينهما على صلاح الامة فرأيت بالعكس ولم افهم السبب
فتفحنت العجوز واجالت بعينها وانهضت كتنها كأنها تقول « لا يعني » ان
« لا يعني البحث في ذلك » . اما ملاح وجهها فكانت تدل على انها تعرف سبباً تحاول
كنماة فتوسلت اليها اساء ان تنصح لها عنه

فلما الحّت عليها قالت ان في الامر سرّاً قل من يعرفه سواي ولكنني اخاف ان
ابوح به

فاشتاقت اساء لسماع السبب وجرت نفسها على البساط حتى التصفت بها وقالت
بالله ألا فرّجت كربتي بكلمة واني اعدك بالكتمان

فالتفت العجوز بمنة ويسق وهي تحاذران بسمها احدٌ وادنت شفنها من اذن
اساء وقمت بالكلام ثم اجفنت بغتة ورجعت عنها واصفت فاذا هي تسمع صوتاً خارج
الغرفة فاصغتا فسمعنا وقع اقدام خفية فابتعدت العجوز اخفاء لما كانت تهم به ثم
سمعت قارعاً يفرع الباب وجارية تاديها فنهضت وفتحت الباب فدخلت المجارية
واذا هي حبشية فحنها ثم قالت ان مولاتي ام المؤمنين تدعوكما الى غرفتها



الفصل السابع والثلاثون

— ﴿ الامام علي ومقتل عثمان ﴾ —

فسرّت اسماء هذه الدعوة على امل ان تتمكن من استطلاع شيء فتمضنا ودخلنا عليها فاذا هي جالسة على طنفسة من السجاد الثمين وقد خلعت الجلباب فبانَتْ اثنائها الزاهية فزادتها رونقاً وبهاءً وبان معصاها وعنقها وعليها الدمايح والاساور والعقود ما يذهل البصر ويزيدها جمالاً . على انها كانت لا تزال منطبة الوجه وقد علتها الهيبة فلما دخلنا قباتنا يديها وجلسنا على وسائد من الدمنس الملوّن القرب منها . فلبثت رهة لا نتكلم ثم قالت وهي توجه خطابها الى العجوز « كيف قتلوا عثمان يا خالة » قالت قتلوه في داره بعد ان احرقوا الباب والسقيفة ودخلوا عليه عنوة

قالت ومن قتلوه وكيف

فسكنت العجوز رهة ثم قالت لا اظني قادرة على وصف تلك الواقعة كما تصنها اسماء وقد تهديت القتل بنفسها لانها كانت في داره ساعة مقتل

فحولت عائشة نظرها الى اسماء باهتمام وقالت « هل كنت في الدار ساعة القتل »

قالت نعم يا مولاتي

قالت وكيف كان ذلك

فشقّ على اسماء ان تنصّ الواقعة كما جرت لانها تمسّ تحمداً ولكنها لم ترَ بداً من الجواب فقالت ان الحديث لو اردت بسطة اسنال بما المقام ولكني اقول بالاختصار انهم استنابوه كما قلت فتاب ثم رجع ولقد صبح له عليّ ان يصمّ اذنيوه عن سماع مشورات كاتبه وان عمو مروان فلم يصغ فعاد الى ما كان عليه وعلم الثائرون ذلك فطلبوا اليه ان يسلمهم مروان ويعودوا فابى فمهاؤهم بهزلوه ودخلوه عنوة وقتلوه

قالت ومن قتلوه

قالت اثنان لا اعرفهما ولكنهما من صعاليك العرب ليس احد منها من الصحابة

او اولادهم

فتأوهت عائشة وحرقت اسنانها وقالت وكيف يقوى الصعاليك على قتل الخليفة

وكبار الصحابة ينظرون ولا يجركون ساكنًا ولا يدافعون عنه بسيف أو لسان فلم تر أسماء بدءًا من الدفاع فقالت انهم يا مولاتي قد دافعوا عنه جهدهم واعلم ان عليًا ارسل ابنيو الحسن والحسين الى دار الخليفة وكذلك فعل سائر الصحابة ولقد رأيتهم هناك يدافعون الناس عن بابو حتى تلطخ وجه الحسن بالدم . ولكن الخليفة رحمه الله منعهم عن الدفاع واستخلفهم ان لا يفعلوا

فبسمت عائشة ابتسامًا يشفئ عن استخفاف بحديث اسماء وقد استغربت اعتقادها دفاع الصحابة عن عثمان وقالت أنصديقين ان عليًا لو اراد ان يدفع الناس عن عثمان لم يستطع دفعهم . ولكنه فعل ما فعله وسكنت كأنها ضاقت ذرعًا عن الخوض في تفاصيل الموضوع ولم تكذبهم بانام الحديث حتى ابتدرتها اسماء فاثلة اسمعي لي يا مولاتي ان أوّدي شهادة لا استحي ان اصرح بها امام الديان العظيم . ان عليًا بريء من دم عثمان بل هو اول ناظم على هذه الفتنة لاعتقاده انها ستكون سببًا في نشنت شمل الاسلام ويظهر ان اعتقاده كاد يتحقق لا سمح الله قالت اراك يا بنية تنظرين الى ظواهر الامور دون بواطنها أيعقل ان عليًا بما له من النوذ في اهل المدينة اذا اراد الدفاع عن عثمان لا يستطيعه

قالت عرفت يقينًا انه اول غاضب على القائمين بهذه الثورة ولقد سمعته ذات ليلة يناجي رسول الله (صلعم) على قبره يشكو اليه ما اصاب امته من التشنج بعد وكان وجودي هناك صدفة فسمعت كلامًا يفتت له الصخر بقلعة شهبى البكاء اسفًا على حال الاسلام . ان عليًا يا مولاتي مخلص في قوله وفعله ولا لوم عليه ولعلك اذا وجهت اللوم على القائلين او المحرضين على القتل ان تجدني وجهًا للوم . قالت ذلك وهي لا تزال هائبة موقفها بين يدي ام المؤمنين فما اتمت كلامها حتى تصيب العرق من جبينها

فبهت عائشة من مجلسها وقالت وقد اخذ منها الغضب مأخذًا عظيمًا . ان اولئك الفتلة قد ارتكبت اثمًا عظيمًا لا مشاحة فيه ولكن معظمهم لا يدركون عاقبة ما يعملون وانما حرضهم على هذا المنكر شيوخهم وروساؤهم فانك تجهلين امورا اعلمها ولا اجعل شيئًا تعليمية وسكنت برهة واساء . طرفة وقد حارت في الجواب . فاستأثنت عائشة الحديث فقالت « ولقد بلغني ان اخي محمدًا كان في جملة المغرورين » ثم خففت صوتها وقالت وهي تلقي يدها على الوسادة لتكي عليها « ولكنه لا يلام لانه ربيب علي »

فلما سمعت اسماء ذلك ثارت في قلبها نار الغيرة وأرادت الدفاع عن محمد فخافت ان ترتكب الكذب فلبثت صامئة ونظرت الى العجوز فرأتها قد تغيرت سمعتها خوفاً ورهبة وظل الجميع سكوتاً برهة لا تنوّه احداً من بكلمة حتى عادت عائشة الى الكلام فنظرت الى اسماء وقالت وهي تحاول اخفاء غضبها ونسكين عواطفها « لا أنكر ان عثمان اخطأ في بعض احوال تصرفه في خلافته وأكفه خطأ لا يستوجب عليه غير اللوم والنصيحة لا القتل »

فاحبت اسماء ان تسمع رأي عائشة في ما ارتكبه عثمان من الخطأ فقالت « وهذا ما سمعته من اخيك محمد ولكنه يعتقد ان خطأه اعظم من ذلك كثيراً »
قالت وقد عادت الى الغضب ان محمداً لا يعرف ما اعرفه ولو حضر الآن لجادلته في الامر وبينت له خطأه بالبرهان . ولم تكذب نتم كلامها حتى دخلت بعض الجوارى وهي تقول ان بعض الامراء في الباب . فلما سمعت اسماء ذلك نظرت الى عائشة فرأتها توقفت عن رد المجارية فادركت انها راغبة في مقابلة القادمين فنهضت وإسناً دنت في الانصراف الى حجرتها فأدنت لها وخرجت العجوز في اثرها وكلاهما صامتتان تنكران فيما سمعناه

الفصل الثامن والثلاثون

— * البرداء * —

واحدت اسماء حال خروجها بقشعريرة شديدة ولم تكذب نصل حجرتها حتى اصابتها البرداء فالتصت الفراش والبرداء تتزايد في اعضائها فلحقتها العجوز واجلستها في الفراش وجلست هي الى جانبها وجست يدها فاذا هي باردة كالثلج فغطتها بالاحرمة والاحفة وهي لا ترداد الا انتفاضاً فانشغل بال العجوز وسألها عما تشعر به فقالت انها تحس بارتخاء في اعضائها وارتعاش في كل جوارحها . قالت ذلك واسنانها تصادم لشدة الارتعاش . فارادت العجوز ان تخفف عنها فقالت لها لا بأس عليك يا بنية اظنك اصبت بذلك على اثر التعب الذي قاسيناه في اثناء الطريق

فلم نجبها اسماء وغلب عليها السكوت فلبثت صامتة والعجوز الى جانبها تفكر في حيلة تخفف بها عنها ولم يرض قليل حتى خلت عنها الرداء واحمر وجهها احمراراً شديداً . فجسها العجوز فاذا هي شديدة الحرارة فخنفت الاغطية عنها وخرجت تستشير اهل الدار في علاج تصنف لها . فاشارت عليها بعض النساء بعسل نشربة ممزوجاً بالماء فجاءها قدح من مزيجها فلم ترض ان تشاول منه شيئاً . فتقدمت اليها وقبلتها في جبينها وتوسلت اليها ان تشرب ذلك العسل فلم نجبها ثم ما لبثت ان رأت الدموع تتناثر من عينيها وهي تحاول امساكها . فقباهلت العجوز والحت عليها ان تشرب فلم تزد اسماء الأبكاء ولم تعد تنالك عن الشهيق وقد احمرت عيناها وذبلت اجفانها واشتدت عليها الحمى اشتداداً عظيماً

فحارت العجوز في امرها وودت ان تخبر ام المؤمنين بذلك ولكنها تذكرت اشغالها بن قدم عليها من الامراء فلبثت بجانب الفراش تنظر الى اسماء وبكائها ولا تتكلم

ثم سكنت اسماء واغضت جنبها كأن النعاس قد غلب عليها ففرحت العجوز بمنامها فتركها وخرجت لعلها تلتى من تسنديه في معالجتها ولم تكد تخرج حتى سمعت اسماء تتكلم فظنتها تدعوها فأسرعت اليها فاذا هي تمهذي وقد كشفت الغطاء عنها وانحسر درعها وقبصها عن صدرها وتكشفت اكمامها لفرط ثقلها وهي غارقة في النوم فارادت العجوز ان تغطيها ونصيح اثنائها فحانت ان تستيقظ ولكنها دنت من الفراش لترفع الغطاء الى صدرها فرأت الحجاب في عنقها ورسم الصليب على معصمها . فبغت وتأملت وجهها فاتبعت الى شيء فيه غير ملائم العرب الهضة واعادت النظر الى الرسم على معصمها فاذا هو رسم الصليب وتحققت ان الحجاب من احجية النصارى فاستغربت الأمر ثم تذكرت ان اسماء قلما كانت تبالي بالتحجب في مخاطبتها محمدًا ان غيره فقالت في نفسها هل هي نصرانية ام ربيت بين النصارى في الشام

وكانت اسماء في اثناء ذلك ساكنة مستغرقة في النوم وقد اُطبق جفناها وتوردت وجنتاها واسرع تنفسها من شدة الحمى حتى كانت تنفس لهاً وفيها مفتوح فازاحت الغطاء الى صدرها خوفاً عليها من البرد فسمعتها تمهذي فاصفت لذبائها لعلها تستطلع شيئاً من سرها فاذا هي تقول « أماء يا أماء يا مريم ... آه يا علي يا ابا

الحسن كيف ضاع ذلك السر نعال يا حيبي يا محمد . . . لا لا اذا كنت
قتلت عثمان فانت بعيد عني لا لابل نعال يا مني ورجائي ان اسمك آخر
لفظ خرج من بين شفتي امي قبل وفاتها . . آه يا اماء . . من هو الي اخبرني . قولي
لي هل هو حي بعد ام سيفك الى العالم الآخر . . . » ثم خنضت صوتها وللجلج لسانها فلم
نعد نهم العجوز شيئاً من كلامها واخيراً سكنت سكوتاً تاماً واستغرقت في النوم . فجلست
العجوز بالقرب من الفراش وهي تود ان تمسها لتتخفق حال الحمى ولكنها خافت ان
ترعجها فلبثت صامته تفكر بما سمعت منها وتعب لجبهها والدها

الفصل التاسع والثلاثون

— أم الفضل —

وفيا هي في ذلك اذ جاءت بعض الجواري مسرعة وهي تقول « ان ام الفضل
قادمة لترك »

فلما سمعت اسم ام الفضل تخفرت لملاقاتها وقد سرّت بقدمها . وبعد هنيهة اقبلت
ام الفضل تمشي الموباة لا يسمع لمشيها صوت . وكانت في نحو الستين من عمرها فهتت
العجوز وحينها وقبلتها ودخلت بها الى الغرفة ودعتها للجلوس على البساط
فقالت ام الفضل وهي لم تنظر الى فراش اسماء بعد « اني اسم في هذه المحجة رائحة
الحمى والتفتت الى الفراش وقالت من هو المريض عندك »

قالت لقد جئتني في ساعة ضيق فعساك ان تفرجي عني
قالت انما جئت لأسألك عن مقتل الخليفة رحمه الله وما آكل اليه الامر بعدك
فقد همني امرٌ كثيراً وسمعت بقدمك فاسرعت اليك . فاخبرني اولاً من هو
المريض معك

قالت هي فتاة جئت بها من المدينة بايفاز من ابن اخنك محمد بن ابي بكر لثقيم
بضعة ايام عند اخنوا المؤمنين ربنا نرى ما يكون
قالت وما علاقة ابن اخني بها

فالتفت العجوز الى فراش اسماء وهي تخاف ان تسنيظ فتسمع كلامها ودنت من ام الفضل وهمست في اذنها انه بنوي ان يكتب كتابه عليها وارادت ام الفضل ان تستنهم العجوز عن تفصيل مقتل عثمان فاذا باسماء تنأوه ثم ادارت رأسها نحوها وفتحت عينها . فنهضت العجوز اليها وجست يدها فاذا هي مبللة بالعرق وقد خنت الحمى قليلاً فقالت لها كيف ترين نفسك يا بنية ف اشارت برأسها وعينها انها في راحة ثم رأت ام الفضل فاستحييت منها وارادت الجلوس فنهضت ام الفضل اليها وهي تقول لا تزجي نفسك يا ابنتي . قالت ذلك ودنت منها

فوسطت العجوز بينهما وقالت اظلك نسأ نسين بقاء ام الفضل وهي لبابة خالة محمد بن ابي بكر اخت امو وازيدك تعريفاً بانها اول من اسلم بد خديجة وهي ايضاً زوج العباس عم النبي واخت ميمونة زوج النبي (صلعم) ومن اولادها عبد الله ابن عباس من خاصة امير المؤمنين علي بن ابي طالب بل هو ابن عمو وابن عم الرسول (صلعم) واظنك شاهدته غير مرة في مجلس علي اولئك رأيت في دار عثمان فقد تردد اليه وهو محصور حتى اتدبه ان يخرج بالناس ^(١)

فلما سمعت اسماء انها خالة محمد استأنست بها ولما علمت انها زوج عم النبي وام عبد الله ابن عباس زاد احترامها لها فجلست وهي تمتح العرق عن جبينها ورحبت بها فاسرعت ام الفضل وقبلتها وقالت اهلاً بك كيف فارقت محمداً فحجبت اسماء لسؤالها عن محمد وهي تحسبها لا تعرف علاقتها به . فلما رأت العجوز استغرابها ضحكت وقالت لا تستغري يا اسماء ما نسألك عنه لانها عالمة بكل شيء وهل يخفى التمر

فاطرفت اسماء خجلاً ولم نجب

فجلست ام الفضل الى جانب العجوز على البساط بالقرب من الفراش وقالت لها بصوت منخفض كأنها تحاذر ان يسمعا احد « هل قابلت ام المؤمنين وكيف لقيتها » قالت لقيتها نائمة على قنطرة عثمان ولا ادري ما تنوبو قالت علمت انها في يوم وصولها مكة دعت الناس للطلب بدم عثمان وكان اول

من اجابها منهم عامل هذه المدينة
 قالت نعم انها فعلت ذلك وقد شهدت كلامها وكلامه ومعها اسماء ولكنني لا
 اظنها تنوي اخراج ذلك من القوة الى الفعل
 فاجبت ام الفضل ابتاساً بما رجه استغراباً وقالت « وما الذي حملك على هذا
 الظن؟ » والننت الى اسماء فرأنا مشغولة بالالتحاف وقد أحست بشعيرة على اثر نهوضها
 وجسمها مبتل بالعرق . فادنت ام الفضل فها من اذن العجوز وخضت صوتها وقالت
 « أملك تجهلين ما في نفسها على امير المؤمنين »
 فعضت العجوز على شفتيها وأشارت بعينها انها لا تريد الخوض في هذا الشأن امام
 اسماء مع انها ارادت ان تطلعها عليه مرة ولكنها ندمت وبدلت الموضوع وقالت
 « اذن نظنين انها تنوي اخراج ذلك الى حيز الفعل »
 فتناولت ام الفضل بعنقها نحو الباب حتى أطلت على الدار مخافة ان يكون احد
 قريباً فيسمع كلامها وقالت « لا بد لها من ذلك فان اهل مكة يد واحدة في هذا الامر
 وفيهم بنو امية الذين هربوا من المدينة وعلمت ان الزبير وطلحة قادمان الى هنا وكل
 منهم طامع في الخلافة لنفسه وقد سارقوا لاستنثاء اهل البصرة وآخرون للكوفة
 وغيرهم لتحريض اهل اليمن وآخرون الى الشام »
 فابتدرتها العجوز قائلة اما اهل الشام فلا يجناجون الى تحريض وفيهم معاوية
 ابن عم عثمان رحمة الله وقد حملوا اليو قبيص عنان الملتطخ بالدم واصابع نائلة ليهيوا
 اهل الشام على القاتلين
 فتهدت ام الفضل وتآهت وقد عظم عليها ما تخوفه من عظم الفتنة حتى تناثر
 الدمع من عينيها وظلت صامتة

الفصل الاربعون

* دعوى الناس على عثمان *

واما اسماء فكانت في اثناء ذلك مضطربة المحاولات نسمع الحديث ولا تقوى على
 جواب فلما رأت ام الفضل تبكي تذكرت بكاء علي عند قبر النبي في تلك الليلة التي رأت

فيها محمدًا لاول مرة . فانتقل ذهنها الى محمد وما يعترض آمالها فيه من امر البرى من مقتل عثمان . وكانت لما سمعت كلام عائشة قد اغلست على محمد وكادت تتحقق ما سمعته لولم يبق في قلبها ما يبرئه وهو الحب . . . على انها ما زالت تود سماع دفاعه او دفاع من يقول بقوله وبرى مقتل عثمان . فلما رأت سعة علم ام الفضل في تاريخ الاسلام وقد رافقت كل حوادثه وتشتت اسبابها وتناجها كلمتها بصوت مختلق من تأثير الضعف والحى فانتهت ام الفضل واصغت لمقالتها . فقالت اسماء ان في نفسي شيئًا لا صبر لي عليه

قالت وما هو

قالت لقد شهدت مقتل الخليفة عثمان رحمه الله وسمعت دعوى الناس عليه ولكني تحققت من حوادث كثيرة انهم ظلموه وان الذنب ليس له وانما هو لمروان ابن عمو فقد كان كاتبة يتصرف في شؤونهم كيف شاء . ولكن ابن اخنك (تريد محمدًا) ولم تذكر اسمه حياء) يزعم انه يستوجب القتل ولقد جادلته في الامر فوعدني بتأييد رأيه في فرصة اخرى

فلما سمعت ام الفضل كلامها انتهت ثم قالت لقد وقعت على خير فاني اعرف عثمان قبل اسلامه واعرف ترجمة حاله ما استرمنها وما ظهر وهي لا تخلو ما يعجب الاحزاب عليه وينشئ الضغائن واطفه لومني بوزير او مشير عاقل او كاتب غير مروان لما بلغ الامر الى ما بلغ اليه . واليك ما ارتكبه عثمان ما هاج غضب الصحابة عليه

(١) ان الصحابة كما تعلمين هم الذين قاموا بنصرة الاسلام وتأييد دعوتهم منذ اول ظهوره فهم اولى من سواهم بولاية الامصار وتولي الاعمال وكانوا كذلك على عهد صهري رحمه الله وعهد الامام عمر بعد فلما تولى عثمان عزل اولئك الصحابة وولى آخرين من ذوي قرابته كما فعل بعمر بن العاص في ولاية مصر وهو الذي فتحها وغرس الاسلام فيها فعزله وولى مكانه اخاه عبد الله بن ابي سرح (اخا عثمان من الرضاة) وعبد الله هذا كان في جملة الذين ارتدوا بعد اسلامهم ولحقوا بالمشركين فاهدر النبي دمه وعثمان اخذه الامان بعد فتح مكة

(٢) ان عثمان اسرف اسرافًا شديدًا ببيت المال وكان يعطي منه اناسًا من

قرا بنو طردم النبي (صلم) ولا يغرنك ما يقال عن نقشفو وزهد في طعامو
 (٣) انه اساء جماعة من اعلام الصحابة وذوي المقامات السامية في الاسلام
 منهم عبدالله بن مسعود وابو ذر الغفاري ونفاهم عن اوطانهم وانتكح حرمة كعب بن
 عتبة البهزي وحرمة الاشتر النخعي في امور يطول شرحها
 (٤) انه زاد كثيراً من الضرائب على الاسواق وحسب سوق المدينة في بعض ما
 يباع ويشترى فقال لا يشتري منه احد النوى حتى يشتري وكيلة ويفرغ من شراء ما
 يحتاج اليو عثمان . وحسب البحر من ان تجري فيه سفينة الا في تجارتو
 (٥) انه اقطع اصحابه اقطاع كثيرة من بلاد الاسلام ما لم يكن له فعلة (١)
 وهناك امور اخرى نسوها اليو كخالفه الجماعة في انعام الصلاة بني واشراده
 باقوال شاذة ونحو ذلك

ولكن لاصحابو حججاً يدافعون بها عنه وهي طويلة لو اردت ذكرها لطال
 بنا الكلام (٢)

وكانت ام الفضل تتكلم بصوت مخفض واساء تتناول نحوها وكلها آذان لسماع
 حديثها فاطمان بالها لانها رأت لمحمد عذراً في علمو وهي ميالة من بادى الرأي لتبرئو
 فأحست عند سماع كلام ام الفضل كأنها التفت عن ظهرها حملاً ثقيلاً . ولكنها نعت
 من الاصغاء واحست بدوار وغثيان فاستلقت على ظهرها وقدامتفع لونها ولم تنه بكلمة
 فلما رأت العجوز اصرارها علمت انها أصيبت بدوار من شدة الجوع لانها لم تذوق طعاماً
 في ذلك اليوم . فنادتها فأجابت ولم تفتح عينها لشدة الدوار . فقالت لها العجوز ألا
 تشربين قليلاً من العسل فانه دواء شاف لك

فأشارت اسماء بحاجبيها ان « لا » ولم تتكلم فحارت العجوز في امرها واستشارت
 ام الفضل في ماذا تفعل

فقالت دعبيها تنام الآن

فصبرت حتى تحققت انها نامت فتركها في الغرفة وخرجت وام الفضل معها ولم
 يبق لها صبر على تنصیل حادثة عثمان . فنزلنا من الدار وعائشة لا تزال في غرفتها وعندها

(١) تاريخ الخميس ج ٢ (٢) في تاريخ الخميس بعد ذكر مقتل عثمان كلام طويل
 في ما ادعوه عليه والدفاع عنه فلتراجع هناك

الامراء فحولنا الى بستان فيو غلات متقاربة تحتها ظلٌ كثيف فشاهدنا هناك خيولاً
وجمالاً ومعها الخدم وقد شدوها الى جذوع النخل فحولنا الى غلات منفردة في طرف
البستان جالسنا اليها واخذت العجوز نقص ما نعرفه عن مقتل عثمان وكلاهما تحاذران
ان تعلم ام المؤمنين بما يدور بينهما

فلما فرغت العجوز من حديثها قالت ام الفضل رحم الله عثمان وايد علياً فاني لا
ارى خيراً منه لولايه امر المسلمين لثرايته وعلوه وفضله وشجاعته وسبقه الى الاسلام
ولكن ابني عبد الله (عبد الله بن عباس) يعتقد انه ضعيف الرأي^(١) ولكنه مع ذلك
ينفلة على كل من يلبيها سواء وقد خاطبته في ذلك قبل عودته الى المدينة امس فرأيت
فرحاً بخلافة الامام علي

قالت وهل كان لا يزال هنا منذ جاء للحج

قالت نعم ان عثمان وهو محصور امر ان يمحج بالناس كما تعلمين^(٢) فجاء وقتل
عثمان وهو غائب ولما بلغه قتله وولايه علي مع ما يتوقعة من الخلاف بسبب ذلك
اسرع ليكون بين يديه لعله ينفعه في شيء

وتذكرت العجوز حال اساء فقالت وماذا ترين ان افعل باسماء ومرضا

قالت اظنها تشفى غداً ولا بد من شربها العسل

فقالت سأحل ام المؤمنين على ان تسقيها اياه

الفصل الحادي والاربعون

* شرب العسل *

وفيما هما في الحديث رأنا الغلمان في حركة وهم بسرجون الخيول والجبال
يهيئونها للركوب فعلمنا ان الامراء اوشكلوا الخروج من عند ام المؤمنين فهضت
ام الفضل وودعت العجوز وانصرفت على بغلة كان خادمها ينتظرها بها بالقرب
من البستان

أما العجوز فنظارت أنها إنما نزلت إلى البستان لتستقي من الشر . وفيما هي بالقرب من باب الدار سمعت جلبة ثم رأت جمهوراً خارجين من الدار معظمهم من بني أمية وعلى وجوههم سمات الضرب ولم تجد بينهم أحداً تعرفه فتنحمت ريثما خرجوا وانصرفوا ودخلت تطلب حجرة أسماء . وهي في قلق لئلا تكون قد افادت في أثناء غيابها فوجدت الحجرة مفتوحة وعد بابها خففت عرفت أنه خف أم المؤمنين فابينت أنها جاءت تنفذ أسماء . فأسرعت حتى دخلت الحجرة فإذا هي واقفة عند رأس أسماء . ولما رأتها أم المؤمنين داخله وعلى وجهها إمارات البغنة أشارت إليها بأن ناملها وشفتيها أن تمشي الهوينى وإن لا تخاف . فأبطأت في خطاها حتى دنت من أسماء فرأتها نائمة وقد كلل العرق جبينها فالتفت عائشة إلى العجوز وسألتها عن حالها فقالت أنها شعرت بالبرداء منذ خرجنا من عندك ثم أصابها الحمى كما نرين

قالت استقيها العسل

قالت جئت إليها بقدر منه (وأشارت إلى القدح) فلم تشرب

قالت هاتيه أنا استقيها إياه فإنه خير دواء . والتفت إلى أسماء فرأتها تغرك وهي تمسح العرق عن وجهها بكفيها فدنت من فراشها ففتحت أسماء عينيها ولما رأت أم المؤمنين اجملت ونهضت للحال وقد نوردت وجنتها . فقالت لها عائشة لا ترعبي نفسك يا بنية وجست بعدها فإذا هي لا تزال حارة وقد ذبلت عيناها واحمرنا من شدة الحمى

فقالت لها عائشة ألم تشربي العسل يا أسماء

قالت لا اشتبهى طعاماً يا مولاتي ولا حلواء

قالت إنما هو دواء فيؤ شفاء الناس وقد سمعت رسول الله (سلم) يقول « الشفاء في ثلاث شربة عسل وشرطة محجم وكية نار وإنه ياتي عن الكي » (١)

وزد على ذلك أنه (سلم) كان يحبة الحلواء والعسل . قالت ذلك وتناولت القدح ودفعته إلى أسماء . فتناولته ولم يعد في إمكانها إلا شربة فشربتها ولم يمض قليل حتى أحست برطوبة حلقها . وأوصنها عائشة أن تتناول شيئاً من لبن الأبل فأطاعت وبعد شرب اللبن اتعشت فجلست في الفراش . ورغبت إلى أم المؤمنين أن تمكك عندها

لأنها استشرت بها وانتدأت منذ رأتها ان تشعر بخسن في صحتها
فقالَت عائشة بل ارى ان تنزل الى البستان نستظل بالعريش لاني تعبت من
الحناء وتزاحم الناس عليّ في هذا اليوم . واظن نزولك الى هناك بفيدك
قالت اني اتشرف بمرافقة ام المؤمنين واسألهن ما هنّ . فنهضن ولما وقفت اسما
أحست بضعف قلّل شيئاً من حركتها وظهر عليها الذبول ولكنه زادها هيبه وجمالاً
ومشت عائشة امامها وهي صامته والجلال والوفار يغشيانها وسارتا في اثرها وقد
هالها سكوتها حتى وصلن البستان وهو محاط بسور من سعف النخل في وسطه عريش
مصنوع من الجريد يُستظل به وقد نصبوا فيه مفاعد من الجريد والخشب . فدخلت
وجلسن فيه وام المؤمنين لا ترال صامته ثم دعتهما للجلوس فجلستا متأدبين وفي نفس
كل منهما شيء تنكر فيه والكل يتشاغلن بما يسمعه من حفيف سعف النخل لاشنداد
الريح في ذلك اليوم

الفصل الثاني والأربعون

* طلحة والزبير *

ولم يكد يستنبهن الجلوس حتى سمعن جعيراً وصهلاً وجلبة فاقتطبت عائشة
حاجبها نطعاً لما يأتها من اخبار القادمين وما علمت ان دخل بعض الخدم وعليه
امارات الدهشة

فقالَت ما وراءك يا غلام

قال ان ركبا قادمين من المدينة وفيهم طلحة والزبير يلتمسون المتول بين يديك .
فلما سمعت اسماء ذلك بغتت وظهرت البغته على وجهها ونحزت للنهوض والعود الى
البيت لتجلبوا ام المؤمنين بالقادمين

فقالَت لها عائشة (وقد تغير وجهها) « لا أرى حاجة الى دخولك البيت الآن
واذا رأيت ان لا تحضرا مجلسنا فاجلسا وراء هذا العريش

فنهضا وتحولتا الى مفعد وراء العريش جلستا عليه وقد سرت اسماء ببقائها هناك
لعلمها ان طلحة والزبير قدما من المدينة بعدها ولا بدّ من خبر جديد جاء به او انها

جاءا في امرئهما الاطلاع عليه لعلافنو بالامام علي وهي تعلم انها بايما عليا مكرهين
فلبت مستتر يجدار العريش واصاحت بسمها وهي تنظر من خلال الجريد الى من
يدخل العريش

فامرت عائشة بدخول طلحة والزبير وارخت ثيابها وبعد هنيهة قدما وهما
لا يزالان بثياب السفر وقد علاها الغبار ومعها رجال آخرون
فدخلوا طلحة بصدرة العريض والحينو البيضاء الكثيفة مع قصر وقد ازداد وجهه
حمر من وعناء السفر ومال الى السمرة من اثر الشمس . وكانت اسما قد شاهدته غير مرة
في المدينة فلم تستغرب . وكذلك الزبير وهو يمتاز عن طلحة بخفة عضلو وقلة شعر لحينو^(١)
فدخلوا ودخل في اثرها ابناهما . فقالوا السلام عليك يا ام المؤمنين
قالت « وعليكم السلام يا اصحاب الرسول ونخبة المهاجرين وحماة الاسلام »
وامرهم بالجلوس فجلسوا على مقعد وهم مطرقون لا ينظرون اليها اجلالاً لحرمتها . فبعد
ان استراحوا خاطبت طلحة والزبير قائلة

من اين انيتما

فاجابها طلحة جثنا من المدينة

قالت كيف فارقتماها

قال « انا نحمِلنا هرباً من غوغاء واعراب وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً
ولا ينكرون باطلاً ولا يمنعون انفسهم »^(٢) قال ذلك وعلاغم الغضب تبدو من خلال
حديثه والزبير بهم بالكلام كأنه لم يكف بما قاله طلحة

فقالت كيف يقتل عثمان وانتم تنظرون

قال الزبير والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لقد دافعنا عنه باولادنا وانفسنا ولكن
الغوغاء غلبت علينا فلم نمنع قدراً واقعاً

قالت ثم بايعتم وانتم راضون

قالا بصوت واحد لم نائع الا والسيف على اعناقنا وما نحن راضون بهذه المبايعة

(١) اسد الغابة (٢) ابن خلدون ج ٢ (تبي) كل ما ورد من الاشارات الى

ابن الاثير في ذيل الصفحات الماضية من هذه الرواية اغامى من جزئه الثالث وان ورد سهواً في
بعضها انه الجزء الثاني

قالت انهضوا اذا الى هذه الغوغا . وطالبوا بدم ذلك الرجل المتقول
قلا انما جئنا لذلك

فقال وقد جاءنا ايضا عبد الله بن عامر ابن خال عثمان وعاملة على البصرة ولما
سمع بمقتلهم حمل ما في بيت المال وجاء اليها وكذلك يعلي بن منية جاء من
اليمن ومعه ستماية بعير وستماية الف درهم وقد اناخ في الابطح (١) وقد كانوا
عندي اليوم

ولم تهم كلامها حتى جاءها غلام يتيما يتدوم ابن عامر وابن منية فقالت
ليدخلا . فدخل اولاً ابن عامر وهو شاب في الثلاثين من عمره وعليه جبة حمراء (٢) ثم
دخل يعلي بن منية وهو عشي عرجاً وقد كسر فخذه في طريقه من اليمن وكان قد سمع بمقتل
عثمان فاقبل لينصر فسقط عن بعيره في الطريق فاكسرت فخذه (٣) فجاء برجاله
ومالوه . فلما دخل ابن عامر وابن منية سلما على طلحة والزبير فقال طلحة لابن منية مالي
اراك تمشي عرجاً

قال كسرت رجلي واما قادم لنصر عثمان ولكن معي المال والرجال قوموا بنا
للاخذ بالنار

فقال الزبير لهم بنا الى الشام

فاعترضه ابن عامر قائلاً ما لنا وللشام وفيها معاوية وهو يكتيكوها ولكني ارى
ان تأتوا البصرة فان لي بها صنائع ولم في طلحة هوى وم مبالون لمبايعته (٤) فقالوا فجهك
الله انك تريد الفتنة ولكن دعنا من ذلك ولنسرا الى البصرة . فتمّ الرأي على ان يسيروا
الى البصرة يدعون من بها للطلب بدم عثمان وينهضونهم كما انهضوا اهل مكة

وكانت اسماء تسمع حديثهم من وراء العريش فلما علمت بما تمّ اجماهم عليه عظم
عليها الامر ونحفت ان الفتنة واقعة لا ريب فيها فان ذلك في نفسها فاضطربت
وخفق قلبها وثارت الحمية في رأسها حتى كادت تنهم بالنهوض والدخول على
الجميع . فادركت العجوز اضطرابها فامسكت يدها فاذا هي ترتعش من عظم
الاضطراب فهمست في اذنها ان لا تضطرب لئلا تضرب بصحتها

(١) يؤخذ من التاريخ انهم جاؤوا بعد ذلك ببيعة اسابع ولكن الرواية اقتضت ذكرهم بها

(٢) اسد الغابة (٣) اسد الغابة (٤) ابن الاثير ج ٣

فقلت لا صبر لي على ما اسع و هم انما يريدون الانتفاض على الامام علي بعد ان بايعوه ورأيهم بعيني وقد بايعوا واقسموا على الطاعة فجعلت تخفف عنها وهي تغفر للقيام

الفصل الثالث والاربعون

﴿ الاجماع على الطلب ﴾

وفيما هي تهم بذلك سمعت صوتاً ارتعدت له كل جوارحها فاصفت واذا هو صوت مروان وقد دخل العريش وقبل ان يلقي النجبة خاطب طلحة والزبير قائلاً وهو يصحك « على ايكما اسلم بالامارة واؤذن بالصلاة » (اي ايكما سيكون امير المؤمنين)

فاجابه عبد الله بن الزبير « على اي » (يعني اياه الزبير) فاعترضه محمد بن طلحة وقال « بل على اي » (يعني اياه طلحة) ^(١) فضحك مروان وقال بل اجعلوا الخلافة في ولد عثمان لانكم انما اخرجتم تظلمون بدمي . فقال طلحة كيف تدع شيوخ المهاجرين وتجعلها لابنائهم . فقال وهو ينتم « لا اراني اسى الا لاجراجها من بني عبد مناف » ^(٢) قال ذلك ولم يسمعه احد ولكنهم تهنوا ما في ضميره فابتدرته ام المؤمنين قائلة « أتريد أن تفرق امرنا بامرؤان ليصل بالناس ابن اخي » (تعني عبد الله بن الزبير)

فلما سمعت اسماء كلام مروان لم تعد تستطيع صبراً وخصوصاً لما رأت عائشة تنهز . فنهضت واسرعت الى العريش واختزلت الجمع وهي ترنجف وقد امتنع لونها فلما رآها الناس بفتوا لجسارتها وكان طلحة والزبير يعرفانها فهتوا جميعاً ولم يتكلموا اما هي فوقفت بقلب لايهاب الموت ونظرت الى مروان وقالت « اما كمالك يا مروان ما الفينة من الفتنة في المدينة اما كمالك انك سببت مقتل الخليفة حتى جئت تلقى الشقاق بين بقية الصحابة والله لولا حرمة ام المؤمنين لمدرت دمك بين يديها الا نرجع عن عمك حتى تهلك المسلمين بالفتنة ويقتل بعضهم بعضاً » قالت ذلك

وصوتها برنجف ولما فرغت من كلامها حولت وجهها الى أم المؤمنين لترى ما يبدو منها فلما سمع التوم كلامها لبثوا جميعاً صامتين وهي ترتعد وتجلد فاجابها مروان وهو يضحك وقال « تقولين اني قتلت الخليفة ولم يقتله إلا صاحبك محمد ربيب علي وسوف يلقى كل منهما جزاء ما جتته يداه »

فقالت « لا تذكر ان ابي بكر شقيق ام المؤمنين ولا تلتفظ باسم ابن ابي طالب امير المؤمنين والله لو انة بيننا الآن لتلعثم لسانك ولا اقول قتلك لانه لا يلوث حسامة بدمك »

فأراد مروان ان يجيبها فاسكتته ام المؤمنين قائلة « اذكر اخي محمداً يا مروان اسكت . وانت يا اسماء خفي عنك انك مريضة لا تهيجي دمك اذهبي الى فراشك » وكانت العجوز واقفة بجانبها فامسكتها بيدها وخرجت بها من العريش وهي تكاد تقع لثقل ارتعاشها . فلما خرجنا من البستان صاحت اسماء بالعجوز قائلة اخرجي بي من هذه المدينة اني لا استطيع البقاء فيها قالت والى اين نذهب يا ابنتي قالت سيدي بي الى يثرب

قالت كيف نذهب وماذا نفعل نام المؤمنين اذا افتقدتك ولم تجدك قالت لا ادري ماذا نفعل ولكنني لا استطيع البقاء هنا ولا بد لي من الذهاب الى المدينة

قالت لا نستطيع الذهاب اليها الآن قالت اذهبي بي الى منزل آخر غير هذا المنزل قالت اتذهبن الى ام الفضل قالت هيّا بنا اليها . قالت ذلك وتناثر الدمع من عينيها لشدة غيظها وكانت العجوز قد عرفت منزل ام الفضل فسارت بها اليه فلما اقبلتا عليه استقبلتهما ام الفضل باثثة وقد استغربت مجيئها مع ما في وجه اسماء من اثر الضعف وظواهر الاضطراب

اما اسماء فلم تكد تصل المنزل حتى عاودتها الحمى واصابها الدوار فالتصت الاستلقاء على مصطبة امام البيت فدعتها ام الفضل الى الغرفة فأبت فانتها بوسادة

وغطاء فلم نشأ الرقاد وقالت وقد تورّدت وجنتها من شدة الحمى « انقلوني الى المدينة احملوني الى الامام علي لاخبره بما تأمر به الناس عليه . . . انهم نواطوا و على الطلب بدم عثمان . ولوانهم التمسوا ذلك من قاتله لعذرناهم ولكنهم بتمسونه من الامام علي وانا اعلم الناس ببراءة ساحنو » قالت ذلك وهي لا تتالك عن البكاء اما ام الفضل فاستغربت قولها وشقّ عليها عظم تأثرها وخافت عليها عاقبة ذلك وثافت لسامع الخبر فقالت ما الذي حدث بعد خروجي من عندهم

فقصّت العجوز عليها ما جرى في العريش
فأجملت ام الفضل وصاحت وبلاء لقد عظمت الفتنة لبيت عبدالله (ابنه عبدالله
ابن العباس) لم يذهب بعد لا كلمة حل هذا الخبر الى عليّ

فصاحت اسماء دعوني امضي بهذا الخبر بنفسي دعوني اسير للجهاد دفاعاً عن
المتهم زوراً ان عليّاً يا قوم بريّ من دم عثمان فكيف يطالبونه به

فقالت ام الفضل دعي هذا اليّ فاني مرسله رسولا الى علي بكل ما وقع . قالت
ذلك ودعت بعض الخدم فجاءها برجل من جهينة يدعى ظفر استأجرته ان يحمل
كتابها الى علي بالخبر (١) فركب جهينة وسار واساء نشيعة بنظرها وهي تود ان تكون
على رحلو وارادت ان تحمله كلاً الى محمد فتمنعها الحياء على انها عوّلت على اللحاق
به حالما تنارقها الحمى

فلتركها في حالها ولترجع الى المدينة لتري ماذا تم لحمد بعدها

الفصل الرابع والأربعون

❁ تفريق العمال على الامصار ❁

تركنا محمداً وقد ودّع اسماء عند ركوبها الى مكة وعاد وفي نفسه شيء لا اقلق
راحته لا يدري ما هو وقد فاته ان يسهم الفراق . ولما هو فقد كان يحسب قلقه ما
يجافه من مناظر على اسماء ولو كان مناظر غير الحسن بن علي لما ن عليه

الخلاص منه . ولم يكن يخاف حسناً لانه ابن امير المؤمنين ولكنه كان محبة كثيراً وقد ربا معاً في حجر الامام علي . ففضى مسافة الطريق وهو غارق في لجج الهواجس . وما زاده قلقاً ارساله اسما على هذه الصورة وقد شغلته الغيرة قبل سفرها عن تدبير الامر حق قدره . فوقع في حيرة لا يدري ما يجيب به الحسن اذا سأله عن اسما . ولا كيف بعندرا وينقل سبباً لسفرها وشعر اساعده بنقل المحب وشدة سلطان فحول نظره الى الطريق الذي سارت فيه اسما فاذا هي قد توارت عن النظر فحدثته نفسه ان يبرج الى مكان يقضي فيه نهاره قبل الذهاب الى منزل علي مخافة ان يظهر حالة عند ملاقاته الحسن وهو لا يزال مضطرباً . ولكنه لم يجد عذراً لتخلوه يومئذ والناس يتألبون جماعات ووحداً من كل صوب يأمون منزل الامام علي وهم بين أمل وخائف وناصر وناعم . وقد علم محمد ان علياً بايعه الناس وفيهم من يضر السوء ففضى برهة تنفاذفة الهواجس وهو يشي فلم يشعر الا وهو يباب الامام علي فرأى الناس قد تكاثروا حوله والخبول في بستانه والجمال معقولة الى جذوع النخل والخدم والعبيد وقوف بينها . فنذكر هول ما يشغل علياً وبنوه في ذلك المحين من مهام الخلافه فهان عليه مشاغلته الحسن في تلك الشؤون ريثما يرى ما ينتهي اليه الامر . فدخل الدار وهو يلتمس والدته وقد عول على مكاشفتها بما في نفسها لعلها تعينه على ما يقفوه . فدخل حجرها فاذا هي جالسة وحدها ولوائح الاهتمام تلوح على وجهها ولكنها حالماً رآته هتت له فحيها فرأت في وجهه انباضاً فابتدرته قائلة ما لي اراك منقبض النفس يا محمد

قال وهو يغالطها ما في نفسي شيء غير ما نحن فيه

قالت وماذا جرى هل انت خائف من مصير هذه الخلافه

قال لا اقول اني خائف ولكنني ارى المركب خشناً فان طلحة والزبير لم يبايعا الا كرهاً والكوفيون والبصريون على رأبها فأخشى ان يدعوا الناس الى نقض المبايعه قالت لا تخف من ذلك فقد تم الامر لاني الحسن وحوله نخبة من الصحابة يشتدون ازرة فاذا احسنوا الرأي في مشورته استقام له الامر باذن الله

قال لا بفرتك كثرة العدد وفيهم من يضر غير ما يظهر . . . آه ليت ابن خالتي عبدالله هنا (عبدالله بن عباس) فان له رأياً سديداً وهو ابن عم امير المؤمنين

قالت العلة لا يزال غائباً في مكة منذ سار البها
قال نعم
قالت ولكن لنا بالمغيرة بن شعبة خير مشير وقد بلغني انه دخل على امير المؤمنين
اليوم ولا يزالان في خلوة منذ الصباح لا ندرى ما دار بينهما
فقال ان المغيرة يا اماء من خيرة الصحابة اصحاب الرأي والدهاء ولا يخفى عليك
انه احد دماء العرب الاربعة
قالت ومن هم الثلاثة الآخرون
قال هم معاوية بن ابي سفيان وعمر بن العاص وزبيد بن ابيو^(١)

الفصل الخامس والأربعون

* المغيرة بن شعبة *

ولم يتم كلامه حتى سمع وقع اقدام خارج انجمن عرف انهما خطوات الحسن فبغت
ولكنه نظاهر بالاهتمام وقال هذا اخي الحسن فلدعه لعله يجبرنا بما دار بين الامام
علي والمغيرة
قالت ادعه فخرج محمد ليدعوه فاذا هو داخل فابتدره محمد بالسلام . فحياه
الحسن ولم يزد على السلام شيئاً . فانشغل خاطر محمد مخافة ان يكون في نفسه شيء .
فقال له اهلاً باخي ان امير المؤمنين لقد كما في حديث هذه الخلافة ونحن في شوق
لاستطلاع ما دار بين مولاي ابي الحسن والمغيرة
فجلس الحسن على وسادة بالقرب من الباب وتشاغل باصلاح عامته ولم ذبل
قنطاروه وزر رأسه ولم يحب
فازداد انشغال خاطر محمد وظهر الاضطراب على وجهه فتقدم نحوه وهو يتجاهل
والخ عليه ين بطلعه على جليلة الخبر وهو يخاف ان يسمع منه لوماً او عناباً بشأن اسماء
فاذا به قد زفر زفرة شديدة وقال تسألني عن حديث المغيرة وهو حديث ذو شجون
قال محمد وما ذا عسى ان يكون

قال « ان المعيرة صاحب رأي وحرم ولكر والذي لم يصغ اليه فقد سمعت كلامه واعني رأيه وكن امير المؤمنين بحرية مكة وقولوا . بضعه على ما اراد وان يكن رأيه الصواب وهو من اعظم دهاء هذه الامة »

فقال محمد (وقد ارناح باله من قبل اسما) وما هو الرأي الذي رآه
قال انت تعلم يا اخي ان بعض الناس ما يعونا على دخل (يريد طغمة والبربر) ولا يخفى عليك ان حواء ليس من اهل المدينة ولا من اهل مكة وانما نحن خاشعون من عمال الامصار في مصر والشام والكوكة والبصرة واشد هؤلاء طغمة واكثرهم عداوة لما معاوية بن ابي سفيان في الشام وهو كما تعلم ان عم عمان وكان من اكبر اعدائه وكذلك ابن عامر في البصرة وهو اس حال عمان

قال محمد نعم

قال فاشار المعيرة على والذي ان يعني عمال عمان هؤلاء على اعلمهم ليري ما يكون بعد ان يستقيم لما اذمر فاني والذي عليه ذلك وقال كلاً ولما رآه مصرّاً على رأيه قال له « اعزل من شئت وانك معاوية فان فيه جرأة وهو في اهل الشام ولك حجة في اتايه وكان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام قبل عثمان » (فاقسم والذي انه لا يستعمل معاوية يومين فخرج المعيرة ولم يرد حرفاً

فقال محمد انظرن المعيرة مصيها

قال نعم انه رأى الرأي الصواب لان سكوننا عن معاوية ورفاقه يسكنهم ربنا نرى ما نأول اليه الحال

فقات اسما أم محمد نهيل ربنا بأني ابن اخي عبد الله بن عباس فانه لا يلبث ان يعود من مكة والامام يصغي لكلامه

قال الحسن لا اظنه مصغياً لاني آست منه اصراراً شديداً فلنصر لعل ابن عباس يتغلب عليه قال ذلك وسكت هدية بكم ثم استطت اسرته فغته كأنه تذكر امراً سره وقال وهو ينسب ان اخلافة ومشاكلها شغفتني عن امر آخر ذكرته لك تلججاً وكنت عازماً على مخاطبة والذي هو اليوم فامسكي عن ذلك اشغاله بالمعيرة وحديثه

فادرك محمد انه يريد خصة اسماء فكادت الغنة تظهر على وجهه ولكنه نجاهل
وقال وماذا عسى ان يكون ذلك الامر يا اخي
قال لا اظنك تجهل ما في سبي عن اسماء تلك الغناء الاموية التي نزلت عندنا .
(وحوّل وجهه الى ام محمد ... وقال) انها يا خالي بارعة في الجمال وفي وجهها
مهابة بندران نري مثلها في النساء .

فارتك محمد في امره لا يدري بماذا يجيب ولكنه تجلد وقال وهو يتظاهر بعدم
الاكتراث لماذا لم تقل لي ذلك قبل سفرها
فغبت الحسن وقال الي ابن سافرت
قال سافرت الى مكة في صاچ هذا اليوم
قال وكيف وما الذي حملها على السر ومن سافر بها وهي وحيدة
قال انها سافرت مع عجوز من ذوات قراني ورجل من بني الليث من اخوال
اخوتي ام المؤمنين

فاقطب الحسن وجهه وقد استغرب ذلك وقال وما الذي حملها على السفر
قال سمعتها تقول انها تنصل العد عن المدينة في اثناء هذا الاضطراب وطالما
كانت تود التعرف بام المؤمنين فاظلمها سارت لتقضي عندها بضعة ايام ثم تعود
فاطرق الحسن مدة بكرة ثم قال لا بأس من ذهابها الآن وسأغتنم اول فرصة
يملو بها والدي فاعرض عليه خطبتها لي فاذا لم تكن قد جاءت بيعت في استفادتها .
قال ذلك وخرج

وظل محمد جالسا وقد علته الغنة وامتنع لونه فلاحظت والدته فيو ذلك فقالت
يظهر لك اهتمامت بحديث الحسن

فتنهّد ولم يجيب

فقالت مالك لا تحجب

فتردد بين ان يكشف لها سر او يظل على كهانه واكنه لم يعد بسطيع صرا على
الكتمان فقال لقد همى الامر اكثر مما نظنين

قالت ولماذا

قال ان الغناء التي ذكرها اخي الحسن مخضونة

قالت ولن
 قال لي
 قالت ما نقول . . .
 قال هذا هو الواقع
 قالت وكيف يطلبها هو لمسه
 قال لانه لا يدري ذلك
 قالت ولماذا لم تحبني محضتها قبل الآن
 قال عرمت على ذلك وحننت بها اليك فلم احبك
 قالت وما العمل الآن
 قال لا ادري وساصر قال ذلك وحرقت اسماها
 قالت انكدر اخاك الحسن من اجالها
 قال معاذ الله ان اكدره وابت تعلمين حي لاه وآبي سارى ما نأتى به القدر
 ثم خرج وقد اخذ الفلق منه ما خذا عظيماً

الفصل السادس والاربعون

✽ عبد الله بن عباس ✽

ومضت اياماً والحسن يترقب فرصة بحاطب بها والدك بشأن اسماء فلم ير الى ذلك
 سبيلاً لاشتغالهم جميعاً في تدبير العيال وتقلب الاحوال . فان الامام نأياً ما مرج منذ
 ولي الخلافة لا يهدأ له نال وعمال الا صار اكثرهم باقمون عليه ولعنه لو اطاع المعيرة
 لحف شتاً من نفهم ولكنه اصر على استئصالهم تعالى من يثق بهم وبامانهم من رجاله
 وكان احسن فوق ذلك الاشتغال هائلاً مفاتحة والدك مامر الخليفة وهم في تلك
 الشواغل لئلا يجيل له انه انشغل بالحرب عن الخلافة فلاح له ان ينتظر محي . عبد الله
 ان عباس فبوسطه في الامر لما يعلم من دالوعى والدك وذكر ذلك لعمد من ابي
 بكر فلم يحبه ولكنه قلنى وزادت غيرته . فلما سمع محمد يحي . عبد الله بن عباس اراد ان
 يشغله بمحدث الخلافة عن الماوضة بامر الخليفة فاسرع اليه قل ان يعلم الحسن بمحيته

واسأله عما كان من حدث المذبة وشعنة وما اثار به على الامام علي الى ان قال
وقد كما في اسطار محبتك لعلك نمي الامام عن عزمه فقد اصر على خلع عمال عثمان
وهم كما ترى غير راضين ولم احراب وخصوصاً معاوية

فقال عدا الله ان المعذبة وانته مصيب وسعة الرأي رآية

فقال محمد وهذا الذي براه جميعاً في العمل

قال ابي داهب الى عبي الساعة . قال ذلك . وحيث وقد فقه الامر كبيراً لانه

كان شديد الغيرة على الامام مع قرائته من الرسول والامام

وكان في حدود الاربعين من العمر . حويل النوح . ارضه من مشرباً صنفه جميعاً

وسباً صبيح الوجه . فصيح اللسان . وكان اعظم الناس باحبيت والشعر والعربية

سيد الرأي عالم بتفسير القرآن . وكان عمره . ثلثون سنة . الامام لم يدرك احداً من

اهل زمانه ما ادركه من كل ذلك . فلما سمع ذكر محمد سارع الى عمارته وحنو

وسار يهرع الى منزل الامام . ومحمد يتبعه ومعه بكر . وتبع اسرعه في الذهاب

الى عبي هذا المقدر

فوصل الى اندرونا المعذبة من شعنة خارج من حجرة الامام علي وكان في

خوة معه . فقال عدا الله محمد راء حاء . فاما ام هذ هي خوته التي ذكرتها لي

قال بل هذ غيرها ولا تدري ما حاء

وبها هي ذلك حاء المحرم وكان داه في شأن ولما رأى عدا الله نعت ووقف

وسلم عليه ودعا للنسوس في حجرة وهو . يدس ذكر له امر احاطة فراه في شغل

آخر وقد اسرع الى حجرة الامام علي ودخل هو ومحمد في شغل

فلما اقبل عدا الله على الامام علي حاء . حيا . الحزقة قاتلاً السلام عليك يا امير

المؤمنين . وكانت هذ اول مرة . ما بعد احلاوه . فرد على الحية عليه ورحب به

وقل وعليك السلام يا امير المؤمنين . ول ذلك والانسان ظاهر على

وحبه . كما كان في حبل عصف . ثمضى عدا الله حتى جلس الى جانه . وجلس الحسن

ومحمد في بعض حجاب الفرفة والحسن يرى في حطرا ان عمارت تيقنا وكان يود ان

بجوهه بل دحوه على والده

الفصل السابع والاربعون

﴿ علي وابن عباس ﴾

وبعد ان جلسوا هيبه وكل بيكر في امر يهيه قال ابن عباس رأيت المغيرة خارجاً من عندك فهل جاءك رأي جديد واني اعند دواءه وسداد رأيه
قال علي وقد كنت اعتمد ذلك فهو حتى جاءني منذ ايام بشير علي ان اقر معاوية وسائر عمال عثمان على اعدائهم . وانت تعلم انهم كانوا من اعظم المقاومين لنا والفتنة انما قامت والتحلية عمان رحمته الله انما قبل بسبهم فكيف انقذهم . فأبيت الا اعلم فنفذم الي ان اتني معاوية فقط على الشام فأقسمت اني لا استعمله يومين فخرج من عندي يومئذ وانا اعرف فيه انه يود اني محذو . ثم عاد الي الآن فقال لي « اني اشترت عليك اول مرة بالذي اشترت وخالفتني فيه ثم رأيت بعد ذلك ان تصع الذي رأيت فتعلم وتستعين بمن تثق به فقد كفى الله وهم اهون شوكة ما كان » فاعطني رجوعه الي رأيي ولما سمع ابن عباس كلام الامام يسلم وقال . نظن يا ابن عبي ان المغيرة قال في هذه المرة ما يعتقك

قال علي وماذا اذن

قال « اعلم يا امير المؤمنين انه في المرة الاولى تصحك وفي هذه المرة عشتك لان معاوية واصحابه اهل دينا متى تنته لا يبالون من ولي هذا الامر ومتى تعزلهم يقولون اخذ هذا الامر بغير شوري وهو قتل صاحبنا (عثمان) ويؤلون عليك فتنتفض عليك الشام واهل العراق مع اني لا آمن طلحة والزبير ان يكررا عليك . وانا اشير عليك ايضاً ان تشمت معاوية فاذا تابع لك فعلي ان اقلعه من منزله () » وكان ابن عباس يتكلم وعلي مطرق وهو مضطرب الوجه وقد اقلعه ذلك الامر كبيراً . واما الحسن ومحمد فكانا يسمعان كلام ابن عباس وقلباها يرقصان فرحاً على امل ان يقتنع الامام علي باقرار معاوية خوفاً من الحرب . فلما فرغ ابن عباس من كلامه لئلا ينتظران ما يقول علي فاذا هو لا يزال مطرقاً غافلاً والسكرت ساند في تلك المحجة لا بدأ احد

كلام حتى لقد مجاذر احدهم اذا فاجأه السعال ان يتخفق . وبعد هنبهة رفع الامام علي رأسه ونظر الى ابن عباس وبنه علي فقبضة سينه وقال « والله لا اعصيه الا السيف » (١) ثم رد بنه الى الحينيه وحمل يمشيها مائعا به ويقول

وما مية ان مشيها غير عاجز * بعار اذا ما غالت النفس غولها

فلما سمع ابن عباس كلامه ورأى ما بدا على وجهه من امارات العصب هاب مدبره ولكنه شق عليه ان يسير الامام على ذلك الرأي لعلو بما يتوقعه من عواقب الامر وكانت له دالة ووحدة عند فقال له « انت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب اما سمعت رسول الله (صلعم) يقول الحرب خدعة »

فقال علي « بلى »

قال « اما والله انني اطعني لاصدرهم بعد ورد ولا تركهم ينظرون في دبر الامور لا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك ولا اثم لك » . وما فرغ من كلامه حتى ادى العرق حبيبه حبيبة وعينه ولكنه لم يكذب فرغ حتى اتدبره علي قائلاً « يا ابن عباس لست من ههناك ولا من ههنا معاوية في شيء »

قال ابن عباس « اضعني والحق بهالك ينع واعني مارك عليك فان العرب نجول جولة وتصطرب ولا نخذ غيرك فارك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليجعلنك الداس دم عثمان غداً »

وكان ابن عباس يتكلم وملازم وجه علي وحركاته تدلان على انه غير مفتنع فلما فرغ ابن عباس من كلامه قال له علي « تنذر علي واري فاذا عصيتك فاطعني » فقال ابن عباس وهو يجي رأسه خللاً « اعمل ان ايسر ما لك عدي الطاعة » فقال علي « تنذر الى الشام فقد وليتكمها »

قل ابن عباس « ما هذا رأي فان معاوية رجل من بني امية وهو ابن عم عثمان وعائلة ولست آمن ان يصرب عني فمة لعثمان وان ادنى ما هو صانع ان يحسني فيحكم علي لفراني منك وان كل ما حمل عليك حمل علي ولكن اكتب الى معاوية فمة وعده . . . » ففطع علي كلامه قائلاً « لا والله لا كان هذا امداً »

فسكت ابن عباس ولست صامتاً ربه ثم استأذن وخرج وخرج في اثر الحسن
ومحمد وكان علي رؤوسهم الطير . اما علي فامر للحال في اعداد عماله الى الامصار فبعث
عثمان بن حنيف على الصرة وعماره بن شهاب على الكوفة وعبيد الله بن عباس (اخا
عبد الله) على اليمن وقيس بن سعد على مصر وسهل بن حنيف على الشام

الفصل الثامن والاربعون

﴿ خلاف معاوية ﴾

وقضى علي في ذلك اياماً لا يحلو مجلسه من الامراء للخص في هذه الشؤون فلم
ير الحسن سبيلاً الى مفاتحه في شأن اسماء على انه هو من كان في شغل عظيم من تلك
الامور . فلما فرع علي من نريق العمال وقتل ورود الناس على ما رأى الحسن ان
يحاط به في الامر وكان يطلع محمداً على ما يبويه ولا يعلم ما في خاطره من امر اسماء
وكان محمد اذا خاطبه الحسن في هذا الشأن حدثه به ان يطلع على ما بكم صديق
ولكنه امسك عن ذلك مخافة ان يكدر الحسن وهو يحبه جداً شديداً . فقصى ايماً
واسامع لا بدري ما ذا يعمل وكان اذا فاتحه الحسن في عزمه على محاطة والذ في
الامر سكنت او غير الموضوع

في ذات يوم جاء الحسن الى محمد وكان خارجاً من حجرته الى المسجد وقال له
ارى والدي قد فرع من ارسال العمال الى الامصار ولا ارى وقتاً يصلح من هذا لمخاطبته
شأن اسماء ولكني ارجو ان تساعدني او تكلمه عني شأنها

فاحذر محمد في امره لا بدري ما يحبه وقله ينفذ غيره ولكن حبه الحسن علب على
ما يحشاه الناس من عوامل الغيرة وعظم عليه الامر ولم يجب على انه تشغل بالنظر
الى الافق كأنه يرى شيئاً . فقال له الحسن ما رأيك باخي ما مالك لا تخبرني هل
اكمل والدي او تكلمه انت عني ما مالك لا تخبرني

فظاهر محمد ما شغاله نشع براه خارج سور المدينة وتطاول بعضه كأنه
يتأمله ويتفرس فيه وقال اي منشغل به جان اراه قادمًا بسرعة البرق نحو المدينة

وكان في رسول

فالتفت الحسن فرأى هجاءاً مقلداً عن بعد ولحنه م يتيهه جيداً

فقال ومن هذا الرسول يا نبي

قال محمد (وقد سرّ لتغيير الموضوع) الى . الحق يقال لا ارى رسولا قادماً اليها
الا وانا أخاف ان يأتيها بحر سوء . ولا اخل العمال الذين ارسلهم امير المؤمنين الا
راجعين التهنئي احاراً الله من عواقب التهمة

فقال الحسن ومن اين نطق هذا الرسول قادماً

قال بحبل لي من حفة مسير الى قادم من الشام فلعنه رسول معاوية وماذا رحو

من رسول يأتي من معاوية

قال الحسن دعنا بلاقبو وسأله عن هو

قال محمد هلم بنا وادنا كان رسولا من معاوية فالامر اما انتهى الى السلم واما

الى الحرب لان امير المؤمنين كتب اليه منذ ثلاثة اشهر ' ' ' ولا يدري ما يكون

جوابه قال ذلك ومشيا وكتب الرسول مد دخل المدينة فلما دنا منها من سارية فاذا

هو رجل من بني عمن تدل قياضه على انه من اهل الشام وقد التفت العلماء وتلثم

بالكوفية وعلاء العمار وتعب حمته لمجاهدته في سوقه تعجلاً لوصول وعما لامن لانه حانما

دخل المدينة مد يد الى جيوبه واخرج طوماراً وهو صخرة محوطة قدس عليها من اسننها

ورفعها والناس يتبعونه وهم يظنون الى الطومار فاستوقفه محمد قائلاً ممن است

قال رسول من معاوية س الى سيمان

قال الى من

قال الى امير المؤمنين

قال الحسن وماذا تحمل اليه

قال هذا الكتاب وشار الى الطومار

فقال سر الى امير المؤمنين انه في داره . فسار وسارا في أنحر وهما في شاعل بما

قد يكون في ذلك الكتاب ولولا حرمة امير المؤمنين لنضاً انتم نشوقاً للاطلاع

على ما فيه

ووصل الرسول الى دار علي واشتعل بعقل حمّو فسمّنه محمد والحسن الى الحبيبة وكان متكئاً في حجرته فاسلمه قدم الرسول فلما سمع خبر جنس وقد همة امر واستندمة اليو

فدخل ومعه جمهور وعي جالس ومحمد والحسن وغيرها من الصحابة بين يديه فقدم الرسول غير هائب ذلك المجلس وقد رفع الضومار بينهم بعض الوقوف ان يتساوله ما في آء ان يسلمه الامام علي بين

مد الامام بين وتناول الضومار فترا على طاهره « من معاوية الى علي » فنص الختم وفتح الضومار والباس صامتون لما سبى عليهم فلم يجد فيه شيء فغمت وطهرت الغنة والعصب على وجهه وانتبت الى الرسول وقال له « ما وراءك » قال « آمن انا »

قال « نعم ان الرسول لا يقتل » قال « تركت وراثي قوماً لا يرسون الا بالنفود » قال علي « من »

قال « من حيط رقبتك وتركت سنين الف شبح تنكي نحت فيص عثمان وهو مصوب لم قد السوء مير دمشق »

فضر علي اليو نصر اذ شعرباب والدهشة وقال « أمي يطلبون دم عثمان . اللهم اني ارا اليك من دم عثمان قد نحا والله قتله عثمان الا ان يشاء الله » قال ذلك وحول وجهه عن الرسول كأنه لم يعد يستطيع ان يراه وأشار اليو ان يخرج فقال أخرج ولما آمن قال « وات آمن » فحول الرجل يريداً الخروج فاعتصمه بعض رجال علي وفؤوا يقتله فصاح بهم علي ومعهما العسي وهو لا يصدق

وأشار الامام بعد ذلك الى الناس فخرجوا وخلا ما ولاده ومعه محمد بن ابي بكر وبعث الى عبد الله بن عباس وقال لم « قد سمعتم ما قال معاوية فلم يبق ثمت مد من القتال فنبهاوا » فقالوا بصوت واحد انا معك اني سرت وما ننسدا اليو فأنما طوع امرك محمد جدداً دفع لواءه لمحمد بن الحنفية اخي الحسن من ابيه وولي عبد الله بن عباس بميمته وعمر بن ابي سلمة ميسرته . وثناقل اهل المدينة في بادى الراي ولكنهم اطاعوا اخيراً (٢)

(١) ابن الاثير ج ٣ (٢) اس حادون ج ٢ (٣) اس لاثير ج ٣

وقضى عليّ أياً ما في اعداد المعدات ومحمد والحسن في مقدمة العاملين . اما محمد فلما تحقق وقوع الحرب وتجهيد الجند ولم يتقدمه امير المؤمنين للقتال صغرت نفسه وتذكر انه من رأى قتل عثمان فهو أولى بالمسير الى الحرب فذارت في نفسه نار الحمية ولم ير لها شفاء الا بالمسير الى القتال فسار الى عليّ يطلب اليه ارساله في تلك الحملة . وفيما هو سائر تذكر اسما . وبعدها وهو لا يعلم ما جرى لها تحدثتة نفسه ان يتقاعد عن المسير الى الحرب وهو لم يتتدب اليها . ولكنه لم يكده يتصور ذلك حتى اعترضه وجوب الدفاع عن علي لانه كان في جملة الذين حرّوا عليه ذلك الثار

الفصل التاسع والاربعون

﴿ حرب أخرى ﴾

وما زال سائرا حتى دخل على عليّ مرآه يحضر في عرفته ذهاناً واباناً وليس في الغرفة سواه . ورأى في يد رقيقة يتأملها ويعبد تلاوتها وقد أخذ منه القلق مأخذاً عظيماً . فهاب الدخول عليه وظل واقفاً عند الباب يتردد بين ان يدخل او يعود ولمحه عليّ فاداه فدخل وحياء فرد التحية وهو مقطب الوجه . فهمّ محمد بمنأخيه ولكنه ترص عساه ان يسمع منه حبراً جديداً . فصره صيحة وعليّ يحظر في ارض الغرفة حتى وقف الى نافذة من نواحيها واخذ يضر الى الافق وهو عارق في بحار التأمل ثم حوّل وجهه الى محمد بفتة وقال « ابن هو الحسن »

قال لا ادري يا مولاي لعله في المسجد فهل من امر افضيه لاميير المؤمنين
قال ساطط لك على ما حدث ولكن ما الذي حثت به اني ارى في وجهك خيراً
قال انما جئت التمس من سيدي ابي الحسن ان يساويني ماهل الثقة من رجاله
قال وما ذا نعي

قال اعني انك امرت الناس بالتأهب للحرب وعينت القواد والامراء ولم تأمرني
بالمسير معهم ولما اولى منهم بهذه الحرب
فتبسم الامام عليّ تسماً بمارجه فقل وقال بورك فيك يا ابن اول المخلوء لآت

عدي كأحد أولادي ولكنني اسذت سيمك محمداً (ان الحسية) في هذه الحملة
واسميتك لمهمة اخرى

قال اني طوع ارادتك واراني مع ذلك . كنت ماحتمال جيهده هذه الحرب أكثر
من سواي

قال لا تستعجل يا بني المت - تلافى طريقاً يسير فيه الى حرب اخرى لان
الطرق كثيرة

فتوسم محمد من وراء ذلك امراً مكتوماً فقال ومادا يعني مولاي بالحرب
الاخرى وهل حدث ما يدعوا الى حرب

فانني علي تلك الرقعة ابدي وقال اقرأ هذه الرقعة التي اتيت الساعة فانها
تبيئك بالخبر اليقين

فتساووا محمد ونظر فيها فادا هي كتاب ام النصل من مكة تنبئ الامام علياً
باجتماع طلحة والزبير وام المؤمنين علي الملب بدم عثمان وانهم تهبوا للسير
الى مصر

ففت محمد وتلا الرقعة ثانية وثالثة وهو لا يتكلم . ونحوّل علي الى مصحف علي
مصنعة امامه فتساولة وحمل يقات في صفحاته

ف اراد محمد ان يكلمه فراء يقلب صفحات القرآن ففت صامتاً وقد هاله
ما احاط بهذه الحلافة من البلاء وتذكر اخنوخ واسماء عندها

ومما هو بذكر نحوّل علي اليه ويد سواك يتشاعل به وهو يقول " ارايت يا محمد
ما عملت ما اخنوخ "

فقال محمد اني لا أعجب من عملها ولا كاد اصدق انها نعمة . الم يعلم امير المؤمنين
شيئاً غير ما في هذه الرقعة

قال ألا يكنينا ما فيها

قال وما الذي حملهم على ذلك

قال أنسا لني يا محمد عن السب وقد اسأتم بين العواقب قبل حدوثها . كم
قلت لكم دعوا هذا الرجل وشأنه لا تقتلوه لان قتله سيكون سبباً لفتنة عظمى لطمع
بعضهم في الخلافة لاسمهم فلو ظل عثمان حياً لم يكن تمت ما بيعت على هذه الحروب

وقد بايعوني وأما أعلم أنهم يضررون غير ما يظهر من فان ظلمة والزبير يريدانها كل منها لنفسه دون سواه فهما في انقسام عليها ولو اتحدا في مقاومتني . وسترى اذا هما غلبا علياً ان الحرب ستقوم بينهما حتى يبي احدهما الآخر و يقتل الآلاف من المسلمين ولو أعلم ان تنازلي عن الخلافة ينجح الفتنة لشاركت عنها . مد اليوم . ولكني أعلم انها تصعب بعدي فوصي كل منهم بتضليلها لنفسه . ماهيك عن معاوية في الشام وما في خاطري من الطمع في هذا الامر ولا يغريك ما يدعيه من السلب بدم عمان وهو لو فهم امره لصنع قبل ان يقتل . ولكنك اتحد قنله ذريعة الى الناس الخلافة لنفسه مع تلمه اتي اولي الناس بها . فالغيرة على الاسلام وحدها تدعوني الى الدفاع عن خلافتي لعالمهم يجمعون على بيعتي فنجحد الفتنة . وأما خروجهما من يدي طوعاً او كرهاً فانه يدعو الى فتنة عظمي اختي ان تنصي على الاسلام والعباد بانه

ولم يكده علي بن كلابه حتى تنظر العرق من جبهته على الحيتو واحمرت عيانه وتناثرت منها دمعان اختلطتا بالعرق وتحت في وجهه ملايح تشف عما قام في نفسه من الغيرة على الاسلام وتعاظمت هيبته حتى لم يعد محمد يستطيع النظر اليه تهيماً من غضبه وخجلاً من سسلاته كان في حمة الدين يرون قتل عثمان . فلبت رهة صامتاً وعليه مسح العرق عن جبهته ويصه عن الحيتو

وبعد السكوت رهة قال محمد يظهر يا مولاي اب اختي لم نعم لهذا الامر الا مدفوعة بغير نصيحة والزبير فقد حرجا من المدينة عاصين واني لأرجو اذا لقينها ان احوها عن عزمها . ولكني لم افهم الحكمة في مسيرهم الى البصرة دون سواها قال اظنهم رأوا اهل المدينة بايعوني فاستمهلوا اهل مكة على نقض البيعة وساروا يفعلون مثل ذلك في البصرة والكوفة

قال محمد وهل سألت الرسول عن تنصیل الامر

قال لم اسأله الا قليلاً

فقال انا اذن لي ان اكلمه واستنهم عن التنصیل

قال لا اتق انه يعلم تنصلاً ولكني اري ان اشتدك للمسير الى مكة نستطلع سر الامر سسك واست اولي الناس بذلك لان اخلك ام المؤمنين في حمة الثائمين و سر محمد هذه المهمة سروراً عظيماً لانه يخدم بها الاسلام ويرضي بها الامام

ويستطلع حال اسماء.

فاجاب قائلاً لبيك يا مولاي اني سائر الساعة وارحو ان احوّل احتي عن هذا العزم اذ قد يكون طلحة والزبير هما اللذان حرضاها عليه . وهل تريد ان يعلم احد بمسيري

قال لا أرى ان يعلم به احد سر محراسة الله
قال هل تأذن لي بمقابلة الرسول الذي حمل هذا الكتاب اليك اسأله
بعض الاسئلة

قال اسأله انه في دار الاضياف
فخرج محمد وهو لا يزال مدهشاً لهول ذلك الحبر ولكن لقياء اسماء كان يهون عليه بعض الشقاء . فسار الى دار الاضياف فلقي الرسول فعرفته فسأله عن عجوزه هل اقيها في مكة

فاخذته انه رآها يوم سمر عدا المصل ومعه فتاة مريضة
فقال محمد وهل تعرف تلك الفتاة
قال لا اعرفها لانها عربية الدار واكني علمت انها جاءت مكة مع تلك العجوز
وكانت تقيم في منزل ام المؤمنين ثم اسقلت الى بيت ام الفضل ورأيتها تشكوس
حتى شديدة

فاحسن محمد سارا فتدنت في اعضائه وخاف ان تكون اسماء قد اصببت سوء
فاصبح مدفوعاً الى الاسراع في المسير مدافعين قوبين خدمة امير المؤمنين
والبحث عن اسماء

الفصل الخمسون

﴿ خواطر وهواجس ﴾

فخرج لساعته وودع علياً ولم يعلم احد به . وركب هيباً واصطحب خادماً من
بعض الديبة وركب فاصداً مكة وهو يود ان يباير اليها على اجمعة النسيم . فبات تلك

الليلة في قباء فتذكر اول مرة رأى فيها اسماء تدب أمها واصبح قبل الفجر على هجين
يطوي السهل والوعر وهو لا يصدق انه يصل مكة ويرى اسماء حية
على انه لم يكذب يحلو نسبه في تلك الصحراء حتى تصور ما يصدق بالخلافة من
الاختار الهائلة التي تتناغم سراً وانقطاعاً عن كل عمل سواها . فلام عواطفه لاسماعها
بالحب وعول اذا نسي اسماء ان يعاها على الاقتران واكنه يشترط عليها ان لا يكون
ذلك الا بعد اصدار الامام علي في حروبه على ان يكون ذلك مذكراً عليها
وكان كلما اقترب من مكة تعادلم ذلك الامر لديه وتارت فيه المحبة الاسلامية
والغيرة على الامام علي وهان عنه امر الحب وعواطفه . فلم يحمل ناله من هذه الهواجس
لحظة وتذكر بضع اسماء وما سات به من عواقب تلك الفتنة وكم حرضت الناس على
الكف عن عثمان وقات بريرة ساحته فعميت في عيده وارداد انجماً تعقلها وحسن
نظرها وايض انهم لو اذعنوا اليها لكانوا في عى عن تلك الحروب
قضى طريقته كنه في مثل هذه الخواطر وهو مع ذلك يستحث حملة لا تلتفت بنة
ولا يسر مخافة ان يضيع الوقت فامسى وهو لا يزال على بضعة اميال من مكة فتشقى
عليه المديت خارحها وعول على موادة السير حتى يدخلها ولو ليلاً . فاشار عليه خادمه ان
يستريح هيمه ويرجع الحمل ريتا يطلع الفجر فيسيران في ظلمة . فاستحسن الرأي فتزلا في
مكان رأيا عنده بيتاً صغيراً عند بابو شيخ نوسد حصيراً من سعف النخل وامامه جرار
وكواب من الخشب يسقي بها من اراد من المارة في تلك الصحراء
فتنزل على الشيخ وحياء ورحب به وبادى اسماء له وعيلاً ليقدموا لضيئهم ما يحتاج
اليه من الماء او العلف للجمال . فعهد محمد بتدبير ذلك الى خادموه وصعد الى رابية
خلا فيها سمسه وقد غابت الشمس فتحوّل بصره من تنقاه نفسه الى مغيبها في الافق
وكان الجو صافياً وقد طهر الشفق بالواو من خلال اغصان السط المنرفقة على
أكنه هالك وقد هدأ الجولابهب الهواء الا لطيفاً لا يسمع له هبوب . واوت الطيور
الى اعشاشها الا الخفاش فانه خرج يتطاير بسرعه
فانكأ محمد على بساط فرشه له خادمه وعيناه شاخصتان الى الافق براقب تلوه
فما زالت الواو تقول من الرهو الى الكمود حتى خيم الظلام واوقد الشيخ ناراً
بهندي بها المارة الى ذلك المستقى . ففرق محمد في هواجسه حتى غاب وجدانة فنبه

سبَّ مرَّ عند قدميه فوقف وأرسل نظره إلى الأفق عن بعد فرأى إشباحاً مارة تدرّس فيها فاذا هي بضعة حمال بينها هودح وعليها أناس قد حجب البعد هيناتهم وأسرعوا في المسير فحِيلَ إله من جهة مسيرهم إهم خارجون من مكة يريدون المدينة أو نحوها . فتوقع محمد أن يروا بذلك المستنقح كجاري العادة في من يترُّ هناك لعله يستطلع معهم شيئاً عن حال مكة قبل وصوله إليها فادّهم قد واصلوا السير عن بعد ولم يعرجوا . فظنهم من طلائع جند مكة السائرين إلى البصرة فلما تواروا عن بصري ولم ير أحداً في أثرهم علم أنهم ليسوا من الطلائع . ولكنهم عجم لحروهم من مكة في ذلك الليل وأسراعهم في المسير في غير الطريق العام كأنهم سائرون خلصة وودلوانه يعلم من هم . ولكن السلام حجّهم عنه فعاد إلى هواجسه

ولم تمضِ هنيهة حتى طلع القمر من وراء تلك الأكمة كأنه رقيب جاء لبحث عن لصوص الظلام فلما اطلَّ عليها نادرت إلى الفرار إلا ما كان معها قريباً ولم يستطع فراراً فاختبأ وراء التلال وفي غمق الأودية ثم لحق رفاقه ونلّاه . واشرق القمر وهودون اندر وقد ابيض وجهه وسطع بوره فحرك ما في ناس محمد فنادى خادمه مهياً للعين وودع الشيخ بعد أن أكرمه وركب فاعداً مكة .

الفصل الحادي والخمسون

﴿ البغاة ﴾

ولم يسر ساعة حتى اطلَّ على مكة وهي في مسط من الأرض تحديق بها أنجال من كل ناحية فطلّع على أكمة وتأمل بيوتها بصو القمر فاول ما استلست بصرها منها الكعبة . وكان يتوقع أن يرى مضارب أو حدوداً في مكة أو حولها فلم ير شيئاً فواصل السير يريد منزل أم المؤمنين فمر بالأسواق فلم يجد ما كان ينتظر من الحركة والجلجلة والازدحام حتى وصل بيت اخيه فترجل عد نابه وقرعه فاطلَّ عليه عد حشني عرف من صوته أنه من عبيد أم المؤمنين فاداه بأسه فمنع له الباب فدخل فرأى المنزل مادناً فسأله عن أم المؤمنين فقال أنها خرجت من مكة بالأمس

قال والى ابن

قال ألم نسمع بما اجمعوا عليه

قال وهل ساروا الى البصرة

قال نعم

فسأله عن سارمها فأنبأه بما كان فاستعاذ بالله وأسف لوصوله بعد خروجهم
واراد العدد ان يحلّ جملة ويهيّ له الطعام فقال لاتعمل اني خارج في حاجة وربما
اعود وامر خادمه ان يمكث هناك ريثما يرجع وخرج وهو لا يزال بلباس السفر
قاصداً بيت ام النضل وهو يكاد يتعثر ما ذبالو لسرعة مشيته فوصل منزلها فرآه مغلفاً
وقد أطشت مصابحه فظن اهله يوماً فتردد في ان يوقظهم او يصير الى الغد ولكن شوقه
لرؤية اسماء هوّن عليه ابقاظهم . فدا من الباب وامسك بحلقته وشدها فرأى الباب
موصداً ففرعه قرعاً شديداً فاجابه البستاني فقال افتح ففتح له فسأله عن ام النضل

قال انها ذهبت الى فراشها واظنها لم تنم بعد

قال قل لها ان ابن اخلك محمداً جاء

فلما علم البستاني انه ابن ابي بكر هرب الى مصباح اناره ودعا محمداً للجلوس
على المصطبة ودخل الى ام الفضل فاخبرها فاسرعت اليه وقد علتها البغته وصاحت
قبل ان يجيها قائلة ما الذي جاء بك يا محمد . وابن كنت

فجعب للهنثها وقال اني قادم من مكة . ابن اسماء

قال كيف نسألي عنها وقد بهشت في استقدامها

قال الى ابن

قالت ألم تبعث اليها كتاباً تستقدمها به اليك

فقال ومن قال لك ذلك

قالت لم يقل لي احد ولكنني رأيت رسولك ومعه كتابك دفعه اليها عند
العصر وكانت لا تزال ضعيفة فلم تنصبر الى الغد بل ركبت حالاً وهي اضعفها لا تقوى
على السفر

قال ماذا تقولين هل سافرت اسماء . انهم زوروا الكتاب عن لساني . من

نجاس ان يفعل ذلك . من هو ذلك النذل الذي ارتكب هذه الحيانة

فلطمت ام الفضل يداً بيد وصاحت ما نقول يا محمد
 فبهت محمد لحظة ثم قال من اي الطرق سافرت
 قالت سافرت في هذا الطريق المؤدي الى المدينة
 فنذكر محمد الاشباح التي رآها خارج مكة وقال لقد لقيتها والله في طريقي ولكني
 لم اعرفها يا ليني اعترضت ذلك الركب وهي معهم . ولو كانت صحيحة ما خفت عليها
 بأساً ولكنك تقولين انها مريضة فاخشى اذا اخرجوها ان تموت غيظاً . لا حول ولا
 قوة الا بالله . . . من يا ترى فعل ذلك . . . وصحت مرهه يفكر فلم يستطع ادراك
 سر الامر ثم هب من مكاءه وقال استودعك الله يا خاله وخرج
 فقالت تمهل يا محمد لترى

قال ان الوقت ثمين دعيني اتعقب الركب الذين رأيتهم في طريقي لعلي اظفر
 بها معهم . ولم يكدهم يخرج من الباب حتى وقف بغنة كأن شيئاً اعترضه فعاد الى ام
 الفضل فاستنهمها عن الحملة وجهة مسيرها فنصت عليه الحمر مختصراً فوعى كل ذلك
 في ذهنه وعرج مسرعاً يلتمس الطريق الذي رأى اولئك الركب سائرين فيه
 فمر بجناديه في منزل اخيه فرآه غارقاً في النوم من شدة التعب وقد ارسل
 الجبال الى المربط للشرب والعلف فابقضه وامر ان يتهباً للرجوع فنهض وعيناه
 لا تتفتحان من شدة النعاس وعلم اهل المنزل بمجي محمد فجاءه قيم الدار يدعوه
 الى الطعام فاعذرا له لا يستطيع البقاء هناك

فقال ولكن الجبال تمنحنا الى الراحة واستمهله ريثما يهبي له طعاماً فاتبه انه
 لا بد له من الاستراحة هنيهة ريثما ترتاح الجبال فاذن باعداد الطعام فجاءوه بما
 حضر فاكل وهو يستحث الخادم في الناهب للمسير . وبعد هنيهة ركب وسار باسرع
 ما يمكنه . وكان الثمر قد تكبد الساء والجوق قد صفا فالتمس الطريق الذي ظن
 الركب قد ساروا فيه ففضى مرهه لا يتكلم ولا يسمع صوتاً الا جعير الجبال من بعد
 اخرى . فانصف الليل والخادم يتوقع ان يسمع امره بالنزول للبيت فلم يوانس منه
 الا استخائناً ثم رآه يطلب طريقاً غير الذي جاؤا فيه فذهب الى ذلك مخافة ان يكون
 قد اخطأ السبيل . فاجابه انه يعرف الطرق ولا يحتاج الى تنبيه فسكت وظل سائراً
 فوصلا الى مكان ينفصل فيه الطريق الى شعبتين احدهما تنصل بطريق المدينة
 والاخرى تنتهي الى طريق البصر فوقف هناك ووقف خادماً وكلأها صامتاً

الفصل الثاني والخمسون

﴿ قيافة الاثر ﴾

واما الخادم فكان مع استغرابه ما رآه من غضب محمد وقتله لا يحسر على الاستنهام منه عما يقصد . فلما وقف عند المرق وقف معه وهو لا يتكلم وكان من الساهة والذكاء على جاسب عظيم عارفاً الاسفار خبيراً بالطرق وفروعهما وكان حادقاً في القيافة وخصوصاً قيافة الأثر فلما رأى موله قلقتا أدرك انه ينتش عن ضائع فإراد ان يستطلع ما في نفسه فقال ما مال سيدي وإفنا الا يرى ان يامرني بمجدة أوديها فلما سيع محمد كلامه اننه وتذكر مهارته في استطلاع آثار الاقدام فقال في نفسه لعل هذا الرجل ينعمنا باختياره

وكان الخادم كمالاً عركته الدهر وقضى معظم ايامه في الاسفار وتحمل الاخطار وكان طويل انقامة سريع الحركة فلما بهالي التعب ولا يخاف الموت فقال له محمد ألك مهارة في قيافة الاثر يا مسعود

قال نعم يا مولاي اني من اهل الفاتنين
قال أترى على هذا الرمل اثرًا لمشاة او فرسان وهل تستطيع تحقق ذلك في صوه القمر

قال نعم يا مولاي . وترجل عن راحتيه وجعل يتفرس في رمال الطريق كأنه يقرأ كتاباً او يضرب حساباً ومحمد واقف بالقرب منه يراقب حركاته فرآه يتقل بحمة ولباقة فلا يصع قدمه الا حيث يرى انها لا تسد اثرًا سابقاً . وما زال يروح ويحيي . وهو يتفرس ويعد ويحسب ويقيس ماشاه واصابعه ويراقب جهة الاقدام او الخفاف او الحوافر ومحمد يعجب لما يبدو من خنوه وحذاقه حتى كاد يمل الانتظار وإدرك مسعود قلقة فقال (وهو لا يزال يتفرس في الرمال) لا نصبر يا مولاي من طول الانتظار فاني ارى اربنا كذا في الركب الذين مروا من هذا المكان وكأنهم وقوا فيو رهة يروحون ويحيثون وربما تضاربوا وتحاوروا فاصبر هنيئة ان الله مع الصابرين وعاد مسعود الى عمله وهو يشي الترفضاء ويحيي رأسه يتفرس في الرمال حتى يكاد

بلامس وجهه الارض

قصي في ذلك ساعة ومحمد كأنه واقف على النار وربما خيل له اعظم قلعه ان الليل كاد ينفضي . وفيما هو في قلعه رأى مسعوداً اتصب بغتة ونجدب وتمطى كأنه تعب من الفرفشاء والانحاء ومشى اليه فتقدم محمد نحوه وهو يقول ما رأت يا عم قال ان النار تشابهت علي لاختلاطها ولكني علمت مع ذلك انها آثار فافنة صغيرة مؤلفة من اربعة جمال بينها جملان بيضان متوالين كأنهما جملان هودجاً او نحوه ومعها عدة مشاة من الرجال أكثرهم مجالون رماحاً لاني ارى آثار كهايتها بحاسب الافدام . ويظهر يا مولاي ان الراكب وقف ها وتردد في المسير على غير نظام وربما وقع بينهم جدال او خصام بذلك على ذلك ما في آثار افداهم من عدم الانظام مع كثرة الاعار التي تراها متجمعة ولكن يظهر اسم انقلوا اخبراً على المسير في هذا الطريق

فقال محمد والى اين يؤدي

قال يؤدي الى الصخر او الكوفة

وسكت محمد وقد ترحم عنه انهم هم الراكب الذين رأهم في اول ذلك الليل عن بعد فاعمل فكرته وقد حدثته نفسه ان يجمع تلك الآثار فحرف ان يشغله ذلك عن المهمة التي جاء بها الى مكة . فوقف صائماً يتردد بين ان يطلع مسعوداً على سر الامر او بطل على كياه فتجهر في امره ثم قال اغتبه وما ظلك يا مسعود بالرمي الذي مروا به هل هو بعيد

قال اظنهم مروا في اوانل الليل منذ اربع ساعات او خمس وهم سائرون على عجل

فقال وهل نضلنا اذا اقتنينا اثرهم ندركهم

قال اذا طاولهم في مسيرهم لا نضلنا ندركهم الا بعد يومين او ثلاثة . قال ذلك وقد ملّ من كتمان محمد عنه الغرض من هذا البحث فعمول على اسب تطلاع السر فقال هل يرى مولاي ان يطلعني على ما هم من هذا الراكب لعلني استطيع خدمة له في شيء

قال بهمني يا مسعود من هذا الراكب امر كبير . هل تعرف خادمتنا العجوز التي

كانت في المدينة

قال نعم اعرفها

قال انها جاءت مع وفاة اموية الى مكة واقامت عند اختي ام المؤمنين فلما اجمع اهل مكة على المسير الى الصرة جاءها اناس بكتاب مزور عن لساني بدعوتها الى المدينة فسارتا معهم في غروب هذا اليوم ولا ادري من تجرأ على هذا الفعل ولا الى اين ساروا بهما . ولكن بظاهر ما بينت قيافتك ايهم هم الركب الذين مرثوا بهذا المكان الليلة

فقال مسعود هل ترى ان افني اثرهم ولا تيك بالخبر واذا استطعت اتاذاها فعلت فاستحسن محمد رأيه واثنى على غبرته واوصاه ان يحفظ سمه وحرصه على الاسراع وودعه وركب همنه ونحول الى المدينة

الفصل الثالث والخمسون

في حجة علي تلى البصرة *

اما الامام علي فانه خلا بنفسه بعد خروج محمد من غرته ففكر بما هم فيه فرأى من الحرم ان يحول عرته عن الشام الى الصرة واسنشار ابن عباس وغيره من كبار الصحابة فوافقه على ذلك فدعا وجوه اهل المدينة وخطب فيهم محمد الله واثنى عليهم ثم قال « ان آخر هذا الامر لا يصلح الا بها صلح اوله فاصروا الله بنصركم ويصلح امركم » (١) فرأى ثنائياً منهم وقد كان يتوقع تلبية وتهنئة فلم يقل ذلك شيئاً من عزيمته . على ان جماعة من الصحابة قدموا اليهم للدفاع عنه واستنصحو الناس فعادوا الى نصرته فقبض النخبة التي تعاضها لاهل الشام آخر ربيع آخر سنة ست وثلاثين واطم اليه من شط من الكوفيين . وفيما هو في الاستعداد قدم محمد بن ابي بكر وابناه بما كان من خروج عائشة وطلحة والزبير ومن معهم الى الصرة فعمل على المسير واستعجل . وكان الناس يتوقعون ان يرسل الحملة ويبقى هو في المدينة حفظاً

لسطونو فيها . فلما رآه ركب في مقدمة الحملة تقدم اليه عبد الله بن سلام فاخذ بعنانها وقال « يا امير المؤمنين لا تخرج منها فوائده ان خرجت منها لن يعود اليها سلطان المسلمين »

فقال علي لا بد من خروجي

فكاملت الحملة واجتمعت في الرقة على ثلاثة اميال من المدينة (١) وهما كيهما للخرج ومحمد والحسن معهم . وكان الحسن في اثناء ذلك مشغولاً بهم الخلفة عن كل شاغل وربما مرت اسماء في ذمهم فبصر سسه الى ما تعد هذه المشاغل اما محمد فانه انتصاً خادمه وهو لا يدري ما صار اليه وشغل ماله عليه على انه سر لم يدر هو في تلك الحملة لانه يعلم شيئاً عن اسماء

ولما اجتمع جند علي في الرقة جاءه رجال من بني واسد واظهروا ابن جند فاشتد ازره على ان الحسن لم يكن راضياً بخروج والده في تلك الحملة بفسو فلما رآه عارماً على ذلك قال له « لقد امرتك فعصيتني فقتل عدداً بهضمة لا ناصر لك » فقال له علي « امك لا تزال نحن خين الجارية وما الذي امرتني فعصيتك » قال « امرتك يوم احيط بعمان ان تخرج من المدينة فيقتل واسمك بها ثم امرتك يوم قتل ان لا تابع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة اهل كل مصر فانهم لن يقطعوا امراً دولك فايبت علي وامرتك حين خرجت هذه المرأة وهذا الرجلان ان تجلس في بيتك حتى يصطلحوا فان كان النساد كان على يد غيرك فعصيتني في ذلك كلو »

فقال « اي بني اما قولك لو خرجت من المدينة حتى احيط بعمان فوالله لقد احيط بأكما احيط به . واما قولك لا تابع حتى يبايع اهل الامصار فان الامر امر اهل المدينة وكرها ان يضيع هذا الامر ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أرى احداً احق بهذا الامر مني فبايع الناس ابا بكر الصديق فبايعته ثم ان انا بكر انتقل الى رحمة الله وما أرى احداً احق بهذا الامر مني فبايع الناس عمر فبايعته ثم ان عمر انتقل الى رحمة الله وما أرى احداً احق بهذا الامر مني فجعلني سهماً من ستة اسهم فبايع الناس عثمان فبايعته ثم سار الناس الى عثمان فقتلوه وبايعوني طائعين غير مكرهين فانا مقاتل كل من خالفني بمن

اطاعني حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين . وإما قولك ان اجلس في بيتي حين خرج طلحة والزبير فكيف لي بما قد ازميني او من تريدني ان تريدني ان اكون كالضيق التي يحاط بها وبة ل ليست ههنا حتى يحل عرقوها حتى يخرج وإذا لم انظر فيها يلزمي من هذا الامر و يعينني فمن . تلزمه فكيف علك يا بني " ()
وفي الرتبة ائمة علي حجة العمل ائمة محمد بن الحنفية صاحب الرتبة كما كان عند عزمهم على الشام واعدوا لعللي اافة حراء يركب عليها ويفود وراءه فرساً كميئاً

الفصل الرابع والخمسون

* مسعود والعجوز *

اما محمد بن ابي بكر فكان في شغل عظيم من امر الحرب والاستعداد لها ولكنه كان كلما خلا لحظة يذكر اسماء وكلما رأى قادمًا من سر طمة مسعودًا فلما ابطأ مسعود في القدوم خاف ان تكون اسماء اصبحت نسوة وكلما تصور ذلك هب جسمه واقشعر بده وود لو انه يذهب في مهمة الى البصرة او الكوفة لعله يلقاها او يسمع بخبرها فيطمئن ماله

فات ذات ليلة في خيمته وقد تماط عليه الفلق للافتكار في ما هم فيه من النصرة للامام علي وما يتوقعونه من الللاء . فعظم عليه الامر وتسلط عليه الفلق ولاح له ان يلتمس الذهاب تنسوه الى البصرة يستنفض اهلها نصرة الامام وعول ان يسكن في المصالح لمخاطبة الامام في ذلك

ولم يكذب بغض اجفائه حتى سمع صوتًا خارج الخيمة يشبه صوت مسعود فهب من فراشه وناداه فاجاب ليك ودخل وهو لا يزال في ثياب السر ودخلت في اثره امرأة لم يعرفها محمد في ماضي الرأي لصعب نور المصالح ولكنه ما لبث ان تبين انها العجوز فغفت وتذكر اسماء فقال ما وراءك يا خالة ابن اسماء
فالت اظنها الآن في البصرة او الكوفة اولا ادري اين هي

قال وكيف تركتها وجئت وحدك

قالت جئت بأمرها وسأقص عليك الخبر بعد ان استريح . قالت ذلك ونهدت من تنع التعب فحاطب محمد مسعوداً قائلاً وابن لقيتها يا مـهـود وما الذي دعا الى نفيك كل هذه المدة

قال طال عليّ الامد في البحث عن ذلك الركب وكأنهم غيروا طريقهم ونعرجوا في مسيرهم فشابهت عليّ الجهات التي ظننتهم ساروا فيها فقضيت اياماً في ذلك حتى كدت ادرك البصرة ورأيت جيش ام المؤمنين عن بعد . ثم تحولت الى طريق آخر فعثرت على هذه الخانة سائنة وحدها فسررت بها فساءلنها عن اسماء . ومكانها فقالت ان الركب ساروا بها ولا تدري اين هم وان اسماء هي التي بعثت بها اليك رسالة لا ادري ما مفادها وكنت عازماً عليّ مواصلة البحث عنها فمعني فجئت بها اليك فمحب محمد لذلك والتمت الى العجوز وقال قصتي عليها الخبر يا خالة من اولي الى آخر

فجلست وكانت قد استراحت واخذت في سرد الحديث فقالت أقص عليك خبرنا منذ ودّعنا في المدينة وسرنا الى مكة قال كلاً فقد سمعت خلاصة ذلك الخبر من خاتني ام الفضل ولكي اريد الاطلاع على كيفية خروجكم من مكة

قالت « كانت اسماء مريضة عند ام الصل وهي على مثل الجحر في انتظار امر منك في الانتقال الى المدينة لانها اصيبت بعد ما شاهدت من تألب اهل مكة على الطلب بدم عمان لا نستطيع الاقامة فيها . وكانت مع ضعتها كلما ذكرت علماً والحرب والانتصار له نشدد ونثوي حتى يجبل لي انها تشتاق النزول الى ساحة الوغى دفاعاً عن الامام عليّ لشدة اعتقادها ببراءة من دم عمان . وكانت كما ذكرت ذلك تنكي ونحرق اسنانها غيضاً لعودها في مكة بالرغم عنها . واشدد ذلك فيها خاصة يوم خروج اخنك ورجالها من مكة يريدون البصرة للطلب بدم عثمان فانها اصيبت في ذلك اليوم وايس بها بأس لفرط ما هاج من عواطفها رغبة في المسير الى المدينة ولما كان يتقدمها عن ذلك قولك يوم وداعها انك ستبعث اليها من يستقدمها . فعد سفر ام المؤمنين يوم او يومين جاء ما رسول بكتاب زعم انه منك ولم تذكر اسماء ثم

قراءته حتى هبت من فراشها وقد اشرق وجهها وارقت اسرعتها وقالت هيا بنا ياخاله الى المدينة فان ممهدا بعث من يحملنا اليها . فظفرت الى الرسول فلم اذكر اني اعرفه فقلت له وابن الجبال والاحمال . قال هي خارج مكة وقد سرحناها للراحة . فلم يعجبني كلامه لاني لم اعرفه وكانت خالك ام اتصل جالسة فسللتها عنه فقالت انها لا تعرفه . فخلوت باسما . وحذرنا من المسير مع اناس لا نعرفهم . فابت الا الركوب حالاً وقالت انها لا تبالي آيا كانوا وانما غرضها الخروج من ذلك السجن . فاطعنا وخرجنا والرجل يسير امامنا واسماء لا تزال ضعيفة من عواقب الحسى التي اصابها وكنت قبل خروجنا من بيت ام الصل قد عرضت عليها ان يذهب ذلك الرسول فيأتينا بالجبال الى البيت فنركب من هناك فلم نستطع صدىً وأتت الا المسير حالاً فوصلنا الى المكان اندي اشار ابو الرسول فرأينا هناك هودجا على جملين وجمالا اخرى وبضعة رجال لم اعرف احداً منهم فازددت خوفاً ونهيت اسماء الى ذلك فلم تنه كآن رغبتها في المسير اليك اسكرتها واعمت بصيرتها . فركسا والخدم في ركابنا حتى اتينا مكانا تسفل فيه السرى الى شعبتين وهناك رأينا أناساً مسلحين ينتظرون وصولنا وفيهم شاب بلباس ثياب كاهن . سيدهم فلما وصلنا المرق وقفت جمالنا ودنا الرجال برماحهم فتخفنا وقوع الحياة . وكان الليل قد سدل نقاباً فلم نعرف احداً من هؤلاء فلما رأيناهم تحولوا من طريق المدينة الى طريق البصرة قلت الى ابن ابينا زاهون بنا . قالوا الى حيث نشاء . فمالي جناء ذلك الجواب ونظرت الى اسماء بضوء القمر فاذا هي ثائثة الجأت مع ضعبها وقد كست واباما في الهودج معاً وحالما تحولنا في ذلك الطريق ازلوني من الهودج وحملاه على جمل واحد واركبوني الجميل الآخر فاطعت بالرغم عني وتمددوني وأنا لا اجيب «

وكانت العجوز تنكم ومحمد مصغر يتناول بعنقه لسامع ثممة الحديث وقد ظهرت البغلة على وجهه



الفصل الخامس والخمسون

* اسماء في الاسر *

ثم قالت العجوز « ومازلنا سائرين مسرعين طول ذلك الليل فلما اصبحنا وتبينت الوجه تأملت أولئك الرجال جيداً فرأيت بينهم واحداً تذكرت اني رأيت في جملة الخدم في بيت اخنك ام المؤمنين وتأملت الشاب الذي ذكرت لباسه الفاخر فاذا هو ذو جمال باهر وقبافة حسنة فظننته سيدهم ولم اعرف من هو ولكنني سمعهم ينادونه « سعيد » ويظهر من قيافته انه من اهل البصرة »

« ولم تكذب مستريح جمالنا حتى جاء هذا الرجل الى هودج اسماء وانا انظر اليه من بعيد واسمع بعض كلامه ففهمت انه يسألهما كيف ترى نسبها وهل هي لا تزال تنزل المدينة واهلها على سواهم ورأيت منه احفاءً عظيماً بها فامر لها بطعام فاخر وجعل كل رجاله في خدمتها »

فقاطعها محمد قائلاً وهل اكلت من طعامه واجابته على كلامه قالت العجوز « اعلم يا بني اني لم اشاهد في حياتي كلها لا في الجاهلية ولا في الاسلام فتاة ولا شاباً اثبت جاشاً من اسماء ولا اصبر على المكارة منها فقد كانت مع ضعفها وتيقنها بالخطر الذي وقعت فيه ساكنة القلب لم يدُ على وجهها شيء من دلائل الخوف والاضطراب وقد لحظت لما كان ذلك الشاب يخاطبها انها كانت تجيبه بكلام وان كنت لم اسمعه فقد ادركت على اثره في وجه الشاب تهيّباً وخوفاً منها . وكأن الخطر زاد اسماء هيبه وجلالاً وزادها الضعف حسناً وجمالاً . واما انا فقد كنت خائفة القلب مضطربة المحواس لا اكاد استطيع الوقوف لشدّة الارتعاش وهي جالسة في هودجها والكل يلتمسون امرها وخصوصاً سعيد فقد رأيتُه يسعى في تلبية كل اشارة »

فقال محمد ثانية لم تجيبي يا خالة على سؤالي هل اكلت من طعامهم قالت لا ياسيدي لم اشاهدها تأكل ولكنني لا اظنها استطاعت البقاء بلا طعام قال ثم ماذا

قالت العجوز « ولم نسترح قليلاً حتى نهض الركب وسرنا نطوي البيداء ووجهتنا

العراق وأنا لا ادري ماذا اعمل . واظن اسماء لو رأت فائدة من الدفاع لنعلت ولكنها وجدت نفسها عزلاء لا سلاح معها وحولها رجال مدحجون بالحرب والسيوف والرماح وقد احسنت سكوتها ونصبرها ولكنني عجبت كيف استطاعت ذلك بدون ان يبدو عليها الخوف وقد كنت اراها كل مسافة الطريق ساكنة تتأمل كأنها تتكر في طريقة للنجاة

« واما سعيد الذي هو السبب في ارتكاب هذه الخيانة على ما يظهر واطمة فعل ذلك رغبة في الحصول على اسماء فقد رأيت هائبا غناطيتها وربما هم ان يحاطبها بشيء في نفسه فاذا دنا من هودجها ارتخ عليه فيتظاهر بامر آخر . فقضيت اليوم الثاني وأنا اود الدو من اسماء لعلنا نتشاور في سبيل النجاة فلم استطع لانهم كانوا يحاولون التفريق بيننا عنوة . فبنا تلك الليلة واصبحنا وقد مللت هذه الحال فلاح لي اخيراً ان أنظأه بالنعيب والمرض لعلهم يسحبون لي بهواجهتها وارى ما يكون فشكوت المآ في بطني وعجزاً عن الركوب فقال سيد القوم انركوها في الطريق وسيروا . فصحت دعوني انظر ابنتي دعوني اودعها . واخذت في البكاء فسمعتي اسماء فطلبت ان تراني فحملوني اليها فاجلسني في هودجها وارخت ستائر الركب بها فلما خلونا سألتها عما في نفسها فتهتدت وقالت « اعلي يا خالة اني في حال لم اقع عمري في مثلها وأنا اعلم الناس بما يحقد لي من الخطر ولكنني لا ارى الخوف يجديني نفعاً ولا انا استطيع دفاعاً ولو كان في يدي عصا او سيف وكانوا ثلاثة او اربعة ما حسبت لهم حساباً ولكنكم عشن مسلحون وأنا وحدي ولا سلاح معي . على اني سأرى ما يكون من امرهم فطالما كانت معاملتهم اباي على هذه الصورة اسأيرهم واسير معهم واذا تغيروا تغيرت والظاهر انهم سائرون بنا الى معسكرام المؤمنين واظن هذا الشاب المغرور من جملة رجالها وقد لاح لي انه طامع بي فليضع ما شاء اما انا فاني سائره معه حتى اجد لي سبيلاً انجو به ولكنني احب ان اتلغ حبيبي محمداً شيئاً في نفسي فكيف العمل » فقلت لها انا ابلغه اياه فان هؤلاء الرجال يودون التخلص مني فاذا انا اظهرت بحب التخلف عنهم خلفوني وساروا فقولي لي ما تريدن . فقالت ساكنة لك ذلك في كتاب توصايو اليه قلت حسناً . وسرنا هنيهة ثم وقف الركب وجاء ذلك الشاب فرفع الستر عن الهودج وقال لي انزلي من هذا الهودج ان الجمل لا يستطيع حملك فشكوت له التعب

والمرض . فقال لا يعينني . فقالت له اسماء تهمل ربما نصل الى مكان نستريح فيه جميعاً فاذا لم تقدر هنك الخالة على الركوب معنا تركناها او اوصلناها الى قافلة نسير بها . وكانت اسماء تنكلم والشاب يظن اليها وقد هام بها ولم تزده انفتها إلا حباً وكأنها سمعته فاصابه خل فقال حسناً فوصلنا في المساء الى مكان فيه آبار وشجر فنزلنا جميعاً ونصلاً الخيام فطلعت اسماء الخلوة . ننسها فتركوها واجلسني خارج خلوتها لتلاً بدهما احد فقصت هناك ساعة حتى اشتغل مالي عليها ثم خرجت اليّ وقد احمرّت عينها وتلالت ويدها مندبل قطعته من قبضها دفعة اليّ وقالت احنطني بهذا الكتاب وادفنيو الى محمد اذا لقيت . فتناولته وخأته بين اتوالي وأنا احاذر ان يراني أحد . فقالت لي اسرعي في المسير الى محمد ما استطعت

« فنظرت الى الاتق فرأيت قافلة كأنها قادمة نحونا فعلمت ان ركنا سيرحل قبل وصولها خوفاً من عيون الرقاء فتظاهرت باني لا استطيع الركوب ولا المشي فلما رأى اصحابنا القافلة قادمة تهبوا للرحيل فطلبوا اليّ ان اركب او امشي فاعذرت فقالوا اذا نبين هما . قلت اني ولكنني طلبت ان اودع اسماء فاذهبا لي والحمل عليّ بالاسراع فضممتها وقبلتها مراراً وكبكت وككت ولكنني سمعت منها كلاماً عراني على فراقها وطمان قلبي عليها فقد قالت « لا تخافي عليّ يا خالتي فاني ارجوان يكون اسري هذا سبباً في خدمة عظيمة اقوم بها للامام علي ومحمد وعلى الله اتكالي » ولم اكد اجبها حتى اقلع جملها وساروهي تلتفت الي وتنسم وابا انكي . فضللت وحدي انتظر وصول القافلة فاذا هي غير قادمة نحوي ل سائمة في طريق آخر فنهضت اسمي في اثرها وما زلت اسير نارة وحدي وطوراً استلحظ راعياً او ماشياً وطوراً اركب واونة امشي حتى لقيت مسعوداً على ما قصة عليك »

الفصل السادس والخمسون

﴿ كتاب اسماء وتوارد الخواطر ﴾

ولم تنرغ العجوز من قصتها حتى نعت ومحمد شاخص اليها فلما فرغت من

الحديث قال لما ابن هو كآب اسماء ماتو
فمدت يدها الى جيبها واستخرجته وكانت قد خاطته بباطن ثوبها كرقعة ودفعته
اليو فتناوله فاذا هو قطعة من قميص اسماء فاستأنس وادنى المصاح منه ونظر
فاذا فيه كتابية بمداد احمر محرف لم يالفة لقربو من الشكل النبلي الذي كان يكتب
بو عرب الشام فرأى قراءته تحتاج الى زمن . فاوماً الى مسعود ان يذهب بالعجز
الى مكان نسترج فيه واغلق خيمته وجلس الى جانب المصباح وطفق يقرأ
فاذا فيه :

« أكتب اليك هذا بمداد من دمي اذ لا سبيل لي الى غيره واما في صحراء فاحلة
وحولي اناس لا ادري غرضهم من اسري على انهم لن يبالوا بي وطراً . وقد علمت
انهم سائرون بي الى معسكر ام المؤمنين بالعرف واظنهم من رجال تلك الحملة .
لا تجزع يا محمد ولا تحف على اسماء فانها بحول اليو لا خشي ناساً

« وانما اكتب هذا اليك لاسئلك بحالي وادعوك الى عهد نعتك يهنا نجعله نذراً
عليما على ان تكون اعمالنا وحواسنا وقوانا كلها مكرسة لخدمة امير المؤمنين ان عم
الرسول (صلعم) منهم ظالماً بدم عمان واما وامت اعلم الناس ببراءة . فعليما القيام
بصرتو فاذا فرغنا من هذه الشؤون والى ننام الامر نظارنا في انفسنا وأجنا داعي قلوبنا
« هذا ما ادعوك اليو وارجوان تعاهدن عليو ولا اظلك تمالي فيو واما منذ
الآن ساعية في هذا السبيل وارجوان يكون اسري هذا مساعداً على هذه الخدمة فانت
نعمل من جوة واما من جهة أخرى سالقي ام المؤمنين واقنعها براءة الامام من
دم عثمان . . آه يا ليتها كانت معاً ليلة وجدناه يبكي عند قبر الرسول (آه من تلك
الليلة كم لغيت فيها من الاهوال) وسماه ويدب الاسلام ويخوف وقوع الفتنة لعالمها
نعتقد براءة . اقول ذلك وافعله اذا قطعت العقبة الوعة التي اراها في سبيلي واذا
مته فاني اموت شهيدة العفاف والغيرة على الاسلام والصرة للامام علي رجل هذه الامة
اقول ثانية اني ادعوك الى التحالف على نصره الامام علي والانتصاع الى ذلك بكل
حواسنا وعواطفنا فاذا فرغنا منه على خير وفوز فكرنا بانفسنا والسلام »

« اسماء »

ولم يفرغ محمد من تلاوة ذلك الكتاب حتى امتلأ قلبه حمية وطفح اعجاباً باسماء

واستغرب توارد الخطاطر بينها وبسمة فلم يتمالك عن تنبيل كتابها والثناء على حميتها
ولكنه ما زال خائفاً عليها من غائلة ذلك الاسر
وقضى بقية ليلته في مثل هذه الهواجس وقد مال نكباته الى المسير في مهمة الى
العراق لعله ياتى اساء فينقذها من الاسر

الفصل السابع والخمسون

﴿ عثمان بن حنيف ﴾

فأصبح في اليوم التالي وخرج يلتبس فسطاط الامام علي لعله يسمع خبراً جديداً
فدخل عليه فرأى في مجلسه جماعة من الصحابة يتحدثون في مام فيه من الاحوال
ويتشاورون في ماذا يعملون والامام مقطب الوجه ينكر في ما قام من التهمة
وفيما هم في ذلك دخل بعض الخدم مبغوتاً فسأل علي ما وراءك
قال ان في الباب ركبا قادمين من البصرة وفيهم رجل ملثم
قال فليدخل كيهم

فدخل رجل ملثم الوجه حياً الامام عليا وكشف عن وجهه فاذا هو احاط
الوجه املط لا شعر في لحيتيه ولا شاربيه ولا حاجبيه ولا اشفار عينيه (١) فأنكره
علي وتأملة وقال من الرجل

قال هو عثمان بن حنيف عاملك على البصرة

فبغت الامام وقال وما الذي اصابك

قال بعثني بلحمة فجننتك امرد (٢)

قال علي أصبت اجراً وخيراً احك لما خبرك وما دعا الى شق شعر وجهك

على ما نرى

قال « بعثني يا مولاي عاملاً على البصرة فلقبني الناس وسراً بخلافة الامام علي
ثم ما لبثت ان سمعت بخدث اهل البصرة بأمر حدث وإن كنتاً وردت على بعضهم من
ام المؤمنين تدعوم بها الى الاخذة عثمان وإياها قدمت من مكة واقامت في الحفير

على نضع لبال من البصر^(١) تنظر الحوالب فهني الامر كثيراً فبعثت رجالين احدهما رجل عامة والاخر رجل خاصة بما لانيها عما تريد فعدا الي^٢ واخبراني ان ام المؤمنين وطلحة وانزير مصرود على الصائب بدم عمان ملك وان الاخير بن لم يسابعك الا كرهاً . فشاورت رجالي فقال بعضهم سهرهم وقال آخرون بردهم ورأيت لهم نصراء في البصر فحننت اتساع الخرق ثم علمت ان عائشة جاءت المرء وهو السوق خارج البصر ومعها رجالها . فخرجت اليها تنسي ومعها بعض اهل البصر ممن يرون رأبي فلما انتهيت الى المعسكر سألتهم عن غرضهم فوقف طلحة وتكلم بنضائل الخليفة عثمان وأحث على الاخذ بشأري ثم نام الزبير بنزل ذلك فصادق رجالها على اقوالها فقلت لها بايعتم علياً وجنتم تنولون . فوقعت عند ذلك ام المؤمنين والتمت خطاباً حرصت فيه الماس على الصائب بدم عثمان وقالت قولاً كثيراً وكان لكلامها تأثير شديد على كل من سمعها حتى ان جماعة كثير من رجالي مالوا اليها . ثم اشتد اللجاج بين الرجال وانتشبت الحرب فقتل من رجالي جماعة كثيرة فنادينا الى الصلح وتواعدنا على ان نبعثوا الى المدينة فان كان طلحة والزبير اكرها على البيعة سلمت اليهم الامر والا فانهما يرجعان فبعثت اليك وفداً في ذلك

فقال علي^٣ وقد اجابهم اهل المدينة انها بايعا طائعين قال عثمان نعم يا مولاي جاءهم الوفد بذلك فانكروه وبعثوا الي^٤ وكأت ليلة ذات رباح ومطر ساروا فيها الى المسجد وقت صلاة العشاء فأرسلت بعض رجالي لا ترى ماذا يريدون فقتلهم ثم جاؤا الي^٥ واخرجوني وتنولوا لحيتي وشعر حاجبي واشفار عيني كما ترى فجننت بالخطر كما وقع

فقال علي^٦ اما لله واما ابيو راجعون وكيف اهل البصر الآن

قال ان سوادهم مع ام المؤمنين فاطرق علي^٧ وكل من في مجلسه سكوت ينتظرون ما يبدون منه فظل ساكناً حتى شعر الناس انه يريد ان يخرجوا محاصره فخرجوا جميعاً وفي جملتهم محمد بن ابي بكر وقد ساءه تعاضم الامر الى هذا الحد ولم يكذبك خبيته حتى جاءه رسول يستقدمه الى علي فاسرع اليه فلم ير عنده الا محمد بن جعفر فدخل وحياء وهو يتوقع ان يسمع منه

امراً جديداً فلم يكلمه حتى جلس على وسادة بجانب محمد بن جعفر وبه. جلوسه
خاطبه الامام علي قائلاً والاهتمام ظاهر وجه « اندري لما دعوتك »
قال خيراً ان شاء الله

قال قد سمعت ما فعلت اختك وثلثة والزبير في الصرة فقد ساووا عاملاً وحصول
الباس على حربنا لاننا على زعمهم قتلنا عثمان واست تعلم ان اهل الكوفة حزب كبير
بهمنا استنفارهم ليكونوا معنا في هذه الحرب اذا كان لابد منها وقد استدبتك است
وان اخي هذا لتسير الى ابي موسى الاشعري عاملاً على الكوفة تستنبران الباس
لصرة الحق

فوقف محمد وقد امتلاً حمية وقال اما طوع امرك وان الدفاع عن الحق ونهض
امير المؤمنين فرض واجب علينا

قال عليّ ناهبا واحرجا الى ابي موسى ^(١) واقرأ هذا الكتاب على الباس وادعوا
الى الاصلاح فاننا لا نريد سواء والي انا هب للمسير في تركها واستعين الله في نصرة الحق
وكبح جماح الباطل

فخرجوا ونأهبوا للمسير فلنتركها سائرين في هذه المهمة ولنعهد للجب عن اسما.

الفصل الثامن والخمسون

﴿ الفتك باسماء ﴾

اما اسماء فقد كان السبب في اسرها ان احد كبار اهل الصرة من جاوواع
ان عامر الى مكة شاهدها ساعة وقوفها في العريش ومحاطبتها مروان بتلك
المجسرة مع ما كان يتجلى في عيها من المهابة والجمال فوقعت من نسو موقعا عظيماً
وعلق قلبه بها . وكان من اهل اليسار والذخ فلما انتص المجلس سأل عنها فاخبر
بعض الذين اطلعوا على حديثها سرّاً من خدم ام المؤمنين انها مخطوبة لمحمد بن
ابي بكر وانها باقية في مكة تنتظر اموه بالذهاب الى المدينة فحدثه نفسه ان يخطفها

و يغويها بجو و ينزوحها وهو يعتقد انها لا تلت ان ترى جماله و تعلم بجاهه و غناه حتى تمواه و تصلة على محمد فيحظى بها و ينتم من محمد لثمنه على عثمان . فاصطنع ذلك الكتاب عن لسان محمد و بث به مع بعض رجاله حتى اغوى اسماء على الخروج من مكة و كان هو في انتظارها مع بقية رجاله عند منفق الطريق فسار بها كما تقدم وهو تارة يستعطفها باللين و طوراً يدها بالسعادة ريثما يصل بها البصر و خيل له في بادى الرأي انها مالت اليه لما آسسه من سكوتها و نصبرها ولم يعلم انها انما فعلت ذلك حزمًا و تعقلًا و كان بود القلص من العجوز فتيسر له ذلك على اهون سبيل كما تقدم . ففضى ايامًا في مسير وهو يعرج في الطرق روحة وجيئة بلبس رضاها قبل الوصول الى البصر فلما دنا من البصر عرج في طريق ينتهي بالكوفة و كان له فيها منازل و صنائع

واما هي فكانت تفكر في طريقة للخاة و كثيرًا ما حدثتها نفسها ان نجافية و تظهر احتقارها له و لكنها كانت تعود فتدبر نفسها مخافة الفتك فلما صاروا على مقربة من الكوفة لم يبر مدًا من الوقوف على عزمها فصبر حتى سدل الليل نقابة وجاءها وهي مستلقية في الهودج اثناسًا للراحة وقد عظم عليها ما لاقته في ذلك الامر و كان بجانب الهودج نار او قدوها للاستضاءة فرفع ستار الهودج فانهت اسماء و جلست و لما رأت سعيدًا استعازت بالله اما هو فحياها بلطف و قال لها ألا تظنين البصر خيرًا من المدينة يا اسماء

فاطرقت ولم تحب فجننا سعيد امامها ومد يده الى معصمها واراد ان يمسكه و يتكلم وهو يظن الى وجيها وقد انعكست عنه اشعة لهيب النار . فلم يكدر يس يدها حتى اجملت وجذنها من بين امانلو و بالغت في الاطراق

فقال لها ما بالك يا مليحة ألا ترالين نجافيني و انت تعلمين اني أمير هواك فهل انت خائفة ان لا تلاقي في منزل محك الاكرام الذي يليق بك . و لكنك لا تلبثين ان تنزلي في بيتك بالبصر او في الكوفة حتى تشعري بالعادة التي نتظرك هناك ما لا يتأتى لاحد سواي ان يهيك اياه فهناك تجددين المخدم والحشم والدور والمنازل والحبل والمماشية والملابس الفاخرة وكل اسباب الراحة . . . ألا تمنين علي بنظر تدل على رضاك

وكان سعيد يتكلم وعيا اسماء شاخصتان الى تلك النار الموقدة بحاسب هودجها ولا يحاكيها في ذلك الليل الهادي. الا بيران قلبها الممتدة حماً لمحمد وغيره على الاسلام وقد ازدادت انتقاداً وحنّة لما سمعته من كلام ذلك الشاب وارادت ان توحه وتردعه ولكنها علمت انها اذا فعلت ذلك عرست نفسها للخطر السريع فتنهدت وظلت صامتة

اما هو فظن تنهدها دليلاً على تأثرها من كلامه فانتمس وسحب نحوها وهو لا يزال جاتياً ومد يده ليمسك انا ملها وهم بالتكلم فحذبت يدها منه ونظرت اليه والشرر يكاد يتطاير من عينيها ثم اعرضت عنه وهي تحرق اسنانها. فانتمس هو وهش وقال سغمة المحب الوهان " بالله الا رحمت قلبا قيدته سلاسل هواك . الا رفعت له نلتة الا ردت لظاه بكلمة . قولي يا اسماء . قولي انك راضية بي عداً رفاً واما اكرس حياتي لخدمتك . والله ابي لم اقل هذا لأحد قملك تعطي بالله وارفي كفى سكوتا واعراضاً اعلمي يا مليحة اسي اما اريد سعادتك وان الله ساقني اليك لحس حطك وحضي . وان اس ابي بكر ليس اهلا لك ولا هو يستحقك ولسوف تربس ما يحل به اذا احندم القتال ونصا دمت السال "

فلم تعد اسماء تستطيع صراً على ذلك بعد ان سمعت التعريض بمحبد وحدتها نفسها ان تصفعه على وحيه ولكنها كتبت غيظها بالرغم عنها وعمدت الى توبيخه فقالت بنغم واطىء وصوت رخيم " ابي لا اراك اهلاً للزال "

فسر سعيد لكلامها وان يكن توبيخاً لانه رجا ان يتصل بالحديث معها الى استرضائها فقال " وما ادراك يا فانتني اني غير اهل لذلك "

قالت وهي تنظر اليه بظفر التوبيخ " لان الرجل الذي يقطع الديباني والفنار طلباً للنار او نصره للحق على ما تزعمون لا يرتكب جريمة التزوير ومن كان حرّاً صادقاً يلقي الرجال في حومة الوغى لا يخاطب فتاة لا يعرفها بل هو يعلم انها تحب سواه "

فحنى الرجل رأسه عند كلامها وقال " لقد صدقت اينها العذراء اني ارتكبت التزوير ولكنني لم افعل ذلك في عمري كله غير هذه المرة وما فعلته الا التماساً لقربك اذ لم يكن لي اليه غير هذا السبيل فانا استغفر منك عن هذا الذنب "

قالت " انك انما اذبت الى غيري فان كنت رجلاً فالق محمداً واستغفره فاما

ان يغفر لك واما ان ينازعك فزرى من هو الرجل «
فجلس سعيد ودنا منها حتى كاد يلامسها ومد يده فقبض بواحدة على زندها
وجعل الاخرى على نقابها واراد ان ينزعها . فجذبت يدها منه ووقفت وقد اخذ
الغضب منها مأخذاً عظيماً وقالت « ابتعد عني ولا يغرنك سكوتي ومرضي والله اذا
مددت يدك اليّ كسرتها نصفين »

فصحك سعيد وقال « لا تغضي يا حبيتي فاني لم افعل شيئاً يفضيك ولكنني
استرضيك واستعطفك فافقي من غيبتك ولا ترفضني نعمة اعم الله بها عليك »
قالت وهي تغفر للغروج من المودج « اذا كنت تزعجك انك تريد رضاي فاعلم
انك تطلب عثاً . واذا حدثت نفسك سوطر تغويه فاعلم انها تحدثك باطلاً وان
احترقي في هذه النار ايسر عليّ ما تدعوني اليه »
فقال وقد حار في امره وهو يكظم غيظه ولا يزال يرجو رضاها « تهلي يا حبيتي
وتصيري في ما اقول لك ولا ترفضني النعمة التي اعرضها عليك باسم الحب »
فقالت بنعمة جافية « لا تنطق بالحب فانك تتكلم باطلاً ولا تستعظم قوتك
ونستكثر رجالك فان ذلك لا يرهني »

الفصل التاسع والخمسون

* الاصرار على الفتك *

فلما رأى منها هذا الاصرار وقف على قدميه بغتة وصاح فيها صيحة دوت لها
الاودية في ذلك الليل الهادي وانتهرها قائلاً « اراك قد بلغت في القحة واستغنفت
بي وانت تعلمين انك اسيرة بين يديّ » قال ذلك وامسك بيديها وجذبها اليه .
فشعرت كأن قوتها تضاعفت ونسبت ضعفها ومرضها وانتفضت من بين يده ورفسته
برجلها فارسلته سطيحاً على الارض واعرضت بوجهها عنه

فهب من وقعته وصاح برجاله فنجبهروا حول اسماء وقبض بعضهم على يديها
والبعض الآخر على كتفيها فتملصت من بين ايديهم وصاحت فيهم قائلة « عار عليكم
وانتم رجال مسلمون ان تجبهروا على فتاة عزلاء لاسلاح معها »

فصاح سعيد فيهم « قيدوا هذه الخائنة وشدوا ساعديها »
ف قالت « ما الخائن إلا أنت يا نذل الرجال أنظن القيود تقيد شيئاً من حربي »
قالت ذلك وهمت بعضاً من عصي الهودج استلنها وهجمت على الرجال فنفروا من
امامها ثم عادوا وتكاثروا عليها وفيما هي تحاول مدافعهم عثرت رجلها بعقال الجمل
فوقعت على الأرض فاسرعوا اليها وحاموا حولها كما تحوم النور حول الجثة وشدوا
وثاقها وهي لا تبالي بما يفعلون وسعيد واقف يشنّض من شدة الغيظ وأمرهم أن
يلتوثوا في الهودج ويربطوها به ففعلوا

فلما أيقنت أسماء بالخطر القريب ترففت الدموع في عينيها وصاحت « آه
يا محمد ابن أمت ... يا ويل الابدال اللئام الذين لا ذمة لهم ولا ذمام »
فلما سمعها سعيد تنادي محمداً ضحك ضحكة بمخالطها ارتعاش الغضب وقال
« لا تذكرني محمداً ولا ترجي نجاة من هذا الأسر » ثم امر رجالة فترقوا فدما منها وهي
في تلك الحال وعاد الى الملاينة والملاطمة فقال « كيف ترين نفسك الآن الا ترجعين
عن غيك وتقبلين نصيحتي . ها انك اسيرة بين يدي وحياتك رهينة اشارتي الا اذا
اجبت سؤالي فتصيرين انت الامانة الناهية . قولي انك رضية بي . قولي انك تحبيني »
فصاحت به قائلة « لا لا لا احبك اذهب عني يا شيطان ولا ترني وجيك »
قال « الا ترالين على عنادك وروحك في قبضة يدي »

قالت لا تهددني بالموت فانه خير ما اتوقعه ... اقتلني وارحني من هذه الحياة
قال لا لا اقتلك بل اذيتك العذاب ... لا بل اعيد العنق ثانية وادعوك
الى حيي . قال ذلك وجلس عند رأسها ومدّ يده الى شعرها ولم يكذب يمسّه حتى اقتشر
جسمها واشتفضت وكان الوثاق محلولاً من بعض اطرافه فتملصت يدها فاستفرجت
ذراعها ودفعت يده بعنف فخاف ان تنزك به فجرد حسامه وهوم به عليها فوقفت
وذراعها الاخرى لا تزال مشدوده فاخططن السيف من يد ففطعت به بقية الحمل
واغارت عليه ففر من امامها وبادى رجالة فاسرعوا اليها فاصابت احدهم
بضربة على عنقه فخرّ قتيلاً وقمت بالماقيس فتكاثروا عليها وهمافتوا بالرماح
والحراب والسيف فاصابها ستان في زندها فوقع السيف من يدها ووقعت على الأرض
مغشياً عليها من شدة الألم فاسرعوا اليها وكنوها وهي لا تعي . فلما رآها سعيد غائبة

امر بالماء فرشوها به حتى افادت . فقال اتركوها الآن ربنا تستريح وهو يحسب انها
ستدعن الامر . فسكت عنها برهة وهو جالس بالقرب منها يعلل نفسه برضاها بعد
ما اصابها من الصنك

واما هي فكادت لا ترداد الا مرة منه وبأسا من الحياة ولما رأت ما هي فيه من
الخطر الاكيد علم عليها الامر فلم تمالك عن الكاء والشهيق
فدما سعيد منها وقال بنغمة الخافر " والآن يا اسماء كيف تربى نفسك "
قالت لا اراي الا ازداد نفورا منك اذهب من امام عيني
قال يا للعجب بعد هذا كله لا تزالين نرحبن خلاصا

قالت " لا اارجو خلاصا ولا اطلب غير الموت فانه غاية ما ارجوه ولكن
آه " قالت ذلك وعادت الى الكاء وهي تقول " ابن است يا محمد . . . ارنى
وجهك قبل المات ولو لحظة "
فلما سمعها تذكر محمدا انقادت الغيرة في قلبه وعول على الفتك بها فحرد

حسامه وقف فوق رأسها فمضرت الى السيف وضوء اللهب يعكس عنه فيلمع
فابتنت انه قاتلها لا محالة فصاحت " ابن است يا محمد يا ابي كبر زودني نظرة
ملك قبل المات "
فقال سعيد " انظرين ابي اقلبك الآن لا لا تعلي نفسك بهذه الامنية فاني

ساميتك صلتا " وأشار الى بعض الوقوف من رجاله فرمى بها عن الارض واوقفوها الى
شجرة من السنط الصقل طهرها بها وشدوها اليها شدا وثيقا وكان في حزر الشجرة
توات واشواك اصابت يديها فالتفتا لكنها لم تكن تنالي شيئا في جانب ما شعرت
به من التوق لرؤية محمد في آخر ساعة من ساعات الدنيا عندها فاسفت كيف
انها ستنارق الحياة ولا تراه . وكانت تفكر في ذلك وهي تنظر الى ذلك الافق
المألم الذي لا يبر فيه غير تلك النار الموقدة بين يديها

اما سعيد فتركها مشدودة الى السنطة وذهب هو ورجالها يلتمسون الراحة او
الماء وظلت هي مصلوبة تنظر نارة الى الافق وطورا الى السماء وآونة الى النار امامها
وهي غارقة في بحار الهواجس وحدثتها نفسها ان تلين لسعيد وتعد خيرا ربما ترى ما
يجي به القدر ولكنها علمت انه لا يكتفي من رضاها بالكلام فقط فعادت الى هواجسها

وهي تنظر الى النار فرأيتها قد اخذت بالحديد فخافت ان تنطفئ . ولا يبقى ما يؤاسيها . على ان خودها جعل الافق أكثر ظهوراً لديها فقد كانت لا ترى فيه الاّ ظلاماً دامساً فلما خمدت النار ظهر في اطرافه بعض الاشباح من الشجر او اللال وكانت لمرط فلقها تحسب الاشباح اناساً قادمين لانقاذها



الفصل الستون

* باب الفرج *

وفيما هي تنظر الى الافق رأت هناك اشباحاً تتحرك فتفرست جيداً فاذا هي هن وافراس قليلة عليها رجال فاستأست بهم وهمت ان تستصرخهم فمنعها الانفة وعزة النفس فقالت في نفسها « اذا كان لي نصيب بالحياة اتى اولئك الركب لانقاذي بالهام من الله »

اما سعيد فقد كان ساهراً وهو يتوقع ان تسترضيه اسماء فرأى عند الافق اشباحاً وعلم ان ناره ستهديهم اليه فامر باطنائها فلما رأت اسماء الرجال يهتفون باطفاء النار ايقنت انهم خائنون فقالت في نفسها عسى ان نفع عاقبة خوفهم على رؤوسهم واستبشرت بالفرج . على انها لم تكذب تنعل حتى رأت سعيداً قادماً نحوها والحسام مجرد في يده وصاح فيها وهو يحسبها لا ترى احداً قادماً وقال « هل لان قلبك الان ام ماذا » فلم تحب . فقال « قولي . . . احبي . . ان حياتك بين شتيك فاما ان تصيري سعيدة واما ان يجري دمك على حرع هذه الشجرة . . قولي حالا »

فخبرت بماذا تجيبه وهي تعلم انها اذا اجابت بالرفض ضربها بالحسام وهي مشدودة الوثاق فرأت المماطلة خير ذريعة لنجائها ريثما يصل اولئك الركب عسام ان يجلدوها . فلم تحب

فادرك سعيد قصدها وخاف اذا انتظر جوابها ان يصل الركب فشرع الحسام بيده وصاح بها « قولي حالا فاما ان اسمع صوت قولك واما ان اسمع صوت حسامي على عنقك »

فعظم عليها هذا التهديد وهجرها التعقل فقالت « لا لا لا ارضى فاضرب عني والله يجزى الظالمين . . . ثم صاحت آه يا محمد يا ابن ابي بكر ابن انت . . . آه لو تعلم مصير اسماء »

فلما سمع سعيد رفضها نزل بالسيف على عنقها ولكنها لانشلو واضطرابو حاد سينه قليلاً فوقع على كنفها ولم يصب غير الحبال وهي مجدولة من الياف النخيل فقطعها ولم يزد فأنحل وثاق اسماء وهي لا تدري وكانت تتوقع الحيام فلما رأت وثاقها محلولاً ظنت نفسها في منام ولكنها ما لبثت ان ادركت انه خطأ الضرب فتولت اليه وهي كالاسد الكاسر لفرط غيظها منه فلما رأى انطلاقتها زاد فشله وصاح رجاله فتكاثروا حولها بجراهم وسبوفهم فصاحت فيهم « اما فيكم من يرعى الذمام ويخاف من الله » قالت ذلك ولاحت منها التئانة فرأت الركب قد اصبحوا على قاب قوسين منها ولم تكذب تصيح تلك الصيحة حتى سمعت صوتاً كالرعد القاصف وقع في اذنها وقوع الماء على قلب الظمان ألا وهو صوت محمد بن ابي بكر يقول « لييك يا اسماء لقد جاءك النرج . . . اخسأوا يا اندال »

أما هؤلاء فحالموا سمعوا صوت محمد ورأوا معه رجالاً آخرين حولوا وجوههم واركنوا الى الفرار بما استطاعوا حملة ولم تمض هنيهة حتى غابوا عن الابصار وقد تركوا اسلابهم وبعض جمالم والهودج

ولا نسل عن اسماء وما حل بها لما سمعت صوت محمد فانها لبثت مدة صامتة تحسب نفسها في منام حتى دنا هو وناداه « اسماء » فقالت « محمد . آه ابن كنت يا حبيبي ألع الله بعثك بمجعة لتجاني ام انا في منام »

قال « بل انت في يقظة . ما الذي اصابك . هل فيك من بأس »

قالت لا بأس بي غير جرح خفيف في زندي اصابي وانا ادافع هؤلاء اللئام ولولاه لقتلتهم جميعاً ولكن السيف سقط من يدي وعثرت بعقال الجمل فشدوا وثاقي . قالت ذلك والتنتمت فرأت مع محمد رجالاً آخر لم تعرفه فنجحت لما ابدته من عواطف الحب فأدرك محمد ما بها فقال « لا تستعري رفاقي فان هذا محمد بن جعفر ابن اخي امير المؤمنين وهؤلاء خدم سائرون في ركابنا الى الكوفة وقد جئنا بهمة في خدمة امير المؤمنين فاجاسي الآن واسترحمي وقصي علينا خبرك » فجلست وجاسا

ومحمد ابن جعفر يعجب لما يبدون من همة تلك الفتاة وكان قد سمع من محمد عن حديثها وغيره على الامام وعلى الاسلام فاحبها بمجرد السماع فلما رأى فيها تلك الحمية سر لسماع حديثها فجلسوا وقصت اسماء ما جرى لها وما شاخصان بزيادة اعجاباً .
وقص محمد ما تم له بعد مجيء كتابها وقضوا نية ذلك الليل بالاحاديث وقيل النجرا أغضت اجنانهم ساعة فاستراحوا فلما انسلج الصبح وافاقوا من منامهم نظروا الى ما حولهم فاذا بقايا الهارين وفيها كثير من الزاد والآنية وجثة ملقاة عن بعد فنظر محمد اليها وسأل اسماء عنها فقالت انه احد اولئك الطعام ادركته بصرية ذهبت بحياته

فقال بورك فيك فنحن الآن ذاهبون الى الكوفة وهي على مقربة ما فهم بنا اليها نقضي مهمتنا ثم نعمت بك الى المدينة تقيم فيها ربنا تنقضي الحرب فقالت وهي تنظر اليه نظراً العاتب « العل كتابي لم يصلك »

قال بلى وصلني
قالت فكيف تدعوني الى الإقامة في المدينة وقد عاهدت نفسي على نصرة الامام علي جهد طاقتي

قال لقد جاهدت وسعك وانت مريضة
قالت لا بأس بي باذن الله
قال فلنذهب معاً الى الكوفة ثم يرى ما يكون
قالت لا ارى في ذهابي اليها فائدة
قال ماذا اذا

قالت « انت تسير في مهنتك واما انا فاني اسير الى اخنك ام المؤمنين في البصرة عساي ان اتوفى الى اقناعها ببراءة الامام علي فتكف عن الحرب حجباً لدماء المسلمين وفراراً من سوء العقبي . ان الامر لا عظم مما تصوره يا محمد وقد آليت على نفسي ان اضحي كل شيء في سبيل دفع هذه الفتنة »

فاجاب محمد ومحمد بحبيبتها فقال لها ابن ابي بكر « ولكنني لا اظن سعيك الا ذاهباً عبثاً »

قالت علي السعي وعلى الله التدير . . . وابن في الطريق الى البصرة

قال اذا كان لا بد من ذهابك اليها فاني اصحبك بخبر من رجالي يسير في خدمتك الى حيث نشائين . قال ذلك وبأدى مسعوداً وكان في جملة من صحبه في هذا السفر فجاء مسرعاً فقال محمد هه اسماء التي حملت اليّ كتابها انها سائرة الى البصرة فاوصلها الى معسكرام المؤمنين وعد اليّ بالبحر في الكوفة
فنهضت اسماء للحال وامرت مسعوداً ان يهيئ الجمل . فقال ألا تركين الهودج قالت لا ليس هو وقت التمتع اركني جملاً خفيفاً
قالت ذلك ونظرت الى محمد قائلة ان الوقت ثمين يا محمد فلنسر في مسعانا عسانا ان نتوفى الى ملافة اللينة كما اخبرتك
فنهض محمد وركبوا جميعاً . فسارت اسماء ومسعود نحو البصرة ومضى الباقون نحو الكوفة وهم يعجبون لما آسوه من تهامة اسماء وحجبتها وغيرها

الفصل الحادي والستون

* خطر آخر *

وسارت اسماء وهي تسحب جملها ومسعود سائر على جملة امامها ليهديها الى الطريق فضى معظم النهار ولم يستريحوا ولا تناولوا طعاماً فلما كان الغروب سالت اسماء عن البصرة فقال انها على بضع ساعات منا فارى ان سبت ههنا الليلة وصبح فنصاح المدينة قالت لا صر لي على الانتظار هلم بنا ولا بأس من وصولنا الى البصرة فنقيم في المريد
قال ان جيش ام المؤمنين مخيمون هناك
قالت سر بنا على خيرة الله فاني انما اقصد معسكرها
فلم يستطع مسعود مخالفتها وظل سائراً يتلمس الطريق تلمساً لان الليل كان حالكا وانفق مع ذلك هبوب الريح وتلبد الغيوم فلم يعد يرى الطريق امامه ولا النجوم حتى يهتدي بها ولكنه رأى نوراً عن بعد فعلم انه نور دير لبعض النساطرة كان قد زاره في بعض خطراته في تلك الانحاء . فجعل ذلك النور وجهته واسماء سائرة في اثره وها صامتان لا يسمعان الا وقع اخفاف الجبال اما على الحجارة فتترقع واما على الاشواك والادغال فتخش خشباً

وكان مسعود منشغل المال لمسيرها في ذلك الظلام وخاف ان يعترضها وحش اويهيوا في هوة وقد عجب انجاعة اسماء وتحملها مشقة ذلك السر . على انه ما عنهم ان سمع طنين سهم مرسل في الجو مرَّ امام عينيهِ فحنل واقعنسس وصاح قائلاً « من ذا الذي يريد غدرنا » ولم يتم كلامه حتى سمع اسماء تقول « آخ . . قتلني قتلك الله » فعلم ان السهم اصابها فتحوّل اليها وقال « ما مالك يا سيدتي ما الذي اصابك »

قالت « اصابني سهم في جنبي واطنّ قتلني » فترجل عن جملة واباح حملها فاذا هي تسند جسها بيدها والسهم لا يزال مغروساً فيه فزعزعة مخنّة فصاحت صيحة دلت على شدة تألمها فتخبر في امره وخاف ان تموت اسماء بين يديه في ذلك الفتر المظلم فوضع يده على جرحها وضغطه بكنفه وهو يرتعش من عظم التأثر ثم سأها عن حالها فقالت « اني مقتولة لا محالة . اظن ذلك النذل قد كمن لنا في هذا الطريق » وارادت التكلم فارنج عليها فلم ير مسعود خيراً من ان يحملها على حملهِ ويسرع الى ذلك الدبر لمعالجتها . فاردفها خلفه وساق جملة وقاد حملها وراءه واسرع الى الدبر ولم يصدق انه وصلة فاذا هو مقفل وسوره عال لا يمكن احتيازه فتذكر ان الديور يعلقون فوق ابوابها اجراساً يدقها من يمين طارِقاً فاهتدى الى الحبل فشده فطنّ الجرس فلم يجبه احد فكرر الدق بعنف وصر هتية فسمع صوتاً جيورياً يقول « من الطارق » فاجاب مسعود قائلاً « افتح ناشدتك الله واسرع الى اغاثتنا » فقال من انت

قال اننا غرباء في اشد الضنك افتح رعاك الله . قال ذلك وصبر فلم يعد يسمع صوتاً وانصرف فكنّ الى اسماء وهي منطرحة عند عتبة الباب نعنّ عينا عميقاً فامسكها بيدها ويد تترجف خوفاً عليها فراها باردة فحسّ جرحها ففاصت انامله في الدم وكان قد نخذ وملاً ثوبها فحاول اجلاسها ليتحقق صحوها فاذا هي تنخر وقد ارتخت مفاصلها فزاد اضطرابه وهم ان يصيح ببواب الدبر فرأى نوراً اشفق من كوة فوق الباب فالتفت فرأى راساً عاربياً قد وخطه الشيب فايضاً بياضاً باصعاً قد اطلّ من الكوة والمصباح في يده ينعكس بوره عن طينتيه البيضاء وهو يقول « اصدقنا ايها الطارق من انت »

فصاح مسعود قائلاً « انا غرباء ومعى مريض مشرف على الموت انجدنا جزاك الله خيراً »

ولم يتم مسعود كلامه حتى سمع صوت مزلاج (سَنَاطَة) كأنه شدَّ بمجلٍ فانفتحت خوخة صغيرة في وسط ذلك الباب المصنوع بالحديد فرأى مسعود انه لا يستطيع الدخول من الخوخة واسماه في تلك الحال فتقدَّم الى الراهب ان يفتح الباب كله وأشار الى ما بين يديه فاسرع الراهب بخنقه مع شيخوخته وجرَّ عضادة ضخمة من خشب كانت وراء الباب ففتحهُ وساعد مسعوداً في نقل اسماء الى اقرب غرفة هناك واجلساها على الفراش وخفَّ الراهب الى رئيس الدبر ليخبرهُ الخبر . ولم تمض هنيهة حتى جاء الرئيس وهو شيخ هرم قد رق بدنه وتجدد جلد وجهه واكتسى بالشعر الابيض على خنقه ولكن عينيه ما زالتا تنقدار نوراً وصحة وقامتة معتدلة تدل على نشاط وهمة . فتقدم الرئيس الى الفتاة وهي ملقاة على الفراش وسأل مسعوداً عما بها فقص عليه الخبر مختصراً . فادارها على جنبها الصحيح واخذ في كشف الجرح فحوَّل مسعود وجهه عنها حياءً وحشمة واشتغل الرئيس وراهنه بغسل الجرح وتضميده وامر بلبن غسلة به ثم صب عليه ماء مقدساً يحتفظون به امثال هذه الحال وربطه وامر بملائة من نسيج العباء فغطاها بها التماساً للدفء ورش وجهها بالماء المقدس ودهنه بزيت من مصباح الدبر المضيء امام صورة المسيح وهو يدعو الى الله ان يقرب الشفاء . فأفاقت اسماء هنيهة ولكنها لم تنقل شيئاً ثم عادت الى العنين . وكان رئيس الدبر وهو يغسل وجه الفتاة يتأملها ويتفكر في ملامحها كأنه تذكر شخصاً يشبهها . وهو في اثناء ذلك يعتذر لمسعود عن تأخر الراهب في فتح الباب لتخوفهم من بعض الطارقين الذين كثروا يومئذٍ على اثر قدوم جند مكة الى البصرة ووقوع بعض المواقع الحربية . فلما فرغ من تضميد الجرح تحوَّل الى مسعود فسأله « من الفتاة »

فقال « انها فتاة لبعض كبار الصحابة . ولم يزد »

فاعاد الرئيس نظره اليها وادنى المصباح من وجهها وكان قد امتنع ونحل وهي مطبقة العينين كأنها في سبات وقال « فهي اذاً مسلمة »

قال نعم

فلمح الرئيس في صدرها حجاباً اعتاد النصارى تعليقه في صدورهم وكان زندها

مكتشفاً فرأى عليه رسم الصليب فالتفت الى مسعود وقال " ولكني ارى عليها بعض اشارات النصرانية "

فملّ مسعود من تدقيقه وهو لا يهتم ساعته الا شئناؤها فقال " لا ادري يا سيدي سوى انها مسلمة فلعل لتلك الشارات سبباً لا اعلمه "

فسكت الرئيس وجلس على مقعد بالقرب من فراش المريضة وهو تارة ينظر الى وجهها وطوراً يطرق متأملاً كأنه يبحث في ذاكرته عن شخص يشبهها

ثم نظر الى مسعود بغنة وقال له امضي يا بني الى غرفة الاضياف اذا تثبت طعاماً ثم اذهب الى رقادك متأملاً فلا يصح على هذه اللئاة قليل حتى نحمو ونتجسس صحتها بقوة الله وبركة صاحب هذا الدبر

فقال مسعود اني لا اشعر بالخوف ولا انا في حاجة الى الرقاد واتصل القاء هما لارى ما يتم لها

قال لا حاجة الى ثنائك ولا نأس عليها لاساً ما مسحاً حرجاً او مريضاً بهذا الماء المقدس الا شاء الله اذهب الى فراشك واذا تثبت القاء خارج هذه العرفة فلا نأس

فاستخيا مسعود من تكرار الاعتذار فخرج وجلس على حصير وراء العرفة اما الرئيس فحلماً خلا بالراهب حعللاً يتساراً ويتخطبان لسان نصارى العراق (الكلداني) ويتيران الى اسماء . وكان مسعود لقلقه لا يفعل عن كل حركة تحدث فاشغل باله لتلك المسارة واصاخ سمعه فلم يهتم من كلامها شيئاً . فحعل برصد ما يبدو منها فاذا الرئيس امر الراهب فخرج ثم عاد وبين كتاب ضم فخه وقرأ وتم تم ركع الاثنان فعلم انها يصليان . فلت ريثاً فرغاً من الصلاة وقاما فرأى الرئيس دنا من اسماء وهو يمسخ الماء عن جبينها ويتأملها ثم جلس الى جانبها ولست ينتظر ما يبدو منها . وبعد هنيهة تحركت كأنها تعول عن احد جنبتيها الى الآخر وما كادت تعول ذلك حتى صاحت من الالم . فسرّ مسعود لصباحها لعله انه بدل على الصعو فدخل العرفة فرأى اسماء قد فتحت عينيها ونظرت الى ما حولها فوقف بصرها عند وجه الرئيس وحاولت التفرس فيه ولكن الضعف غلب عليها فذبلت اجفانها وأطمننت عيناها فعادت حالاً الى الرقاد . فأوماً الرئيس الى مسعود بيده وملاح وجهه

وهو ينسم كأنه يقول « استبشر بالخير انبها قد افقت » . فانسط وجه مسعود وظهر
الشر عليه وتوسل الى الله ان يتم شئها مخافة غضب محمد بن ابي بكر . وقضت
نقية تلك الليلة راقدة وتنسها هادي

وفي الصباح بكر مسعود الى غرفتها فرأى الراهب الشيخ الى جانبها يهتم بالكشف
عن الجرح وتديل رباطه فتحول حالاً حتى اذا فرغ الراهب من عمله نادى
مسعوداً فدخل ونظر الى وجه اسماء فاذا هي قد افقت وفتحت عينها فحمد الله ودنا
منها فلما رأته قالت له « آه من ذاك النذل الذي عجز عن مصادرتي وجهها لوجه
فاراد قتلي غدراً ولو كان رجلاً لظهر نفسه وطلب البرازو الطمان » قالت
ذلك وحرقت اسمائها

فقال مسعود لا بأس عليك يا سيدتي ولا تعباي بما فعله هذا الفادر على اننا
لا ندري اذا كان هو الفاعل

قالت لا ريب عندي انه هو بعينه والا فمن يعرفنا في هذه الديار سواء . .
هو هو بعينه فحمد الله

قال مالنا وله فإرأبك بي هل اذهب لآخبر مولاي محمداً بما وقع ليأني
لا عائلتك . . .

فقطعت عليه الكلام قائلة « لا لا لا نعمل لاني اخشى اذا علم بما حل لي ان يسعى
اليّ ويهمل مهمته التي انفذ امير المؤمنين لفضائها وهي تتعلق بمصلحة عامة المسلمين
فلا يليق ان تشغل عنها بحياة فرد من افرادهم . وزد على ذلك اني بحمد الله
مستريحة لا اخالني بعد ايام قليلة الا راكبة جملاً او جواداً الى معسكر ام المؤمنين
او دي المهمة التي انتدبت نفسي لها » . قالت ذلك واصعدت بصرها الى فوق وأشارت
بيدها كأنها تقول « فقدّر لي الله ان اقف هنا في هذه الحالة » وشفت اشارتها بدمعين
كبيرتين انحدرتا على خديها ثم التفتت الى ايقونة معلقة بالحائط امامها شغلت نفسها
بالنظر اليها

وكان الراهب في انشاء ذلك منشغلاً براءة درج (رق) في يد فيه فرض من
فروض الصلاة

اما مسعود فلما سمع كلام اسماء وشاهد الدمع ينحدر من عينيها على تلك الصورة

ناثر من منظرها واستعظم كتمان حالها عن محمد فنال لها كيف اكتم عنه حالك وقد عهد اليّ العناية بك

قالت « افعل ما اقول لك . اتركني هنا واذهب اليو لعله يجناج اليك في شيء واما انا فلا بأس عليّ في هذا الدبر فان اصحابه اهل ضيافة ورعاية وقد صرت على مقربة من معسكر ام المؤمنين وبعد بضعة ايام اتفه من جرحي فاذهب اليها والانكال على الله »

فتركها وذهب الى غرفة الرئيس فراه خارجاً فسأله عن رأيه في حال اسماء فطأ به ان جرحها خفيف لا خوف منه وتعهده ان يتولى العناية بها حتى تشفى فاطمان خاطره ومكث هناك الى مساء ذلك اليوم وبات الى الصباح التالي فرأى اسماء قد تحسنت حالها فارتاح اليه فودعها ومضى وهي تلح عليه ان يطمئن محمداً عنها

الفصل الثاني والستون

﴿ عودٌ الى السر ﴾

اما رئيس الدبر فكان قد قضى نهار الامس وليله وهو ينظر الى اسماء ويجهد فكره في تذكر ما يعرفه عنها او عن بشيها فلم يهتد . فلما خرج لوداع مسعود عاد الى اسماء وكانت قد نعتت من الرفاد فجلست في الفراش . فلما دخل الرئيس نظرت اليو وتأملت وجهه فنذكرت انها رأتها مرة قبل ذلك الحين في دمشق يوم سفرها منها مع والدتها الى المدينة . وكانت قد لحظت اشتباهاً بها منذ دخولها الدبر . فلما عاد من وداع مسعود جلس على طنفسة بقرب فراشها فنظرت اليو وقالت « ألا تذكر يا حضرة الاب المحترم انك رأيتني قبل هذه المرة »

قال هذا الذي شغل بالي منذ رأيته بالامس ولكنني لا اذكر ابن رأيته

قالت اظلك رأيته في دمشق في العام الماضي

فلما سمع قولها انبسطت سحنته وتدرس في وجهها وقال للحال « نعم نعم . . شاهدتك مع والدتك وقد جئتما الى كنيسة ماري بوحنا في دمشق لزيارة القسيس مرقس الشيخ

البار . . . نعم اذكر ذلك . . . ابن هي والدتك «
فلما سمعت اسما ذكر والدتها ترفقت الدموع في عينها فبادرت الى مسحها
بطرف كفا وسكنت

فادرك الرئيس ان هناك امراً عروناً دعاها الى البكاء فسكت لحظة ثم قال
« وهل اصاب والدتك سوء »
فقال وهي تنكي « نعم يا سيدي انها ماتت . وأسفاه عليها ولولا ماتها . . . »
قالت ذلك وشرقت بدموعها

فاطرق الرئيس برهة ونظر الى الراهب وكان لا يزال جالساً وأشار اليه ان يخرج
من الغرفة ففعل . فلما خلا الرئيس باسماء جعل يحفف عنها ويعزبها ويلتمس صبرها حتى
هدأ روعها ثم قال لها « وهل عرفت انك »

فلما سمعت سؤاله توسمت من وراء نوراً اعلمها بهندي به الى استطلاع ذلك
السر الذي كانت نظمه دفن مع والدتها . فقالت « لا يا سيدي لم اعرفه وهل
انت تعرفه » فسكت برهة ثم قال « لا يا ابني ولا انا اعرفه ولكن . . . » وسكت
فقال « ولكن ماذا . . . قل يا سيدي ان معرفة ذلك تنهني كثيراً وقد كنت احسب
امر والدي الحقيقي مكتوماً عن كل بشر سوى والدي . ولما توفيت حسبته ضاع
ودفن معها . فكيف عرفت انت ان والدي مجهول وقد كان ذلك سرّاً مكتوماً عن
كل انسان على ما اعلم فاطلاعتك عليه يستلزم معرفتك حقيقته . فهل انت عارف
شيئاً . . . قل لي وافرج كرتي » قالت ذلك لهفة وقد نسيت جرحها وضعفها

فلبت الرئيس الشيخ برهة صامتاً وهو يمشط لحية باصابعه كأنه يكتم امراً ودّ
لوانه لم يفتح عليه باباً للسؤال عنه . ولكنه لما رأى اسما تحاطبه بهذه اللفظة قال لها
« صدقي يا ابني لا اعرف من هو والدك ولكنني اعلم ان الذي كان مع والدتك
يوم رأيتك في كنيسة ماري يوحنا بدمشق ليس هو والدك الحقيقي »

قالت وهي تخفض صوتها احتراماً لمقام الرئيس وشيخوخته « وكيف عرفت ذلك
يا سيدي . ربما لا يهمك امر هذا السر مطلقاً ولكنه يهمني كثيراً لانني علمت ان يزيداً
الذي كان مع والدي (رحمهما الله) ليس هو والدي الحقيقي وان لي أباً غيره كانت
والدي قد وعدتني بذكر اسمه بعد وصولنا المدينة ففضى الله بومتها قبل وصولنا واحسرتها

عليها . . . فظلمتُ مَهْجُولَةَ النَسَبِ . واطن الله قد اراد كشف هذا الذل عني على يدك »
قالت ذلك وهمت بتقبيل يده وهي تقول « انوسل اليك ان تطلعي علي ما نعرفه من
هذا النيل »

وكانت هي تتكلم والرئيس الشيخ مطرق فلما فرغت من كلامها رفع نظره اليها
وقال « قلت لك يا ابنتي اني لا اعرف من هو والدك واما كيفية اطلاعي على ذلك
فاني اقصد عليك لعله يفيدك في شيء »

فاعندلت اساءه في مجلسها ويدها على جنبها المروح تضغط عليه تخفيها للام واصغت
لما يقوله الرئيس

فقال « اتذكرين يوم جاءت والدتك الى كنيسة ماري بوحنا في دمشق وكنت
استمعها فتركنتك مع والدك خارجا ودخلت هي لوداع القسيس مرقس قسيس تلك
الكنيسة ثم خرج ذلك القسيس الشيخ لوداعك فهل تذكرينه »
قالت نعم يا سيدي « اذكر ذلك الشيخ الهرم وخروجه لوداعا »

قال الرئيس « وقد كنت اما بومئذ زائرا عنده فلما عاد الي رأيت على وجهه آثار
البغته فقلت ما بالك يا حضرة القسيس فقال « ان هذه المرأة سرا عهدته الي منذ بضع
وعشرين سنة وهي الآن شاخصة الى المدينة لتبيع به هناك واخشى لضعفها ومرضاها ان
تموت قبل وصولها . فاذا حدث ذلك ظل هذا الامر مكتوما عدي وحدي واراني
قد ثخنت وربما دنا اجلي فيذهب السرضياعا وهو بهم هذه النثاء » (و اشار اليك)
فقلت له « هل هو سراعتراف » قال « نعم » فقلت « لا سبيل اذا الى كشفه لي ولكنني
اود ان اعرف موضوعه بحيث لا يكون في ذلك ما يعد اباحه » فتردد كثيرا قبل ان
اجابني ثم قال لي « ان هذه النثاء التي تراها مع هذه المرأة هي ابنتها واهل دمشق يظنون
هذا الرجل والدها وهو ليس والدها » فقلت « ومن هو والدها اذا » قال « لا استطيع
كشف هذا السر الآن ولكنه سيظهر بعد قليل لان المرأة منطلقة بنفسها لكشف
امرها لاصحاب الشأن في يثرب (المدينة) لان والد النثاء الحقيقي هو احد كبار المسلمين
هناك . . . »

فبغتت اساءه وخنق قلبها فصعد الدم الى وجهها فتورد بالرغم عن ضعفها ونطاوات
بعثتها لسماع الحديث . فلما وقف الرئيس عند هذا الحد قالت بلهفة « وما هو اسم »

قال « لا اعلم يا ابتي ولم أسأل الفسيس عنه لعلمي انه لا يوح و حفظاً لسر الاعراف فالذي فهمته ان والدك الحقبني انما هو من كبار المسلمين في يثرب »
 فبهتت وقد عاد لوتها الى الاصفرار للهنثها وثأثرها ثم قالت « ولكن كيف يمكن ان يكون ذلك واما لا اعرف يثرب قبل هذه المدة ولم اسمع والدتي تذكرها »
 قال « علمت يا ابتي ان والدك كانت تباليغ في اخفاء هذا الامر عن كل انسان لانها رومانية الاصل حملها بعض قواد المسلمين الذين فغول الشام في جملة السبايا واهداها الى والدك فمكنت عنده بضع ليال ثم قدم عليها اخوها (خالك) خلسة وحرصها على الفرار ففرت الى دمشق ولم تستطع الظهور خوفاً من العيون فبعت مصر . فظهر حملها هناك وقبل ان تضعك التمسيت الفسيس مرقس وكان في كنيسة المعلقة بمصر بوئذ وكانت تعرفه مذ كان في الشام وبنت له هذا السر واخبرته عن والدك . ثم جرت الحروب بمصر ففقهها العرب وقتل خالك ووقعت والدتك في جملة السبايا ثانية وانت طفلة فتزوجها يزيد الذي تعرفينه واقام بها في دمشق وانت معها . فلا نجي لا اغتال والدتك ذكر والدك الحقبني لانها كانت تعتبر نفسها مجرمة وتخشى اذا عرف مكانها ان يقتص منها »

ولم يتم الرئيس كلامه حتى استولت البغته على اساء وتولتها الدهشة ولبنت صامته وهي لا تزال ترجوان يكون الرئيس عارفاً اسم والدها فتوسلت اليه ثانية ان يخبرها به . فاكد لها انه لا يعرف اسمه ثم قال « اذا لغيت الفسيس مرقس في دمشق بطلمك عليه وربما اطلعك على امور كثيرة تفيدك فاسرعي اليه حال شئناك قبل ان ينفضي اجله لانه شيخ طاعن في السن . انظري الى شيخوختي واعلمي اني اذا قيمت الاعمار بالايجال كنت اصغر من اولاده »

وكانت اساء قد تعبت من الجلوس فلما يئست من استطلاع اسم والدها من الرئيس زاد تعبها فالتفت نفسها على الفراش وتنهدت تنهداً عميقاً وهي صامته تفكر في ما سمعته واشتاقته نفسها للسير الى دمشق لعلها تلاقى الفسيس فيقتص عليها الخبر . علي انها علمت ان والدها بعض كبار المسلمين فاخذت تفكر في من عسى ان يكون وهل هو حي او ميت فاستغرقت في مثل هذه المواجس . ولما رآها الرئيس مستغرقة ظنها نبيل الى الرفاد فخرج وتركها فنامت ولا نسل عن احلامها المزججة

الفصل الثالث والستون

* حملة علي *

قضت اسماء في ذلك الدبر اياماً وهي تنقلب على فراش الوجد وهو اجسها تعاضم لا تدري اذا شفيت تسير الى دمشق لمقابلة الفسيس مرقس ام الى ام المؤمنين لانتفاذ مهمتها . وكانت تتمرر لانحباسها في الدبر بالرغم عنها فلم تكدر تستطيع الوقوف حتى صارت تشدد وتخرج الى فناء الدبر تمرن نفسها على المشي

وصعدت ذات يوم الى سطح الدبر فاطلعت منه على سهل واسع رأت في آخره ما يلي الصرة معسكراً فيه الخيام والاعلام وحوله الجبال ترتع في بعض المغارس ومعها العبيد . فعلمت انه معسكر ام المؤمنين في ضاحية الصرة وكان الوقت اصيلاً فجمعت تنكر في ما تنوبه من مخاطبة ام المؤمنين وما تتوقع ان تسمعه من دفاعها ونهي الاجوة اللازمة . وما زالت غارقة في مثل هذه الهواجس حتى مالت الشمس الى المغيب فانجذب بصرها نحوها وقد تعاضم جرماً وتكبرت ومالت الى الاحمرار شأنها قبل المغيب . فانشغلت بالنظر الى الافق والمتعم بذلك المظر البديع وقد نسيت موقعها . ولم تكدر تغيب الشمس حتى احسست اسماء بالبرد فتحولت لتلمس الدفء في الفراش فاسرعت اليه مخافة ان يضر البرد بها

فبانئت تلك الليلة وهي تتوقع ان تصبح نائمة فتتنظر في ما اذا كانت تسير الى معسكر ام المؤمنين ام الى الشام

فلما اصبحت شعرت بانتماش ولكن الضعف مازال يمنعها عن السير وخصوصاً على الجبل او الجواد . فلم تر بداً من الاصطبار ريثما يتم لام الجرح وتنقوى قليلاً فالتفت من رئيس الدبر ان يأذن لها في الخروج للريضة في بساتين الدبر فاذن لها فخرجت وحدها الى البستان تمشي الهويناء فابتعدت عن الدبر مسافة طويلة وهي لا تدري فانكشف لها من الافق قسم كان مستترا وراء التلال فرأت فيه خياماً واعلاماً وجمالاً وعبيداً ولم تكدر تنفوس في ذلك المجمع العظيم حتى علمت انه معسكر الامام علي فحنق قلبها ومشت قليلاً حتى دنت من آمنة صعدت اليها وجعلت

تناً ملة ونفسها تحديتها بالذهاب اليه لعلها ترى محمداً فيو او تسمع شيئاً عن خبره على انها نشاءت من قدوم جيش الامام لانه يدل على اقتراب الحرب وفيما هي غارقة في هذه الافكار سمعت صوتاً يزجر جملاً على مقربة منها . فالتفتت فاذا ببعير سائب يعدو ورجل بركض في اثره يستنجد الناس ليساعده في القبض عليه . فلم يسمع اسماء السكوت مع ضعها فاعترضت الجمل وهو مت عليه ليرجع وكان قد جح بلا برده فهو فظل مسرعاً في سبيله فاغناظت لعدم اكترائو بنهويها فركضت اليه وتعلت بعنو لانه لم يكن له رسن فظل راکضاً واسماء ممسكة عنقه مكنت ذراعها كأيها تنساق للصعود الى ظهره . ولكنهما ما لبثت ار شعرت بخوار قواها واحست كأن شيئاً تمزق في مكان الجرح فعات ان الجرح قد امتح واشتد بها الالم حتى لم تعد تستطيع صرا علىه وكان العبر في اثناء ذلك قد خنت سرعته فادركته صاحبه وامسك بعنقه حتى اماخه فسقطت اسماء الى الارض لانعي من شدته الالم وكان صاحب البعير شاباً من عبد القيس وهي من جملة القبائل التي اتحدت علياً (١) وجاءت معه للحرب . فلما رأى اسماء ساعدته في القبض على بعير ثم رأى ما ألم بها من التعب حتى سقطت خائف النوى شعر انه السبب في ما اصابها فدنا منها واجلسها وقد بهن جهاها واعجبته هيئتها فكلمها فأفاقت ويدها ضاغطة علي جنبها تنفي الالم . ولما رأته ذلك الغريب مجابها علمت انه صاحب البعير . اما هو فحالما نظرت اليه هاب عينها ورأى فيها هبة اوقنته عند حدته وربما كانت نفسه تحدة بشيء فلم يستطع الا تلطف ما بها والاعذار عما اصابها بسببه اما هي فجلدت واغتنت تلك الفرصة لاستطلاع حقيقة ذلك الجند فقالت له « من انت »

قال « من عبد القيس »

قالت ومن هم هؤلاء الجند الذين براهم امامنا

قال اما سمعت بما قام بين الامام علي وام المؤمنين

قالت سمعت وعلمت وهل هذا الجند هو جند الامام علي

قال نعم ونحن في نجدتو لاعنادنا فضله على سائر الناس

قالت وكم هو عدد رجاله
قال عشرون ألفاً بين راجل وفارس^(١)
قالت انعلم عدد جندام المؤمنين
قال اظنهم ثلاثين ألفاً^(٢)
فبهتت وهي تفكر في الفرق بين الجيشين والام يشغلها عن ذلك حتى كاد يسمعها
عن الكلام على انها تددت وقالت ولمن نظن الغلبة منها
فابنسم الشاب وقال لا حاجة بنا الى هذا الظن والامر قد قضي بالامس
قالت وماذا تعني

قال لقد تمّ الصلح وانصرف العداء

فبهتت اسماء ولم تصدق مقالة فقالت « وكيف ذلك اصدقني الخبر » وشعرت منذ
سمعت خبر الصلح نشاط ساعدها على النهوض فمشت وهي تخاطب الرجل حتى
جلست على حجر تحت شجرة وأسدت ظيهرها اليها وضغطت الجرح بكما فوق اثوابها
فأراد الرجل ان يشرح لها اصل العداء لظنوا انها خالية الذهن من خبره فابتدرته
قائلة لا تشرح القصة فاني اعلمها ولكن اخبرني كيف تداعوا الى الصلح
فجيب الرجل لاطلاع اسماء وودان يعرف من هي ولكم اجابها على سؤالها
قائلاً : ان جيشنا وصل الى هذا المكان بالامس فلما تقابل الجيشان خرج من جيش
ام المؤمنين طلحة والزبير على فرسيهما يلتمسان البراز فخرج اليهما الامام علي حتى
اختلفت اعناق دولابهم ونحن نتظر عاقبة ذلك الملتقى لانه سيكون قاصباً اما علينا
واما لنا فنجاولو مدة ونحن ننظر اليهم لنرى ما يدور منهم من راز او نحوه . فاذا هم
وقوف يتخاطبون وعلمنا بعد رجوع الامام انه لما لقيهما قال لهما « لعمرى قد اعددتما
سلاحاً وخيلاً ورجالاً ان كنتما اعددتما عند الله عذراً فانابا الله ولا نكونا كالتي
تقضت غزها من بعد قوة انكاثا . الم اكن احاكما في دينكما تحرمان دمي واحرم دمكما
فهل من حدث احل لكما دمي » فقال طلحة « البت على عثمان » قال علي « يومئذ يوفيه
الله دينهم الحق يا طلحة تطلب بدم عثمان فلعل الله قتله عثمان يا طلحة اجئت بعرس رسول
الله صلى الله عليه وسلم نتال بها وخبأت عرسك في البيت اما بايعني » قال « بايعنك

والسيف على عنقي» فقال علي للزبير « يا زبير ما اخرجك » قال « انت ولا اراك لهذا الامر اهلاً ولا اولى به ما » فقال له علي « الست له اهلاً بعد عثمان قد كنا بعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ انك ان السوء ففرق بيننا » وذكره اشياء وقال له « أتذكر يوم مررتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني غنم فنظر اليّ فضحك وضحك اليه فقلت له لا يدع ابن ابي طالب زهوه فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بهز لفتانته وأنت ظالم له » قال الزبير « اللهم نعم ولو ذكرتُ ما سرت مسيري هذا والله لا اقاتلك ابداً » (١)

وهكذا عاد الامام اليها بالخير وتوسمنا خبراً من ندم اولئك على عملهم . ثم علمنا ان الزبير لما رجع من ساحة البراز سار نوا الى ام المؤمنين فقال لها « ما كنتُ في موطن منذ علمتُ الا وانا اعرف فيه امري غير موطني هذا » فقالت له « ما تريد ان تصنع » قال « اريد ان ادعهم واذهب » فوجّهته ابنه عبد الله وقال « جمعت بين هاتين الدتين حتى اذا حدد بعضهم لبعضهم اردت ان تتركهم وتذهب ولكك خشيت رايات ابن ابي طالب وعلمت انها تحمّلها فتية انجاد وان نخبها الموت الاحمر فخننت » فاعنذر الزبير انه حلف ان لا يقاتل علياً . ثم تفاوضوا بعد ذلك مع طلحة وغيره فتم الاتفاق على الصلح وبنينا ليلتنا البارحة والقلوب هادئة وكل فرج بما حجب من دماء المسلمين فلما سمعت اسماء كلام الرجل اشرق وجهها وارتقت اسرّتها ونسبت ألبها وضعتها وقالت « بشرك الله بالخير يا اخا عبد النيس » وارادت الاستنهام عن محمد ومقامه فقالت « وهل جاء اهل الكوفة لنصف الامام »

قال لقد جاءوا بعد ان ترددوا كثيراً

فالت كيف يترددون عن نجدة امير المؤمنين

قال : ذهب اليهم اولاً محمد بن ابي بكر ومحمد بن جعفر فلقيا ابا موسى الاشعري عامل الكوفة فكلماه ففضل النعود على المسير فعاد محمد ومحمد الى الامام فأرسل الاشتر وابن عباس فعادا ولم ينالا وطراً . فأرسل ابنه الحسن وعمار بن ياسر فجاء الكوفة وكانت عائشة قد ارسلت رسلها تدعو الناس الى نجدةها . وظل ابو موسى يحرض الكوفيين على النعود فلا يسبرون مع هؤلاء ولا مع هؤلاء . فجادلهم الحسن حتى

اقتنعهم ان يقوموا لنصره امير المؤمنين فجهاء منهم تسعة آلاف
فأدركت اسماء من خلال ذلك ان محمداً في معسكر الامام علي وكانت قد
تعبت من الجلوس على الحجر فنهضت تلتبس الدبر لمداد الجرح لانها شعرت وهي
قابضة عليه ان الدم يسيل منه . فأحس الرجل برادها فأراد مساعدتها بالمشي
فأبت فرافقها حتى دنت من الدبر فودعها وخرج بجملو يطلب المعسكر
اما هي فالتصت الغرفة فلتبها الرئيس عند الباب فسالها عن حالها فقصت عليه
حديث الجمل ووقوعها فهم الى الجرح فاعاد ضامه وبشرها بان لا خوف منه فلبثت
تفكر بما سمعته وكانت كلما تصورت وقوع الصلح يكاد قلبها يطير فرحاً لتخلصها من
مصائب كثيرة وحجب دماء الناس . على انها كانت وهي في وسط هذه المسرات اذا
تذكرت ما سمعته من الرئيس عن والدها انقضت نفسها مخافة ان يضع خبر قصصت
انها حالما تستطيع الركوب تسافر الى دمشق فاذا تحققت من هو والدها علمت
مدخلها ومخرجها

الفصل الرابع والستون

* الحرب *

فقضت أياماً وهي تنوقع في كل يوم ان ترى محمداً آتياً لمشاهدتها في
الدبر لعلها ان مسعوداً لا بد من ان يخبر بها اصاها فكيف يقيم على مقربة منها
ولا يسأل عنها فلما مضت ايام ولم يأت ابنت ان مسعوداً لم يبع بعد ذهابه من الدبر
فهو لا يعلم مفرها . وكان الجرح قد لأم فلم تزد يوماً من ملافة محمد لتخبر بعزمها
على دمشق وتستعينه في دابة تركبها وخادم يسير في ركابها . ولكنها تذكرت
الحسن وما لحظت منه يوم كانت في المدينة فخافت ان لا يرضى محمد بذهابها الى
المعسكر فعولت على استخدام الوهابا فكتبت بطاقة بهذا الشأن واستأذنت رئيس الدبر
في ارسال بعض خدمه النبهاء فاذن لها فبعثت احدهم وأفهمته كيف يسير والى من
يسلم الورقة ودلت على الجهة التي يلاقي فيها جيش الامام علي

فخرج وجلس. هي في فراشها تنظر رجوعه ومحمد معه . وكلما تصورت لقاءها محمداً اختلج قلبها في صدرها وأعدت عبارات تخاطبه بها تسفر عما في نفسها وقد هما من هذا الصلاح انقضاء تأجيل الافتران فاخذت تعد نفسها بالمعاداة المستقبلية وخصوصاً اذا عرفت والدها الحقيقي

فصت ساعة وبعض الماعة في مثل هذه المواقف وفي كلما سمعت سعال رجل او وقع أقدام او جمعجة بعيد او صهيل فرس ظننت رسولها عائداً ومعه محمد . ولم تعد تستطيع صبراً على الانتظار فصعدت الى سطح الدبر تستطلع قدومه عن بعد ولم تك تد تخلوختلون فوق السطح حتى رأت رسولها راجعاً بعدو وبلنت وراه فانشغل خاطرها ولنت تنظر وصوائها عثم ان وصل وهو بلهث من شدة الجري . فقالت ما وراءك

قال خرجت من الدبر في الجهة التي رسمتها لي فما وصلت المكان حتى رأيت النبال تنطير في الجو فلما اشرقت على المعسكر رأيت الحرب محمداً
فغنت اسماء وتطعت كلامه قائلة « الحرب . . . بين من ومن »
قال سألت بعض العبيد ممن كانوا يلتقطون الببال المتساقطة وهو خارج المعسكر فاخبرني ان الحرب اتشبت بين الامام علي وعائشة وكانوا قد ارموا صلحاً فنقضوه
قالت لا حول ولا قوة الا بالله ومن نقضه . . ؟
قال لا ادري ولكن العبد اخبرني انهم ماتوا على صلح فاصبحوا فاذا بجيش عائشة على الحرب

فقالت الم تلقى محمداً

قال وكيف اتاه وانا لم استطع النوم الممركة مخافة ان تصيبي الببال فاموت ولا يفتي من يرجع اليك بالخبر . فثارت الحمية في رأس اسماء ولم تر بداً من العدول عن دمشق الى معسكر ام المؤمنين لتخاطبها بالرجوع الى الصلح قبل ان يتناقم الخطب فسألت رئيس الدبر عن دابة تركها فقال ان خادمك الأول ترك هنا جملك الذي جئت عليه

قالت اين هو . فامر الرئيس باعداده للركوب وخرجت اسماء الى غرفتها فبدلت ثيابها على كيفية تشبه بها ثياب الرجال وشدت وسطها بمنطقة عريضة والتفت بعباءة

وغطت رأسها بكوفية وثقلدت حساماً كان قد اعطاهما اياه محمد يوم سفرها مع مسعود وركبت الجمل وولت وجهها معسكر ام المؤمنين وكان الوقت ضحى وهي للهنثما لم تودع الرئيس حتى اذا بعدت عن الدبر تذكرت ذلك فالتفت اليه وإشارت بالسلام بيدها ورأسها . ولم تعد عن الدبر قليلاً حتى أطالت على المعركة فرأت السهام تنطابر من كل جانب حتى كادت تحجب اشعة الشمس بدلاً من الغبار لان الجو كان قد امطر في ذلك الصباح فماتك التراب . ووقفت هيهة ربنا تعرف الطريق الذي يؤدى الى ام المؤمنين . فرأت الرجال يهرعون يميناً وتمالأ وفيهم المشاة والفرسان وسمعت النساء من وراء الجميع يعرضن الرجال على الثبات . وكان الجو صافياً لا غمار فيه فكانت اذا تهرست في الرجال عرفتهم فرداً فرداً فجمعات تنفرس بالفرسان عساها ان ترى محمداً فلم تنرْ ولكنها ادركت ان النصر للامام علي لانها رأت رجاله يتقدمون واولئك يفرّون يعثر بعضهم بجثث بعض وهم بين جريح وقتيل فتنفطر قلبها . فاجالت بصرها لعلها ترى مسطاط عائشة لتسرع اليها وتحاطبها في الكف عن القتال فلحقت مروان بن الحكم على فرسه يتعقب فارساً آخر علمت انه طلحة وقد رماه مروان بسهم في رجله فشكها في صحة الفرس ^(١) ثم رأت طلحة حوّل عمان جواده نحو البصرة وترك الجيشين يقتتلان فعلمت انه اما ذهب اليها لالجرح . ابغى اصابه فتأكدت فشل جند مكة ولكنها عجبت لما فعله مروان بطلحة وهما من جد واحد . على انها اولت فعلة الى طمعو بالخلافة لاني امية لرعو انها اذا خرجت من يد الامام علي وكان طلحة حياً طمع هو بها وربما طمع بها الزبير واما اذا قتل هذان فلا يبقى من يطالب بها فتنتي في بني امية

الفصل الخامس والستون

﴿ هودج ام المؤمنين ﴾

وفيا هي تنأمل في حركات الجيشين ونسمع ضجيج الناس وقرعة السيوف

والرماح وصهيل الخيل رأت في معسكر ام المؤمنين فسطاطاً كبيراً علمت انه فسطاط عائشة ولكنها لم ترازدها حولاً فارتابت في امن ثم لمحت جمعاً متكاثراً حول هودج فوق بعير فعلت من لون الهودج وشكله انه هودج ام المؤمنين فسافت جملها نحو . فلم يسعها في انجري فرأت فرساً نائماً خارج المعركة وقد قتل صاحبه فاسرعت اليه وتحولت عن الجمل وركبته وسارت باسرع من لح البصرتاتس الهودج ولم تكد تصل المعركة حتى رأت فارساً خارجاً منها يطلب عرض البر لا يلتفت وراءه وعرفت انه الزبير فتذكرت انه اقسم ان لا يجارب علياً فقالت في نفسها ها قد فر الزعيمان ولا اخل ام المؤمنين اذا علمت ذلك الا آمره بالكف عن القتال . فاسرعت في وسط المعركة لا تالي بما يتساقط عليها من النبال او يعترض فرسها من جنث القتلى والجرحى ولم تدن من الهودج حتى سمعت ام المؤمنين تصيح بصوتها الجمهوري وتنادي احد رجالها وقد مدت يدها من الهودج وفيها مصحف وهي تقول « اليك يا كعب ادع الناس الى هذا المصحف » فلم يكذب الرجل يتناوله حتى اصيب بنبل فقتل . وكانت اسماء قد وصلت الى الهودج فرأت الرجال حائمين حول عائشة تقول « أيها الناس العنوا قتلة عثمان وإشياعهم »^(١)

فترجلت اسماء وأقبلت الى الجمل فرأت الهودج قد أصبح كالقنفذ لكثرة ما غرس فيه من السهام المتساقطة وإرادت التسلق على الجمل لتلقي عائشة في الهودج فاعترضها بعض الرجال فازاحت اللثام وبادت ام المؤمنين فعرفت صوتها فاذنت لها فقال قائل من الوقوف « هي انا اذن لك بالصعود على الجمل تسلفاً قبل نستطيع ذلك » فتذكرت ما اصابها من تسلق جمل الامس فعادت الى فرسها واتصلت منه الى الهودج . فتعجبت ام المؤمنين لوجودها هناك بغنة . اما اسماء فترامت عند قدمي ام المؤمنين وهي تقول والدمع ملء عينها « اشقي يا اماء على اولادك احجي دماءهم ارحي رجالاً بوحدون الله . لقد كفى ما اصابهم من البلاء مري بالكف عن القتال ان السلام بين شفتيك وانت ام المؤمنين وزوج رسول رب العالمين . واعلي ان طلحة والزبير اللذين اضرما نار هذه الحرب قد فرّا من المعركة . مري بالله مري رجالك بالكف والعود . انهضي واطلي على المجندين وانظري القتلى في الجانيين »

وكانت اسماء تتكلم مخشوع وتذلل وفي جانية عند قدمي عائشة . وكانت عائشة في معظم التأثير لا تملك وقتاً للنظر في الامر والناس حول هودجها يتلفون ما يتساقط عليه من السهام حتى قُتل عند خطام الجمل نيف واربعون رجلاً . فنظرت الى اسماء وقد اثر فيها كلامها مع ما تسمته من فشل جندها وقالت : لقد كما على موعده من الصلح فلا تدري ما حلهم على نفصه «

قالت « وهم يزعمون انكم انتم النافضون »

قالت بل هم لاننا بتنا مصالحين فاصبحنا واذا هم على قتالنا فقالت اسماء يظهر ان في الامر دسيسة فلعل بعض الاعداء سعى فساداً فرمى الشقاق بينكم وعلى كل حال ان الصلح قريب وحجب الدماء سهل عليك يكفيك كلمة منك

قالت وقد ملأت الجدل « لقد قضي الامر ولم يعد الرجوع ممكناً فلا تلتسي ذلك مني » قالت ذلك وفي نعمة كلامها وملاحمها ما يزحر اسماء عن البحث في هذا الموضوع . فصمتت وعادت عائشة الى استنهاض القاتل للدفاع حتى اصبح كل من بقي من رجالها يدافعون عن جملها

ووددت اسماء النزول من الهودج ولكنها لم تجسر عليه تهيئاً من عائشة . ثم سمعت صوت علي يقول « اغفروا الجمل فانه ان غفر تفرقوا » ولم يكذبتم امره حتى احسست اسماء بسقوط الجمل وهو يعرج من الالم فعلمت انهم عفروه فهمت بالخروج من الهودج ولكنها اطلت قبل ذلك فرأت كل من كان حوله من الرجال تفرقوا وعلي يقول لرجالها « ارسلوا من ينادي في الناس الا يتبعوا مدبراً ولا يجهرزوا على جرح ولا يدخلوا الدور » . ثم قال احملوا هذا الهودج من بين القتلى فحملوه وهي لا تزال فيه مع ام المؤمنين وام المؤمنين غافلة عنها لعظم ما ألم بها . وكانت اسماء تنظر اليها وهي هائبة التكلّم معها خشية ان تسمع انتهارها وربما لا تستطيع جواباً . ثم سمعت علياً يقول « يا محمد يا ابن ابي بكر اضرب على اختك قبة وانظر هل وصل اليها شيء من جراحة »

فلما سمعت اسماء ذكر محمد وما امره به علي لبثت تنتظر ان نراه مطلقاً من الهودج . اما هو فلما ادخل راسه في الهودج ورأى اسماء مع اخيه اندهل ولكنه لم يكذب

بتكلم حتى سمع اخته تقول « من انت »

قال « اخوك »

قالت « الحمد لله الذي عافاك »

واشار محمد الى اسماء ان تخرج فخرجت ونظرت الى ما حولها فرأت الارض قد خلت من الناس غير من قُتل او قُطعت رجله او جرح جرحاً بليغاً فلا يستطيع المسير . وسمعت عين الجرحى ورأت الدم جارياً اقنية والخيل والنوق سارحة بعضها يعرج وبعضها يعرج من الجراح ورأت في بعض تلك الدواب سهاماً لاتزال مغروسة في رقابها او اعجازها وكان المنظر بالجملة رهيباً محزوناً لم يكن اكثر منه تأثيراً . وفيما هي تنظر في ذلك رأت علياً دنا من هودج ام المؤمنين وقال « كيف انت يا امه »

قالت « بخير »

قال « يغفر الله لك »

قالت « ولك »

ثم امر اخاها ان يدخل بها البصر ريثما تستريح وفيما هو يتكلم راي اسماء واقفة فعرفها . فلما رأتها هي ينظر اليها همت يده فقبلتها وعلنها البغته فقال اهلاً بك ابن كنت يا اسماء

فسمع علي عاتشة تقول من داخل الهودج « احفظوا بهن الفتاة فوالله اني ما رأيت اكثر غيرة منها على الاسلام ولا اصدق لهجة في الدفاع عن الحق وهي انما خاطرت بجبانها وانني تحت النبال المتساقطة تلمس الكف عن القتال »

فخجلت اسماء لهذا الاطراء واطرقت فقال « علي بورك فيك يا بنية اني توسمت فيك هذا الخير منذ رأيتك للمرة الاولى . تعالي »

فسار وسارت في اثره وهي مطرقة وعلي يشتغل بتدبير الجرحى والقتلى فأمر الناس ان يدفنوا قتلاهم . ثم علم ان طلحة والزبير قتلا فاخبرته اسماء عما رأتها من مروان . فقال « لا تعجبي من كان سبب هذه الفتنة ان يفعل مثل ذلك »

وظلوا سائرين الى البصرة حتى دخلوها فتزل علي في دار العامل بقرب المسجد وتواردت الناس لمبايعته وقد سلم الامر له وخلا له الجو وزلت اسماء في تلك الدار مع بعض النسوة ممن جئن مع الامام وقد عرفتهن

اثناء اقامتها في المدينة . وظلّت اياماً تحاول ان ترى محمداً بعد هذه الحرب
وعلياً يشغله باختوام المؤمنين فلم يكن يستطيع التحلي عنها فادركت اسماء ذلك
فسارت هي نحوه بحجة زيارة عائشة

فلما التقيا ارادت ان تعرف سبب تحلوه عن زيارتها مع علمها انها كانت جريئة في
الدير فاستغرب قولها وأكد لها انه لم يكن يعرف عنها شيئاً لان مسعوداً لم يعد اليه
وهو لا يعرف مقره الى ذلك الحين . فترجم لدهما انه قتل في طريقه الى الكوفة فاسما
عليه كثيراً . وسكتا هنيهة ثم قال محمداً ها قد انقضت الحرب واتصر الامام
والحمد لله وأن لنا السكون والاحتماع

فسكنت اسماء لما وراء كلامه من الاشارة الى الرواج وغيرت الموضوع فقالت
ولكنني على اهمية السفر الى الشام

قال ولماذا

قالت لأسأل عن والدي الخفيقي

قال وكيف ذلك ومن يجرئك عنه

فقصّت عليه خبر رئيس الدير مختصراً فعجب واندهل واصبح أكثر اشتياقاً لمعرفة
والدها منها وارفع مقامها في عينيه لما علم انها انة بعض كبار الصحابة في المدينة فقال
ها لا بعد ان تكون بيننا قرابة قل القرابة التي تسعى اليها اليوم

فخجلت ثانية وارادت تغيير الحديث فقالت وكيف ام المؤمنين

قال هي في خير وقد أمرني الامام باعداد ما يلزم لسفرها الى مكة وها ابي اعد
ذلك وقد جهزت لها اربعين امرأة من نساء الصرغ المعروفات ليسرن معها فاذا
سافرت عدنا الى ما يدعونا اليه القلب على قولك . . . فخجلت

ولم يتم كلامه حتى رأى الناس في هرج وهم يقولون « جاء امير المؤمنين » .
ثم وصل علياً وكانت عائشة قد نهيات للسفر واعدت لها المودج وجاء الناس لوداعها
فخرجت لوداعهم فلما رأت علياً قالت وهي تنظر الى الناس « يا بني لا يعتب بعضنا
على بعض انه والله ما كان بيني وبين علي في القدم الا ما يكون بين المرأة وبين
احمامها وانه على معنتي لمن الاخبار » ^(١)

فقال عليّ « صدقت والله ما كان بيني وبينها الا ذاك وانها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة » وودعها من بني من الناس ثم قال عليّ لمحمد « سر يا محمد مع اختك الى مكة »
فلما سمعت اسماء هذا الامر اضطرب قلبها ونظرت الى محمد ونظر هو اليها ففهم كل منهما ما في ذهن الآخر

انفصل السادس والستون

* الخطبة *

وكان الحسن قد جاء مع والدك لوداع ام المؤمنين فرأى اسماء وقد علم بما اظهرته من الغيرة على الاسلام فازداد حبه لها وصمم على خطبتها وهو لا يعلم ما بينها وبين محمد . ثم علم ان والدك عازم على الكوفة لاخذ البيعة هناك كما اخذها في البصرة

وكانت اسماء لما فرغت من وداع محمد عادت الى عزمها على الشام لملاقاة القسيس مرقس وسؤاله عن والدها وقد اصبح هذا الامر شغلها الشاغل . فأتت علياً بعد سفر محمد تودعه وتخببه بعزمها ونسأله رفيقاً ودابة فلم تملك فرصة لانشغاله بمن ينفذ عليه من المايعة والمشيرين حتى اذا اراد الكوفة سارت هي اليها في جملة السائرين

وقضت في الكوفة اياماً كأنها على حمر الغضي حتى اصبحت يوماً وقد مأت الانتظار فعولت على الاستئذان في السفر فسألت عن علي فقيل لها انه في مجلسه وحده فاستأذنت في الدخول عليه فاذن لها فدخلت فاذا هو جالس في قاعة واسعة ليس فيها احد سواه . فلما رآها هش لها ورحب بها فهمت بتقيل بك وهي تقول « محمد الله على ما اولانا من نعمه في احقاق الحق ونشكره على ما اولاك من النصر »

فتنهذ وقال « قد كنت اود ان تنتهي الفتنة ولا يسفك فيها دم ولكنها ابنت ان تنام الا على فراش من الدماء » قال ذلك وسكت هنيئة ثم قال « وكنت

عازماً على استفدائك اليّ لا شكرك على سعيك في هذا الامر فقد سعت فيو
سعيًا حميداً »

فأطرفت ولم نجب

فقال لها « ولنا فوق ذلك اقتراح نترحمه عليك عساه ان ينال وقعاً حسناً »
ف قالت « اني امة اذا أمرت اطاعت »

فقال « اننا سوّد استبقاءك عندنا فتكوبين بمنزلة ولدنا »

فأدركت اسماء ما وراء ذلك فأجملت مخافة ان يصح ظنها باقتراحه لعلها بما
في نفس الحسن ولكنها لم تستطع غير اظهار الاستحسان فقالت « اني احقر من ان
احظى بهذا الشرف العظيم »

قال « لا بل انت اهل لأفضل منه ولا اخفي عنك ان ولدي الحسن راغب
فيك لما آتسّه من غيرتك على الاسلام ورغبتك في اعلاء كلمته فهل ترضين
به خاطباً »

فلما تحققت ظنها لم تستطع اخفاء عواطفها بما ظهر على وجهها من الاحمرار
السريع ولكنها تجلّدت وقالت وهي تظهر الامتنان « اني لا استحق هذا الاكرام
يا مولاي لانه فوق ما تتوقعه فتاة يتيمة غريبة مثلي . كيف لا وفيه التقرب من اعظم
رجال هذه الامة وان عم النبي (صلعم) . ولكنني انما جئت الى مولاي الامام الآن
في أمر هنيئ كثير وهو يدعوني الى سفر قريب لا أرى منه بداً فجئت لاستأذن
امير المؤمنين بشأنه »

قال وما ذلك

قالت « لا اظن مولاي ابا الحسن يجهل حال والدني يوم قدومها المدينة وما
ظنّاً ننسنا فقدناه بوفائها من السرر »
قال « لا اجهله »

قالت « وهل تجهل يا سيدي ان يزيداً الذي كان معنا في ذلك اليوم المشوم . .
ليس والذي الحقني »

قال « ظننت ذلك فيه مذ رأيتك ثم سمعت انه ليس والدك »

قالت « وكنت انا ايضاً عالمة بذلك من والدتي فقد اخبرتني انه ليس والذي

وانها ستخبرني عن والدي الحقيقي عند وصولنا المدينة ففضى الله بوفائها قبل وصولنا
 وأسفاه عليها (وتنهدت) فظننت خبر والدي عدم من الوجود فأسفتُ وبكيت
 ولكن التفادير ساقني بالامس الى دير بجوار الصرة بعد جرح اصابعي في اثناء سفري
 فأقيمت فيه اباما اعالج الجرح فرأيت هناك راهباً شيخاً عرفني وعرفته وكنت قد
 رأيت في كنيسة دمشق قبل سفري فاخبرني خيراً اعاد اليّ آمالي بالاطلاع على كنه
 ذلك السر »

فقال عليّ * » وهل اخبرك عن والدك »

قالت كلاً يا مولاي ولكنه اخبرني ان قسيس كنيسة دمشق يعرفه لان والدتي
 اعترفت له به دون سواه » ثم قصت اسماء ما اخبرها به رئيس الدير بتفاصيله
 ولم تكذب كلامها حتى ظهر الاستغراب والدهشة على وجه الامام لتولها ان
 والدها من كبار المسلمين في المدينة وان والدتها جاءت المدينة للبحث عنه فقال
 لها » الم يحرك عن اسمي »

قالت » اواه باليتة فعل ولكنه لا يعرف الاسم وهذا ما حملني على الاسراع
 الى دمشق استطلع خبر والدي لاني مع ما ثلثه من الثقات امير المؤمنين وما اصبحت
 من الخطوة في عيني وعيني انه لا ازال اشعر بدلٍ عظيم لغيبوسي سبي فعساي ان
 ارفع عني هذا العار على يد ذلك القسيس »

وفيا هي تتكلم استأذن المحس ودخل فوفقت له اسماء فسلم ونظر الى والده فانس
 في وجهه تغيراً وهم ان يسأله فاذا هو قد اشار الى اسماء واليه بالجلوس وقال
 » ان اسماء بابني راضية فرحة ولكنها في شاغل جديد فهي ذاهبة الى دمشق سريعاً
 لتتحقق نسبا من قسيس كنيسة ماري بوحنا هناك اذ لا يخفى عليك ان يزيد الذي
 زعم انه والدها ليس الا زوج والدتها واما والدها الحقيقي فلا يزال امره مجهولاً »
 فشق ذلك على المحسن وقال » ان البحث عن والدها واجب ولكنه لا يدعو
 الى تأجيل الخطبة على ما اظن »

فقال » بلى انه يدعو الى ذلك لاسيما وقد فهمنا الآن ان والدها الحقيقي احد
 كبار الصحابة بالمدينة فما ادرانا اذا كان بيننا وبينه ما يحرم الزواج من قرابة عصب
 او رحم او رضاعة او غيرها فالأفضل بابني ان نؤجل هذا الامر الى حين عودتها »

فسكت المحس وسرّت اسماء لخالصها مما كانت تخوفه فأمر لها بهودج تسير فيه فقالت اني افضل ركوب الجواد . فأمر لها بجواد وخادم امين وقال لها تنتظرين قافلة سائحة من الكوفة الى الشام تسيرين رفقتها لان الطريق يعسر سلوكه على شخصين منفردين

قالت سأرى اصطباري . وودعته وخرجت وهي تودّ ان نظير الى دمشق لمقابلة النسيب وصمت في باطن سرّها على الاسراع ما استطاعت لا تنتظر قافلة ولا ركاً

الفصل السابع والستون

* معاوية وعمرو بن العاص *

كان معاوية في الشام كما علمت محالماً لعلّي في خلافته ناقماً عليه وقد حزن اهل الشام على مطالبته بدم عثمان . فجعل قبيص عثمان هذا واصابع مائلة امرأته على المنبر دمتق ينظرها الناس . فثار اهل الشام وانكروا مبايعته علي وبعث معاوية الى علي بالظومار كما تقدم وهو عازم على مقاومته ما استطاع الى ذلك سبيلاً . وحدثه نفسه ان يلمس الخلافة ولكنه كان لا يزال يرى ذلك بعيداً حتى سمع بنقض طلحة والزبير ومسيرها في اهل مكة الى البصرة . فقال لأصبرن حتى ارى ما يكون من عاقبة تلك الحرب فسمع بخروج علي من المدينة ووقعة الجمل ومقتل طلحة والزبير فعلم ان ليس ثمت من يطالب بالخلافة غيره

وكان عمرو بن العاص القائد الشهير فاتح مصر في اوائل الهجرة ومخرجها من ايدي الروم (سنة ٢٠ هـ) على عهد الامام عمر بن الخطاب — لما فتحها تولاهما هو واصلح شؤونها ^(١) فلما افست الخلافة الى عثمان بن عفان وكان عثمان كما قد علمت من ايثاره ذوي قرابته في ولاية الاعمال فعزل عمرًا عن مصر وعهد بولايتهما الى اخيه من الرضاة عبد الله بن سعد فخرج عمرو ناقماً على عثمان وكان من دهاة العرب المشهورين . فلما كانت الفتنة وثار الناس على عثمان وجاء اهل الامصار الى المدينة

كان هو في جملة من نتم عليه . ولكنه غادر المدينة قبل حصن وسار الى فلسطين وأقام فيها ينتظر ما يكون . فلما علم بمقتل عثمان قال « انى قتلته وانا في وادي السباع » وجعل يفكر في من يلي الخلافة بعده وما هي علاقة ذلك بمصلحته فقال في نفسه « ان يل هذا الامر طلحة فهو فني العرب وان يلو ان ابي طالب فهو اكبره من يليه الي » فلما بلغته بيعة علي اشتد عليه الامر ولست ينتظر ما يصنع الناس فبلغه مسير أم المؤمنين وطلحة والزبير الى البصرة فاقام ينتظر ما يكون من امرهم . فجاءه الخبر بوقعة الجمل وانتصار الامام علي فارتج عليه ووقع في حيرة . ثم بلغه ان معاوية في الشام لا يبايع علياً وانه يعظم شأن عثمان وكان معاوية احب اليه من علي لانه داهية مثله . فاخذ انبيو محمداً وعبد الله وسار الى دمشق وانفق مع معاوية على الطلب بدم عثمان ونفس عمرو طاحمة الى مصر يحن اليها لانه فاتحها وكانت مصر يومئذ على دعوة علي . وعمرو يعلم ان علياً لا يوليها اياها فلم ير خيراً من الانباء الى معاوية لهذا الشأن فجعل يجرّض اهل الشام على الطلب بدم عثمان ويقول لهم « اتم على الحق اطلبوا بدم الخليفة المظلوم »^(١)

الفصل الثامن والستون

﴿ اسماء في دمشق ﴾

قضت اسماء اياماً في مسيرها من الكوفة الى دمشق ولم تصدق انها اشرفت على غوطتها المشهورة بالخصب ونظرت الى دمشق عن بعد فاذا هي في منبسط من الارض تحف بها الحدائق الغناء والبساتين النجباء وفيها اغراس الشمس واللوز والسفرجل والخوخ والدراق والليمون وسائر انواع الفاكهة وفيها الاعشاب والرياحين وكلها يانعة تجري بينها جداول من الماء القراح . وكانت اسماء ملتنة بالعباءة والكوفية فوق جواد يساق الرياح ومعها الخادم على جواده فاقبلت على دمشق في الصباح وقد تعطر نسيها بشذا الازهار فتخلله نغماط الاطيار فلم يشغلها ذلك كله عما قام في خاطرها من الشوق للاطلاع على اصلها . فدخلت المدينة من باب الحجابة بعد ان ترجلت

وامرت الخادم ان يسير في اثرها بالجواري فمشت بعباءتها وكوفيتها تلتبس كيسة ماري
يوحنا من اقرب الطارق وهي تعرف دمتى معرفة جيدة . وظلت مائة ليلاً يراها احدهم
اهلها او جيرانها فيعرفها فيشغلها عما هي ساعية في طلبه . وخوفاً من ان يئنه الناس
لها اذا مشى والخادم والجواري ان في اثرها امرئان ينتظران في خان دله عليه وقالت
له « امكث هناك حتى اعود اليك » فاطاعوا

وظلت هي سائقة حتى دنت من الكنيسة فتذكرت ان هذه الكنيسة العظيمة
المعروفة باسم القديس ماري يوحنا لما فتح المسلمون الشام اتخذوا نصفها الشرقي معبداً
يصلون فيه وتركوا النصف الآخر وهو الغربي للنصارى (١) وقبضوا على القسيسين
ماجز . فامسكت الباب المؤدي الى القسم الغربي وهي لا تزال بلباس السمرة .
فاستقبلها خادم الكنيسة واستعرب محبتها بعد الفراغ من الصلاة فكلها باللسان الرومي
وكانت قد تعلمته من والدتها في جداتها فساءلها عن غرضها فقالت انها تريد القسيس
مرقس فدعاها للاستراحة على منعد من رخام في صحن الكنيسة وسار للسؤال عن
القسيس فليست في انتظاره وهي تلهي نفسها بما هناك من مخافة الساء كالاعمدية الصعبة
الشاهقة والنقش البديع من النسيبساء وغيرها ماهيك عن الصور على الجدران
والسقف في اشكال غريبة واللوان زاهية . ولم تكن تلك اول مرة دخلت هذه الكنيسة
ولكن غرابة ذلك البناء وفخامته يستلزمان النظر ويستعلان المال
فما لمت الخادم ان عاد وهو يقول تنضلي الى غرفة الاستقبال فتقابلين الشمس
وهو يحبك على ما تريدن

فخرجت من الكنيسة الى دار في وسطها ركة من الرخام يتدفق منها الماء كسائر
دور الشام فانصلت من الدار الى قاعة مخفية استقبلها فيها تماس حالماً وقع نظرها عليه
تذكرت انها رأتها يوم زارت الكنيسة مع والدتها قبل سنين الى المدينة فاستأنست
وسألت عن القسيس مرقس فدعاها الى المجلس على ساط من السجاد وبين يديها
ركبة اخرى اصغر من ركة الدار والماء يسيل عن جوانبها الى قناة تحيط بها
وتصرف من هناك . فلما جلست قال لها ان القسيس مرقس سافر منذ بضعة اشهر
فاجلست وقالت الى ابن

قال الى بيت المقدس

قالت ومتى يعود

قال لا ادري متى يعود لأن سنره لم يكن لشغل خاص بالدبر ولكنه خرج فراراً
ما ألقى راحته من اصوات المكاء والمويل التي ترن في آذاننا كل يوم في انفسنا
الآخر من هذه الكبيسة

قالت وما هو هذا المويل وعلى من

قال ربما سمعت بمقتل الحليمة عثان في يترب فان نض رجال حاكنا معاوية
جاء بقبضه الملقح بالدم واصابع امرأته التي قطعت وهي تدافع يدها عنه ووضعوها
على المنبر اندي يصلون فوقه وكلما اجتمعوا الصلاة وذكروا مقتل الحليمة يصيح الناس
رجالا ونساء شيوخا واطفالاً يكون وبولولون حتى تكاد نغم الاذان وتنت
القلوب . وكان ارميا القسيس في انباء ذلك مريضاً مرض الشيخوخة فزاده ذلك الحال
صعناً فاشار عليه طبيبهُ ان يسافر الى القدس يقيم فيها ربما تتغير اعمال فسار ولا
رال في انتظاره وقد بلغنا انه لا يزال مريضاً

فقالت ألا تدري متى يعود

قال كلاً وإذا كنت تريد من خدمة فاننا نؤديها عنه

قالت « كلاً » وانما غرضي يتعلق برأساً » وفكرت في ماذا تعمل هل تقيم هناك
ربما يعود ام تخرج الى الحان . وفيما هي صامتة تنكر ابتدرها الشمس قائلاً اذا شئت
ان تعيبي ضيئة في هذه الدار ربما يعود ارميا القسيس اقمي على الرحب والسعة
فان عندنا نساء يقمن بخدمتك . قال ذلك وصنق فجاء الحادم فامرهُ ان يبدل اسماء
على غرفة القسيس فصعد بها الى قاعة علوية فيها امرأة طاعنة في السن بلباس اسود
وعليها هبة الكمال والوقار فهبت لها واستسلمتها واجلسنها الى نافذة تطل على بعض
ابنية دمشق وامرت لها بما تحتاج اليه من طعام ونحوه فاعذرت انها لا تحتاج
الى طعام

وجاست اسماء وقد استأنست بتلك المرأة ولكنها ما زالت منتبضة للنس من
تعرقل مساعها بغياب القسيس ونصوّرت لشدة كدرها ان ذلك التعرقل من نفس
طالها وخيل لها ان القسيس مرقس سيموت في القدس لضعفه وشيخوخته فيضيع السر

وتذهب آملها ادراج الرياح . فخطر لها ان تذهب في اليه وتستطاع الشرق قبل دو
اجله وكانت تفكر في ذلك والتفيسة تنالغ في ملاطبتها وتدعوها الى زرع العبادة
والكوفية وهي تمنع

الفصل التاسع والستون

﴿ القميص والاصابع ﴾

ودما وقت الظهر فخرحت التسييسة الصلاة كالعادة وظالت اسما مسردة فاطلت
من النافذة فوق نظرها على صحن الكنيسة كله وفيه القسم الذي جعله المساءون معجداً
فراأت في أرضه الاسطة والنفاس والاصابع وشاهدت على جدران رسوما مسجية
في حملتها صور صلمان وقد يسير لا ترال كما كانت قبل النخ . وفيها هي تتأمل مجدران
المسجد ومنروشاته سمعت المؤذن يدعو الناس الى صلاة الظهر . وما كاد يفرغ من
آذائه حتى رات الناس يتناطرون الى صحن المسجد ررايات ووجدانا وفيهم الرجال
والنساء شيوخا وشماا واطبالا على غير المألوف . فاسئل خاطرها بالظر اليهم
وفيهم جماعة عرفت انهم من الجيران الذين كانوا يزورون والدها
ثم رأت الناس يوحون موج الحجر يتنهقر بعضهم تملأ والعض الآخر يميناً حتى
فتحوا طريقاً واسعاً فادركت ان احد الكبراء داخل . فصدت واذا رجل جميل
الخلفة ايض المشرة ذي هيئة ووقار عليه ثياب موشاة تأتلق كبير العمامة عرفت
حالا انه معاوية بن ابي سفيان والي الشام ورأت الى جاسه رجلا قصير القامة
وافر الهامة ادعج ابلج عيناه تكادان تتقدان حدة . فمتبها وهما ينظران الى التجمع
والناس سكوت اجلالاً لما فلم تعرف اسما رفيق معاوية ولكنها سمعت واحدا من
الحصور يقول بصوت عالٍ « انت لها يا عمرو يا اس العاص انت بصير الخليفة
المظلوم » فعلت انه عمرو بن العاص

فوقفت تنتظرا يبدو منها فراأت معاوية ظل ماشياً الى دكة عليها قميص ايض
مالمخ بالدماء وعلمت ان الدكة المبر وان القميص قمص عثمان فتذكرت مثل ذلك
الرجل على مشهد منها وتذكرت نائلة المسكينة وقالت في نفسها اين هي الآن يا زرع

وكانت تفكر في ذلك وهي تنظر الى معاوية فرأته صلى ركنين وصعد المذبح فسكت الناس واصفوا فوقف واجال نظره وحمد الله واثنى عليه وامر بالمعروف ونهى عن المنكر . ثم سكت لحظة وهو يشط الحنطة اصابعه وعينه تنقلان في الناس واحداً بعد واحد ثم تناول عن المذبح هذه كانت معلقة بالقميص جعل يعلقها بين يديه وينظر الى الناس ويقول « انعمون ما بين يدي » . . . انها اصابع مائتة زوج الخليفة المظلوم قطعت سيوف الفتاة وهي ترفع عنه « فتأملت اسماء في الاصابع فاذا هي اصبعان وثني من الكف واصبعان مقطوعتان من اصبعها ونصف الايهام (١) ثم امسك معاوية القميص بيده وقال « انعمون قميص من هذا . . . انه قميص الحليمة المظلوم . . . انه قميص عثمان المقتول ظالماً »

ولم يكدهم كلامه حتى ضج الناس من جواب المسجد بصوت واحد « قتل عثمان مظلوماً . . . قتل مظلوماً » وسمعت بعضهم يقول بصوت عالٍ « اقسم بالله وروايه وخليفته ان لا يسني ماء الا للفصل من الجنة وان لا انا على النرش حتى اقتل قتلة عثمان ومن قام دونهم » وما اتم الرجل كلامه حتى ضج النساء والاطفال بالبكاء والعيول ونهاتن على المذبح ليكنوا على القميص والاصابع فزجرهم معاوية فعادوا الى امساكهم وعاد هو الى كلامه واسماء تكاد تميز غيظاً لما سمعته من التعريض اعلى ومحمد وما استمته من التهديد . فثار الحمية في رأسها ولكنها صبرت نفسها لعلها ان موقفها خطراً . فسمعت معاوية عاد الى كلامه بين تحريض وتعريض وهي صابرة حتى سمعته يقول « ان علياً قتل عثمان وآوى قتله » فلما سمعت ذلك لم تعد تستطيع صرا فتحولت من النافذة اسرع من لمح البصر وهزلت الى باب الجامع بعاءتها وكوفيتها . وفيما الناس يسمعون خطاب معاوية اذا بفاتة وقفت فيهم وعيناها تنفدان غيظاً وحنناً والمهابة تجلي في عيها فاستأنت انتباههم فشغلوا بالظن اليها عن سماع الخطاب اما هي فصعدت الى دكة من الرخام ولت وجهها الى الناس وظمها الى معاوية وقالت وصوتها يرنش وركبتها تصطكان « ايها الناس اراكم تسمعون وتفضون لامر لم تشاهدوه ولا اتم على بينة منه لانكم لم تكونوا في المدينة ولا شاهدتم مقتل الخليفة . يقولون لكم انه قتل مظلوماً وان علياً امير المؤمنين قتله وآوى قتله وهو

افتراء واختلاق لان علياً اول من دافع عنه بلدانوه وسيفه وارلادوه . قُتل عثمان ايها الناس والحسن والحسين في داره وقد تلطخ وجه الحسن بالدم ولولم يأمرها عثمان بالكف عن الدفاع لبذلا الناس عنه . على انها لم يفعوا مع ذلك من تأييب الامام . وقد شهدت ذلك بنسي ورأيت رأي العين . فاتهم علي بمناه افتراءه وفتنه لا يصيب القائم بها الا ما اصاب اصحاب الجمل في البصر . نرعمون انه قل مظلوماً وربما كان زعمكم صحيحاً ولكن علياً لم يرد قلة ل هو اول من قال باستنفائوه خوفاً من هذه الفتنة فكيف يقولون انه قتله »

وما انت اسماء كلامها حتى صاح معاوية « من ذا الذي يتكلم من انت يا رجل »
فالتفت اسماء اليه وقالت « اني فتاة يا معاوية ولست رجلاً »

فجذب هذه الجسارة من فتاة بمثل سنها وتأثر من هيبتها وجمالها واستنها ومع كل غيظ وحنف لم يأمر بالقبض عليها ولا المثلة بها ولكن دعاه اليه والناس شاخصون ينظرون كأنه يريد مجادلته في الامر . ف اشار اليه عمرو اشارة فهم منها انه لا يليق به ان يجادلها امام الناس لان الجدال يقلل قيمة رهباء عدهم ويزيدها وقاحة . فاعجبه دهاء عمرو . فلما صارت اسماء بين يديه امر بالنقض عليها فتكاثف بضعة عشر من رجاله لشدة وثافتها فصاحت فيهم « نتجبروا على فتاة وانتم رجال ولا حاجة الى شدة الوثاق فاني لا افر من بين ايديكم ولكن عار عليكم ان تدفعوا الحق بالقبود والاغلال وهو انما يدفع بالدهان والجدال »

فاشار معاوية ان يسيروا بها الى السجن كما هي حتى ينظر في امرها بعدئذ

الفصل السبعون

* حلم لذيد مزعج *

ولا نسل عن حال اسماء لما وجدت نفسها في حجرة لا يدخل اليها النور الا من كوة في اعلى الجدار وليس في الحجرة الا حصير بال . فتأملت في حالها وقد جردت من سلاحها مع ما هي فيه من الضنك وما تتوقعه من الشقاء فندمت على ما ابدته من الجسارة

في الدفاع عن علي ولكنهما شعرت انهما فعلت ذلك بالرغم عنها فقد كانت لا تسمع ذكر علي الا طربت واستعزت او خافت وتهميت وهي لا تقدر على كبح احساسها فلما خات نفسها في تلك الحجة المظلمة تاملت لما حالها كما هي فنذكرت ما مر بها من الاهوال منذ حداثتها وما فاسده من البلاء في اسفارها وجهادها وما كان من وفاة والدتها قبل وصولها المدينة وضياح ذلك السر (ولما وصل ذهبا الى هناك اعترض ظلمة كدرها نور ضيف لما تجدد من آمالها بكشف السر على يد النبي - بس مرقس) ثم تصورت مروان وما ساءها من العذاب في بيت الخليفة عثمان وتذكرت ان هناك كاشفت ميمدا نام الحب فانسلطت نفسها . ثم تذكرت ان ارها الى مكة وما لاقته فيها من المرض والوب وباعث ذلك من اسرها ومسيرها في الصحراء تحت خمار الموت والمار - حتى قضى الله بعاتها فمادت الى خطر آخر ونجحت منه ثم انترت بالكشف عن اصلها ثم حضرت وقعة الجمل . . .

وما زالت تنسلسل الافكار في ذهنها حتى وصلت الى ما جر عليها ذلك السجن فعظم الامر عليها واشتد الاسف بها حتى اجشمت للبكاء فحاولت الخلد الا يقال انها بكيت من اليأس او الخوف وهي انما بكيت لتكد حزنها وسوء طالعها وما يقف في بيوتها من العقبات التي لم تكن تحظر لها بال . فالتفت الى ما حولها فلم تجد احداً وتناولات بعنفها الى باب السجن فرأت السجن في غفلة عنها . فاطلقت لنفسها عيان البكاء واخذت تاجي نفسها نارة تذكر والدتها وطورا حبيبها وآونة عليا وأخرى تدب حزنها . واستغرقت في ذلك حتى نمت نفسها وغاب رشدها كأنها اصيبت بنوبة عصبية فلم يعد في إمكانها امساك عواطفها عن البكاء والغيب

وما زالت في ذلك حتى نمت فغلب العباس عليها فنامت على ذلك المحصر . فرأت في منامها كأن والدتها ماشية نحوها على بساط من الورد المشور وعليها حلة ارجوانية طويلة الذيل مزركشة بالذهب نجره وراءها وعلى رأسها تاج من زهر الرمان -- رأتهما تشي الهوياء وهي تنلس الخطى كأنها تحاذران نشوش مهب النسيم . فبغت اسماء لرؤية خيال والدتها وخصوصا لما رأتهما بصحتها الكاملة وقد ارتد اليها لونها ونور دت وجنتاها واشرق وجهها . وظلت اسماء مبهوثة شاحسة الى ذلك الخيال حتى سمعها تقول بصوت رخيم وهي تبسم « هل عرفت والدك يا اسماء »

فاسرعت اسماء اليها والفت نفسها على صدرها فاشتمت رائحة الوالدية فاتعشت وجعلت تنشقها وهي تقول « لا لالا يا اماء لم اعرفه بعد .. قولي لي ... قولي فقد ندد صبري »

فضمها والدتها الى صدرها وهست في اذنها قائلة « اخضي صوتك ثلاً »
يسمعك الامام »

فاطاعنها وقالت بصوت خافت « قولي لي يا اماء من هو والدي »
قالت « اما جئت اليك الآن لاخبرك بذلك فعلي ان والدك هو ... »
وسكنت لحظة وهي تلثنت يميناً وشمالاً وعيناها نلعمان كان الماء يغشاهما واما شاخصة اليها يبصرها وقلبا بكاد ينشق لاستقبالها وآدائها متبوعة لسماع اسم والدتها . ولكنها ما لبثت ان شعرت بوالدتها ترتعد وقد اخذ لونها بالانقطاع وهي شاخصة الى شيخ قادم اليها . ثم رأتها اجبلت وحاولت الترار فتشبثت اسماء بها وهي تقول « امكني بالله لا تذهبي قولي لي اسم والدي » فلم تلثنت اليها ولكنهما حاولتا التماس منها واسماء ممسكة ثوبها . وفيما هي في ذلك افاقت من نومها مذعورة فرأت نفسها في تلك الحجرة المظلمة على ذلك الحصر القذر وسمعت صوتاً لم تكد تتوجاهة تدرك طلمة اذنم حتى ارتعدت فرائضها لمشابهة صوت مروان بن الحكم عدوها القديم . فقالت في نفسها « اعوذ بالله من تكدي حظي على يد هذا الرجل ألا يزال ذكر شوماً علي حتى في احلامي . كنت في الذ الاحلام فايغضي بصوتي »

وكانت تفكر في ذلك وهي تمسح عينيها بانامها لتحقق اذا كانت في نقطة ام في منام . فما كادت تغف عينيها حتى رأت مروان واقفاً امامها وقد تقلد حسامه وانقن هندامه . فلما رآته استعاذت بالله ولم تلثنت اليه

فتقدم مروان نحوها وهو يقول « لقد صفحنا عما مضى يا اسماء اذا كنت ترجعين عن غيك وتعلمين ان عمداً وعلياً لا يغنيان عنك قليلاً . ما انت الآن في دمشق مستط رأسك ومفرآ بآئك . مالك والمدينة والكوفة . اصغي لصحي وارجي عن عنادك واعلي انك اذا اطعني هذه المرة صفحت عما مضى وكنت اسعد فناء وآ فانك مقتولة لا محالة لانك في قبضة يدي اعمل بك ما اشاء . واعلي ان معاوية سيبيعك اليك يستطلع اقوالك بشأن ما فئت به في المسجد ما لا يأتيه الا كل مخجل الشعور فاذا شئت البقاء حية

اعنذري عما فرط منك وكوني مع القوة ولا بفرك انصار علي في البصر فانه سيأتي منا
سبوقاً لا نفلٌ ورجالاً لا تردُّ وقلوباً كاشجر الصلد وستخرج الخلافة من يديه فنجضع
لنا هو واولاده وكل من يلوذ به «

وكان مروان يتكلم واسماء ترتعش وقلوبها يكاد يفرُّ من صدرها لشدة التأثر
وصعد الدم الى وجهها فتوردت وجنتاها واحمرت عينها وهي مع كل ذلك لا تزال
مطرقة تنكر في ماذا تنجيبة وقد ابقنت ان حياتها بين يديه ويدي معاوية فحدثتها
نفسها لاول وهلة ان تعمل بمنتهى عواطفها فتنتهر مروان وتوبخه ولكنها تذكرت
تهوُّرها في ذلك الصباح في المسجد وما آل اليه امرها بسببه فامسكت نفسها وتجلدت
وهي تكلم الغيظ ولكنها لم تنقطع جواباً

فطن سكوتها لينا او رضا فدنا منها وبالح في نصيحها فقال « لعلك تذكرين
ما عاملتني به من الخفاء حتى الآن وانا اعدرك وارجو ارجواءك لانك انما كنت
مدفوعة الى ذلك بغايش التهمة وكنت تحسبن محمداً اهلاً لك وقد رأيت كيف
انقلب امرهم جميعاً وكيف قام المسلمون عليهم بآلهم بدم الخليفة عثمان . ولا اظنك
تجهلين ما فعله محمد يوم قتله وقد كنت في جملة اليهود . ألم تربيه دخل على الخليفة
وامسك لمحيته وهم يقتلوه فوحى الخليفة وذكره بواله فرجع التحسين ذلك دفاءً واست
مع ذلك ترعين ان محمداً خيراً من مروان «

فتقل كلام مروان على اسماء ولا تنفل الجبال حتى كادت تصرح باحتقارها له
ولكنها حاولت الكدح والسكوت فطعمت عواطفها عن طريق العينين فاسكب دمعها
قطرات تسابق بعضها بعضاً وهي مطرقة لا تنظر اليه

ففرح مروان وتحقق بدمها وهم بالدمومنها والرجوع الى الحديث واذا بالسجان
دخل وقال لمروان « ان الامير نعت رجالاً يستقدمون السجينة اليه » فاذن بدخولهم
ونقدم السجان وهو لا يجسر على مخاطبة اسماء الا بالوقار فقال لها تضلي يا مولاتي
الى الامير . فوقفت وقد مسحت عينيها وخرجت فرأت خارج السجن بضعة رجال
بالسبوف والحراب فقال لهم مروان لا حاجة الى سلاحكم وخفارتكم فانها تسير بنفسها
الى مجلس الامير سيروا انتم عن بعد

الفصل الحادي والسبعون

﴿ مجلس معاوية ﴾

وسارت اسماء تقدم ثالثة وقلب لايهاب الموت ومروان يمني وراها وقلبه مبتهج
بما تجدد من آماله في الحصول عليها . لانه كان لا ينظر اليها الا تحرجها لها وهيبتها .
ولقد يكفيه من الثغر في الحصول عليها ان يتهر محمدًا ويقلبه

وبعد بصع دقائق وصل الجميع الى قصر منيع من بناء الرومان كان في الاصل
قصرًا لحاكم الشام من الروم وعند نايه بعض الخفر بالسيوف والحراب . فدخلت
الى دار واسعة ومروان يسير امامها يهديها الى قاعة المجلس فخرج بها حول البركة
حتى دخل قاعة كبيرة فيها الوسائد والظانفس على الجانبين وفي صدرها معاوية على
منعد والى جانيه عمرو بن العاص ولداه محمد وعبد الله وبين ايديهم جماعة من
الامراء لم تعرفهم . فدخلت ووقفت ونظرت الى المحصور نظارة فاحص بسكية
وجلال ثم وجهت نظرها الى معاوية غير هائبة

فنظر معاوية اليها وتأمل ما يعجل في وجهها من المهابة وكانت لا تزال غاضبة
وقد تقطعت اسرئها وازدادت هبة فاعجب معاوية بهيبتها وجمالها وكان قد أعجب
بتجاعتها واقدامها . فلما وقفت بين يديه قال لها « ما الذي حملك على الجرأة التي
ظهرت منك في المسجد اليوم »

قالت انما حملي على ذلك الحق والصدق فقد سمعت تعريضا رجل اتهمتموه
تہما هو ري بها

قال معاوية وما ادراك ببرائته وانت فتاة قاعة في بيتك
قالت اني اعلم من الامر فوق ما يعلم كل واحد منكم وقد تحققت يقينا ان عليا
امير المؤمنين بري من هذه التهم
فاعترضها عمرو بن العاص قائلا لا تتولي « امير المؤمنين » فاننا
لم نبايعه

فقالت واذا لم نبايعوه انتم فقد بايعه سواد المسلمين في المدينة والبصرة والكوفة

ومصر وسائر العجاز وهو ان عم الرسول (صلم) واحق الناس بهذا الامر
فقال عمرو اراك تحمكين وتفصلين في امور يظهر لك تجهلنها . فلو اجمع
الناس على بيعته ما اضطر الى الحرب وسلك الدماء . يكفيه انه سبب قتل الحليفة
عثمان الذي اصح دمه طليعة ما سلك وسيسلك من الدماء
فنظرت اسماء الى عمرو وقالت الست عمراً ان العاص

قال اللهم نعم

قالت « الم تكن اول ما قم على ذاك الحليفة المقتول لانه عرلك عن مصر وولاها
أخاه عند الله . . . ألم تدرج قتله . . . ولكن الدهاء اوجب بعدك والناس يعلمون
من هو القاتل او الساعي في القتل » قالت ذلك وقد ظهر التأثير على وجهها ما
بدا عليه من الامتناع

فعظم جوابها على عمرو وخاف تماديها في الجرأة فقال لها « من انت يا فتاة »
قالت من هذا المكان

قال اني اسألك عن ابيك

فسكنت ولم تجب فتقدم مروان وهو برحوان يحفف غضب معاوية وعمرو
عن اسماء طمعاً برضاها واستبقائها وقال « انها أموية وهي بنت يزيد الأموي وقد
قتل اوها رحمه الله في جملة من قتل يوم مقتل عثمان
فقال معاوية أأموية انت فلم تجب

فقال كيف تكوين أموية وتقولين غير قول بني أمية وهم محمسون على ان
عثمان قتل ظلماً وقد نهضوا جميعاً للاخذ بشاره

فقالت « لا يهمني أموية كنت او غير أموية ولكنني اتهد بما اعلم . فانا لا أرى
احداً مظلوماً في هذه السنة الا أمير المؤمنين علي بن ابي طالب واني اقول اعتقادي
رضيت ام غضمت . واعلمكم تهديدوني بالقتل او السجن فلا ابالي بالتهديد ولا بالوعيد
هذا قولني قلته فافعلوا ما تشاؤون »

وكان مروان في اثناء كلامها يتكرر في ما يرجوه من رضاها وعيناه شاخصتان
الى الحضور لئلا يظن اليها احد نظر الرائب فيها وودّ لو انهم يقطعون الحديث
لئلا تقول قولاً يثير غضب معاوية فيأمر بقتلها

اما عمرو فرأى بحسن فراسته ودهائه ان يظهر الاستخفاف بكلام اسماء ويبدى
الرفق بها لانه رأى انها لا ترسخ بالعنف . وخاف ان يتهادى في كشف ما كان ساعياً فيه
على عثمان قبل قتله . فقال لما اراك بانبة مغرورة ومن العت ان نخادلك وخصوصاً
ان النبي (صلعم) اوصانا بالنساء رفقا لانيهن صعيقات . وبالأخص امك أموية
من لحينا ودمنا . فارفقي بينك وارحمي عن غيبك وامكثي عندنا في امن واقلمي عما
است فيه

فقال لا تستصغوني ولا ترحوا رحوعي ولا تحسوبي أموية ولا هاتمية فافعلوا
ما تشاؤون وقد قلت لكم اني لا أهاب الموت . .

فتقدم مروان الى معاوية وهمس في اذنه قائلاً « أرى الاقتصار عن جدالها
فاتركوا امر اقناعها اليّ لاني اعرفها قبل ذهابها الى المدينة فقد كانت مقيمة في
دمشق واعرف والدها والدتها واما اصبن اقناعها اما خوتاً واما كرهاً اذ لا يليق
بنا استنفاؤها على هذا العناد فاما ان ترجع عن رايها او ان نقتلها والقتل امر
مستدرك فأرى ان نقتعها بالحسمي » ثم تحوّل الى عمرو وقال بحيث يسمعه الاتيان
ولا نسمعه اسماء « ولا يجني عليكما اما اذا اكتسبناها لحزبنا اطلعنا على كل محمات
علي ورجالها لانيها عالمة بكل اسرارهم فاتركا هذا الامر اليّ » قال ذلك ونحى جاساً
واسماء خائفة ما بدا منه . فقال معاوية خذوها الآن الى منزل مروان وسننظر
في امرها

فقطعت الحديث قائلة العلّ منزلة سجن
قال كلاً

قالت « بل خذوني الى السجن حيث كنت في هذا الصباح »
فخاف مروان اذا اصرروا على ارسالها معه ان تصرّح بشيء ضده فقال « خذوها
الى السجن » وعوّّل على ان يحاطبها هناك



الفصل الثاني والسبعون

* ظلمة السجن *

وأشار معاوية الى الخنزفساروا واسماء تشي امامهم غير هائمة ولا جزعة . واما مروان فانه اسرّ الى كبير الخفران يجعلها في غرفة من غرف السجن منفردة وان يضيئوا عليها لعلمها تشعر بحاجتها الى استنجاده . ولم يدركوا السجن الا بعد الغروب فدخلوا بها والسجان معهم من باب كبير الى دار كبيرة انصلوا منها الى دهليز مظلم انتهوا فيه الى نصح درجات زلوا عليها الى دار صغيرة تستطرق الى غرف عديدة دخلوا في احداها وانصلوا من هن الى تجن اخرى واطئة السقف مظلمة تصاعد منها رائحة الرطوبة والعنوة وقد سنت الخالب على جدرانها وتغلب الماء عنها . فأقعدها على حصير نال ورجعوا وظل السجان وحده . فلما خلاها نظر اليها وكأنه اشفق على شابها وتوسم فيها مهابة وجلالاً ولكنه لم يجاطبها فتركها على ذلك الحصر وعاد وهو يرحوان تحاطبه هي وتلمس نجدته متى احسّت بالوحدة او شعرت بالجوع والخوف اما هي فلما رأّت نفسها في تلك الغرفة وقد خلا المكان من الناس واستولى السكوت على تلك الجدران العنفة لشت تنكر في حالها وما صدر منها في حضن معاوية من الاقوال مخافة ان تكون قد فاهت بما يدل على عجز او خوف فرأت انها ادت الامانة عنها . ولكنهما مع ذلك تأسست لانهما لم تسمح لها الفرصة باستيناء الكلام وقضت ساعات وهي جالسة لا تالي بالظلمة ولا بالجوع او الخوف لعظم تأثرها ثم اشبهت لنفسها وما هي فيه من الخطر اذا لم يكن من معاوية ورجالو فمن مروان وآماله وايقنت انه آت اليها تلك الليلة طمعا رضائها . واليوت عندها خير من اجابة طلبه فالتنمت الى ما حولها وهي لا تكاد ترى جدران الغرفة لشدة الظلام فاصغت بسمعها لعلمها نسمع شيئاً او كلاماً فاذا كل شيء هادئ ساكن لا يكدر سكونه الا وزوزة المعوض حول وجوها وتيق الضنادع نيقاً ضعيفاً يظهر من جهته وضعوه ان السجن قائم على ضنة نهر بردى الذي بتشعب في دمشق فيسقي اهلهما بقساطل من الحجارة او الخنز متفرقة في كل منازلها . فاستأنسّت بذلك النيق ولكنها استوحشت الظلمة الدامسة مخافة ان تغالها عنرب او تعان على غرة

وفيا هي ساكنة تكرر في حالها وقد شغلها الوحشة عن الافكار بالخطر المحقق بها
سمعت خطوات عابئة تدل على سرقة صاحبها في مستيه فجدد الدم في عروقها وخافت
ان يكون ذلك القادم مروان آتيا نحوها . فوحشت انماها نحو الحطب وقلمها بخنق
بشفة وسرعة حتى كادت تنعمر بحنانه في عنقها . فاذا بذلك الصوت يقترب نحوها
فاجلست وبهضت ونبيأت للدفاع اذا رأت لروما ولشت تنتظر ما يكون . فاذا
بالخطوات تسرع وتنعبد وتضعف حتى لم تعد نسمعها . فعلمت ان واحداً كان
قادماً نحوها ثم رجح فازدادت قنفا وظلت واقفة وركبتها ترتعدان لعظم التأثير
وودت لو ان ذلك القادم وصل اليها لتعلم من هو وما غرضه . واما رجوعه فقد زاد
بلالها . وصممت في باطن سرها ان تستهلك في سبيل الدفاع وان القادم اذا كان
مروان فتصرح له بما في ضميرها ولو آل ذلك الى التل

ولشت رهة لم تعد تسمع في انماها صوتاً ولكنها ما رحت مضطربة شاخصة
نعينها الى الجهة التي سمعت بها الصوت وطال ثغوصها حتى لم تعد تستطيع اطلاق
اجنانها ونسيت موقعها رهة

وفيا هي في ذلك لخت سوراً ضعيفاً في دار البحر الصغرى فاستأنست به ولكنها
تذكرت مروان فخافت ان يكون قادماً اليها . على انها تنعمت وقالت في نفسها فليأت
اما اقتله او يقتلي فاسترج من هذه المحاوف . ولم تك تكرر في ذلك حتى رأت الدور
يتعاطم ويقترب ثم بان المصباح بحيلة رجل عرفت من لباسه وقبائمه انه السجان فهدأ
روعها . ونظرت اليه فاذا هو يحمل المصباح في احدى يديه ويحمل بالآخرى قصعة
فلما دنا من غرفتها تأكدت انه السجان

فلبثت تنتظر ما يبدو منه فاذا هو يقول لها سامعيني يا سيدتي لاني تركتك الى
الآن بلا طعام ولا نور فاني لم اكن اعرف انك تنهين الى الامير مروان
فلما سمعت ذلك الاسم ارتعدت مراتبها ولكنها لم تحب . وكان السجان قد دخل
الغرفة ووضع المصباح على الارض وقدم القصعة اليها وفيها خبز ولحم وهو يقول هذا
طعام بعث به الامير مروان اليك وكلامي ان اطعمك انك لن تبيتي في هذا المكان
الا الليلة وفي الغد ينالك الى منزله

فنفرت منه وقالت لا حاجة بي الى طعام فارجع من حيث اتيت

فقال لقد قضيت طول النهار بلا طعام ألا تأكلين شيئاً
 قالت لا لست جائعة عد الطعام حالاً
 فحسب العجان لتولها وقد كان يتوقع ارتياحها لالتفات مروان فقال لها « ولماذا
 هذا يا سيدتي . . . كئي . . . تناولي لقمة تسدين بها جوعك
 قالت خذ الطعام ابي لست جائعة قالت ذلك وحوّلت وجهها عنه
 فقال دعي التصعة والمصاح هنا انعلي بهما ما نشائين وها اني عائد . قال
 ذلك ورحع
 فلما خلت ننسها ظل بصرها على المصباح تتأمل حركاته والمعوض بحوم حوله
 وفكرها نائه وقلها يخفق كلما تصورّت مروان قادماً نحوها . واراقت ان تسند ظهرها
 الى الحائط فاحسّت رطوبته فعادت عنه

الفصل الثالث والسبعون

* طارق مفاجيء *

وعاد المكان الى السكون من طويّلة وقد غرقت اسماء في مجارها واجس ونسبت
 وجدانها ولكنها ما لبثت ان انتهت لصوت اقدام تمشي في الغرفة الخارجية بهدوء
 فأجملت ونأكدت ان مروان قادم فغنت قلبها وصعد الدم الى رأسها وتهيأت
 للفنك بـ . وحوّلت نظرها الى الخارج فرأت شجراً قادماً يحطو خطو السارق المخلص
 وقد الف بعباءة . فخافت ولكنها تجلّدت لتري ما يدومنه فلما دنا من باب العرفة
 قمت ان تخاطبه فاذا هو يقول بصوت خافت « لا تخافي يا سيدتي اني جئتك
 بالبرج لا تخافي »

فلما سمعت كلامه ارتعدت فرائصها وتذكرت انها تسمع صوتاً نعرفه فقالت
 « من انت »

قال ابي عبدك مسعود لا تخافي . وقد جئت لا نفاذك
 قالت ومن اين اتيت ومن ارسلك هل هبطت من السماء ام خرجت من جوف الارض

قال لم يرسلني احد ولكنني كنت سجيناً في هذا المكان منذ تركتك في دير البصرة .
لاني خرجت من الدير وفيما انا عائد الى الكوفة ظمري جماعة من بني امية كانوا قادمين
بهمة من معاوية فقبضوا عليّ وساقوني الى هذا السجن لاني من صنائع ابن ابي نجر
واسكر الله لوجودي هنا لعلني استطيع انقاذك من ايدي هؤلاء الظالمين
فاطمأن بالها ولكنها حسبت نفسها في سام مثل منام الامس . فقالت وكيف عرفت
اني هنا

قال رأيت المخفر لما أتوا لك عند الغروب ولما كنت انتظر فرصة آتي بها اليك
وقد جئت منذ ساعة حتى كدت اقترب اليك فسمعت خطوات السجناء فهرولت
راجعاً وإما الآن فلا خوف عليا من السجناء تعالي معي
قالت وابن هو السجناء

قال انه ذهب الى بيت مروان
قالت وكيف ذلك واخشي ان يكون باقياً
قال لا تخافي لاني حرصت على المسير الى مروان لينجيه . رفقك طعامه ويؤثره على
الجيء للانتقام منك واطمئنت بهال بباله انه اذا فعل ذلك وعولت على الخروج في
اشاء غيباً

قالت « والباب »

قال يظن السجناء المسكين انه اقمنه ولكنه لا يزال مفتوحاً تعالي قبل ان يعود
السجناء أو يأتي مروان . فترددت برهة وقد اعتلمت الفرار
فأدرك مسعود ترددها فقال لها التحسين خروجك من هذا السجن فراراً وما
في بقائك فيه غير الموت او العار . . تعالي . . اسرعي ناشدتك الله

ومشي فمشيت هي في اثره ثم عاد الى المصباح وقال اري ان نطأ هذا المصباح
لئلا يدل علينا . واطمأه فاطم المكان ولم تعد اساء تعرف الطريق فأمسك بيدها
ومشيا وهي ترتمد حتى خرجا من الغرفة الثانية الى الدار الصغرى واطلاً على الدهاليز
وما صعدا الدرجات حتى سمعا كلاماً في طرف الدهاليز الآخر ما يلي الدار الكبرى
فوقنا ينتصنان فاذا بمروان والسجناء قادمين ومروان يقول « لا بد لي من قلبها اذا
ظلت على عنادها وقد كنت اتوقع هذا العناد منها ولذلك فاني ارسلتك بالطعام

وسرتُ في اثرك »

فجهد الدم في عروق مسعود واسماء وابقنا بالهلاك وشق ذلك على مسعود بالاكثر
لانه عرض اسماء للخطر

اما هي فامسكت اضطرابها وشدت على يد مسعود وجرتة الى خلوة وراء باب
الدهليز اتزوبا فيها وقلباها بخنقان والظلام حالك ولبنا ينتظران دخول مروان
والسجان فسمعا مروان يقول « هات المصباح ونعال »
فأجاب السجان « ان في حجرتها مصباحاً تركته عندها »

قال ذلك ودخلا في الدهليز وصدى خطواتها يتماظم رويداً رويداً حتى
بلغا الباب الثاني الذي اخبأ مسعود واسماء وراءه . فلما رأى مروان المكان مظلماً
وقف وقال للسجان « ابن هو المصباح اني ارى السجن مظلماً »

فقل السجان اني وضعته في حجرتها ولعلها اطنأته لكيدها ووقاحتها فلم بنا لنرى
فقال مروان اني لا ارى الطريق لشدة الظلام هات مصباحاً آخر
قال « هلم بنا ندخل ثم آتيك بالمصباح . . . انزل هذه الدرجات على مهل . .
ها اني اخطوها امامك . . . نك بصراع الباب من عندك » قال ذلك ونزلا ومروان
يتوكأ باحدى يديه على السجان وبالاخرى على الباب حتى وصلا ارض الدار الصغرى .
فمشيا حتى دخلا الغرفة وها يلحسان الارض

ولا نسل عن حال مسعود واسماء في تلك اللحظة فقد كانت عندها اطول من شهر
فحالما علما بدخول مروان والسجان الى الغرفة اشار مسعود الى اسماء ان تتخاع نعلها لئلا
يسمع وقعها وكان هو بلا نعال فخلعت نعلها وحماها بيدها ونحوّل كلاهما من وراء
الباب الى الدهليز بخفة وسرعة ومنه الى الدار الكبرى فالباب الكبير وكان لا يزال
مفتوحاً واسرعا الى الشارع وبما صدقائهما نحو

وكانت اسماء تعرف طرق الشام معرفة جيدة فلما بعدا عن السجن وقنا برهة
يتدبران المكان الذي وصلا اليه فعرفته اسماء فسارت تنس كنيسه ماري يوحنا



الفصل الرابع والسبعون

* النجاة *

وقبل ان نصل الى الكيسة تذكرت خادمها والجوادين في الخان فوقفت تتردد بين ان تسير الى الكيسة اولاً او الى الخان . فساء لما مسعود عن سبب تردها فقالت ان تردد بين ان اذهب الى كيسة ماري يوحنا فأقيم فيها او اسير الى الخان حيث يقيم الخادم ومعه الدواب

فتعجب مسعود لتردها بين الاثنين وهو لا يرى حاجة الى الكيسة لانه لا يعلم بما انبأها به الراهب في دير الصرع . فقال وما لنا وللكنائس هلم بنا الى الخان وصم الى الكوفة حالاً فقد بلغني ان الامام علياً وسائر الصحابة هناك

فتنهدت وقالت نعم انهم جميعاً هناك ولكن لي في هذه الكيسة غرضاً يهمني وأنا انما جئت دمشق من اجله ولا بد لي من اتمامه . ولكنني ارى ذهالي الى الكيسة في آخر هذا الليل ما يوجب شبهة او تساؤلاً والكيسة والمسجد متلاصقان اوها بناء واحد فأرى ان امضي ببقية هذا الليل في الخان فأرى الخادم وادبر اموره ثم اسير الى الكيسة . قالت ذلك ومشت ومسعود الى جانبها فسألته هل انت عازم علي الكوفة قال نعم ان شاء الله

قالت اذا لم يكن بد من ذلك فأوصيك ان تبلغ الامام ورجاله ما هم فيه اهل الشام من النعمة لعنان والطلب بدمي . وقصت عليهم ما رأته في المسجد من الخربض والتهديد بالاصابع والقبض الى ان قالت . وقل لهم اني باقية هنا بضعة ايام اخرى ربما ثم مهتي و . . . ثم ادركت ان مسعوداً شديد الميل لمعرفة السبب الذي يدعوها الى البناء هناك مع ما فاسته من الخطر والمذاب وشعرت ان بقاءها على كتفانها عنة مبالغة في احتقاره بعد ان كان سبباً في انقاذها من الموت والعار . فأحبت اطلاعه على بعض السرّ تشجيعاً له لما في ذلك من دلائل الثمّة والاعتماد عليه وقمت بالكلام فاذا ما قد وصلا الى باب الخان ففرع مسعود الباب ففتح له صاحب الخان واراد ان يستنهم عنهما وما غرضهما فابتدرته اسما . بالسؤال عن خادمها هل يقيم هناك فاستأنس بهما ودعاهما الى غرفة الخادم فدخلا . وجلسا هناك في مأمن وقد استولى التعب

على اسماء على أثر ما قاسته من الجهد والسفر والهرم والخطر
واحس مسعود بتعبها فقال لها ها اني ذاهب الى الكوفة وساخبر امير المؤمنين
ومحمدًا بما جرى ولكن اذا سأني احدهما عن سبب فثانك ها ماذا اقول له
قالت « قل له ان النسيب الذي جئت في الهاء غائب في بيت المقدس فاما
ان انتظر قدومه او ان اسافر اليه » وقصّت عليه بعض الحديث ونهض وودعها
وخرج وظلت هي والخدام فدخلت ثيابها وتناولت بعض الطعام ونامت والخدام في غفلة
نامة عما وقع لها في ذلك اليوم . وظلت راقدة الى ظهر اليوم التالي حتى ارناحت
على ان نومها كان منقطعاً نخللة هواجس وبلابل . وفكرت طويلاً في هل تنيم
في دمشق ام تنافس بيت المقدس لمشاهدة النسيب ولكنها تركت ذلك الى ما بعد
السؤال عن مدة اقامته هناك وما يرجوه من الاسراع في قدومه

وقضت بقية ذلك اليوم في الخان وفي الصباح التالي لبست ثوباً غير الذي
كانت فيه يوم المسجد . واورضت خادمها ان يكتم كل شيء . فاذا سئل عن سبب اقامته
هناك لا يذكرها وخرجت تنافس الكنيسة من غير طرفها العمومية فدخلت الكنيسة
وسارت تروا الى النسيبة فادا هي في غرفتها تصلي فمكثت ربتنا فرغت من صلاتها
ودخلت عليها فلقيت منها ترحاباً عظيماً وكانت قد علمت بالقبض عليها وقالت لها
لقد مكثت يا اختي وبدلتك مخافة ان تكوني قد اصبحت بسوء فقصت اسماء عليها خبرها
من الوجهة التي تهمها . فذهمت النسيبة ان حالها تستدعي الكتمان فنالت لها اقبي ها
ما شئت وليس لاحد سبيل اليك اذا اقمتم معي في هذه الغرفة فالك بهنزة ولدي

فلما سمعت اسماء قولها « ولدي » تذكرت والدتها فهاجت اشجانها وقالت في نفسها
« لو كانت والدتي لا تزال حية لكنت في غنى عن كل هذه الماعب . . . آه ما اعز
الامهات وما اشد حاجة البسات اليهن » . ولكنها اجابت النسيبة شاكرة وقالت اعلم
ذلك جيداً ولولاه ما جئت بنسبي وقد كنت عازمة على الخروج من هذه المدينة لو
لم اكن في انتظار انتميس مرقس . هل تقاضيه بقيم طويلاً في بيت المقدس
قالت لا ادري عرمة يتيماً ولكنها لا اظلم بطيل الاقامة هناك

وقضت اسماء اياماً في غناها عند النسيبة تنتظر قدوم النسيب فابطاً وماتت
الاتظار وخافت ان يموت قبل رجوعه بالظر الى شيوخه وضعفه ولما تصورت موته

قبل اطلاعها على اسم والدها هب جسمها واقشعر بدننها وخافت اذا سارت اليه ان يأتي هو من طريق آخر فلا يلتفتان فلتشت تردد بين الامرين

الفصل الخامس والسبعون

* خلافة الامام علي بعد وقعة الجمل *

مر بنا ان الامام عليا لما انتصر في وقعة الجمل نزل الصنع فدايمه اهله فاستعمل عليها عبد الله بن عباس وسار على الكوفة فنتظما واسطم له الامر بالعراق ومصر واليمن والحرمين وفارس وخراسان وما يبعه اهوها ولم يبق خارجا عنه الا الشام وفيها معاوية واهل الشام مغلوبون له في الضارب بدم عثمان كما قد رأيت

وكان علي قد ولي على مصر قيس بن سعد بن عباد وهو من خيرة المهاجرين وكان من جهة الامام علي وهو من دهاء العرب . وكان في مصر جماعة يخربنا يرون غير رأيه ويظالمون بدم عثمان ولكنهم معتزلون لا يخرجون لحرب فرأى قيس من السياسة والدهاء ان يكف الحرب عنهم ويداهنهم لئلا ينضموا الى معاوية

وكان معاوية قد كتب الى قيس يستميله ويبدل له الولايات العظام فلم يجبه قيس الا دفاعا عن علي . فاصطع معاوية عن لسان قيس كتابا قرأه على الناس في الشام بوجههم ان قيسا معه وانه لذلك لم يقاتل المعتزلين في خربنا . فبلغ ذلك عليا فصدق الوشاية في قيس وعزله عن مصر وولي عليها محمد ابن ابي بكر^(١)

ولم يكن اهل الشام شاغل بهم بعد وقعة الجمل الا معاوية وجنود الشام فرأى ان يبعث اليه يطلب يعمه فبعث اليه جرير بن عبد الله البجلي في ذلك وبطلب منه الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والانصار . فسار جرير الى الشام فما طلة معاوية مدة ريثما اراه حال اهل الشام وما يقاسونه من البكاء والمويل عند قبض عثمان واصابع نائلة كما تقدم فرجع جرير بذلك الخبر الى علي . فعلم ان لا بد له من الحرب فسار من الكوفة في جيش ياتس الشام وقد علم بما تحالف عليه معاوية وعمره . وسار

معاوية وعمرو من الشام يطلبان علياً ولكنها ابناً في السهر حتى التقى الجيوشان في صَنِين . ودخلت سنة ٢٧ هـ والجمعان في صَنِين (صَنِين) وصَنِين موضع بغرب الرقة على شاطئ الفرات من غربيهِ (١) بحيث تكون الرقة على الضفة الشرقية وصَنِين في الغربية والفرات بينهما . او هو بين الرصافة في الجنوب والفرات في الشمال . بين صَنِين والكوفة نحو ثلاثمائة ميل او اكثر وبينها وبين الشام نحو نصف ذلك . وهي من الشام في الشمال الشرقي ومن الكوفة في الشمال الغربي

هناك نزل الجيوشان العظيمان يقودها اعظم رجال الاسلام ونخبة المهاجرين والانصار . في ذلك السهل الواسع جرت واقعة صَنِين المشهورة التي قتل فيها عشرات الالوف من الرجال . وقد مال فيها علي ما ناله في وقعة الجمل من النصر والغلبة . ولكن هل انتظم له الامر بعدها . كلا . فانها كانت خاتمة نصرته على مناظرته في الخلافة . ولم يكن ذلك لضعف عزيمته ولا لقلول حسامه ولكنها حيلة دبرها عمرو ابن العاص فنذرت فيه وفشل رجاله وانقسموا فيما بينهم كما سيجي

الفصل السادس والسبعون

* اسماء وجدّاه *

ولبثت اسماء ابناً واسابع عبد القيس تنتظر عود القيس من بيت المقدس فلم يرجع فعصيت لابن الف حساب واشغل بالها ولم تر خيراً من ان تسير في اليو بنفسها فاستشارت القيس في الامر فاستغربت قلتما وتسرعها في مشاهدة القيس فقالت لها وهل تحتاجين الى القيس في امر يدعو الى هذا القاتل فتأومت الفتاة وسكنت كأنها تريد مكاشفتها بما في ضميرها لعلها تفرج كربها فقالت لها القيس قولي يا ابنتي ما الذي اوجب تهديك عساي ان انتفك قالت اني احتاج الى سيدي القيس في سرّ عنه عن والدي لا يعرفه احد سواه

وقد كانت والدتي فقط نعرفه وباحت به للنسيس . واما الآن فلم يبق غير عارفاً به فادركت النسيسة ان والدتها ماتت فلم تشأ ان تذكرها بها ولكنها احبت ان تعرف ما هو موضوع ذلك السر فقالت وهل يجوز ان اعرف ما هو ذلك السر قالت اعترف لك يا سيدتي اني ربيت في دمشق في حجر والدتي ورجل كنت احسبه والذي فاخبرني والدتي يوماً ان ذلك الرجل ليس والذي فسالته عن والذي المحبتي فوعدتني باطلائي عليه في فرصة اخرى . وقصت اسماء قصتها على النسيسة من اولها الى آخرها ما يتعلق بحقيقة والدها

وكانت اسماء تنكلم والنسيسة تنظر اليها وتنامل ملاحظها فلما فرغت من كلامها تسامت النسيسة وهشت لها وصمتها وقالت ألعلك انة مريم

قالت « نعم ياسيدي » واستأنست بمجنونها

فقالت مسكية والدتك

فقالت اسماء وهل تعرفينها

قالت اعرفها جيداً قل ان نتزوج وكانت كثيراً ما تأتي الكنيسة للصلاة مع والديها وكانت اما يومئذ شابة وهي صبية وكانت احبها كثيراً فلا يضي عيد من اعيادنا الكبرى كالنصح والشعابين والبلاد وغيرها الا كنت انا والنسيس على مائدة جديك رحمها الله . واذكر ان كان لوالدتك اخ جميل الصورة حاد الذهن كان يأتي مع امك والديها الى الصلاة . وظللنا على ذلك حتى جاء ما العرب منذ بضع وعشرين سنة فتفخروا هذه المدينة واستولوا عليها وفرقوا شملنا . وكانت والدتك قد اصحبت شابة وهي في مثل خالك جمالاً وذكاء ولم اعد أرى جديك ولكنني سمعت انها قتلا . اما امك فلغني انهم اخذوها سبية ولم اعد اراها الا منذ عام وبض العام اذ انتمت الى النسيس واذكر اني رأيتها وهي داخله فمكثت عنده رهة واما احسبني اعرفها ولما خرجت سألت النسيس عنها وان يكر سؤالي تظلاً وقلت « البست هذه مريم بنت قسطنطين (وهو اسم جدك) » قال بلى هي ولكنني رأيت على وجهه بعد خروج والدتك من عنده اثر الانقباض ورأيت الدمع في آماق فانشغل خاطري ولم اسأله عن السبب مخافة ان يكون سؤالي من قبل التطفل لعلمي ان النسيس مستودع اسرار كثيرين وقالت في نفسي لو كان خبر هذه المرأة ما يجوز ذكره

لما تأخر عن ذكره لي فسكت . اما هو فكأنه ادرك عظم قلتي لمعرفة خبر والدتك لما يعلمه من رابطة المودة بيننا فلما جلسنا على المائدة في المساء أخبرني عن كيفية سببها وسبب غيابها عما كل هذه المدة وفهمت من خلال كلامه ان الرجل الذي كان معها بونذر ليس والدك وان والدك رجل آخر

فقلت اسماء بلهفة « الم تعرفي اسم والدي » . قالت كلاً لاني لم اسأله عن ذلك فاستأنست اسماء بالنسيصة وازدادت ميلاً اليها فقالت لها بماذا تشيرين عليّ الآن أأنتظر رجوع النسيس ام اسير الى القدس فاستطلعه السرّ

فصمتت النسيصة كأنها تنكر في امر ثم تغير لونها بفتنة وانقض وجوها ونظرت الى اسماء والدمع يتلألأ في عينيها وقالت ارى ان تدهي الى بيت المقدس لان النسيس اصبح شيئاً هروماً . قالت ذلك وشصت كلامها

فادركت اسماء انها تخاف انتضاء اجله عاجلاً فجهلت عما بدا من عواطفها وقالت ها اني ذاهبة والانكال على الله . ونهضت للحال فودعت النسيصة وخرجت تاتمس الخان وفيه خادمها والجوادران فامرته بالاستعداد وفي صباح اليوم التالي ركبته وسارت قاصدة بيت المقدس

الفصل السادس والسبعون

* القسيس مرقس وانطاكية *

وكان القسيس مرقس كما نندم يعرف جذري اسماء واهلها قبل الزنج وله انعطاف خصوصي لما فلما تسلم السرّ من مريم والذين اسماء شاركها في عواطفها وبلاياها وازداد انعطافاً لها وود لو استعاع ما يفرج به عنيا . فلما جاءته المنة الاخيرة قبل سفرها الى المدينة واخبرته انها عازمة على كشف امرها لاصحاب الشأن هناك سرّاً ولكنه رآها مريضة ضئيلة فتشاع من منظرها وتوقع قرب انتضاء اجلها فاوصاها ان تهبث اليه بما يتم لها وهو انما يريد بذلك تغنى وصولها الى ما منها حية . فلما مضى العام ولم يرد عليه خبر تعاطف قلقة عليها وكان كلما سمع اسم يثرب (المدينة) تجدد بدماله وود

لويرى اسماء ليخبرها عن والدها ولكنه لا يعرف مقرها . فلبثت وذلك شأنه حتى جاء الامويون شبيب عثمان واصابع نائلة وكان ما كان من مكائهم وعويلهم وعلم ما حدث من التنة في المدينة فارداد استغال خاطر واثرت تلك الفوغاء في صحته فاضطر مع ضعفه وعجزه ان يهرج دمشق الى مكان يستكن فيه ريتا نهذاً الاحوال . فخطر له المسير الى بيت المقدس لان له فيها اهلاً يرتاح الى مجاورتهم فركب الهاقبل وصول اسماء الى دمشق ومكث هناك مدة وهو لا يرداد الاضعفاً ولم يجد ترحب اهله واحباؤهم به نهغاً واحس بفقر الأجل

فخطر له الركوب الى انطاكية وهو الكرسي المطريكي الذي سيم فيه قسيساً فيرى المطريك الانطاكي ويتزود الاسرا المندسة على يد قمل الوفاة وانتق ان مركباً امراطورياً كان راسياً في مياه عسقلان اسند الامراطور قوسطاس الثاني ليجل البطريك الاورشليمي الى انطاكية لمخارج بطريكتها في بعض الشؤون الدينية التي كان الحلاف قائماً عليها في تلك الايام . وكان المطريك الاورشليمي قد علم نزم القسيس مرقس على انطاكية فدعاه ليسير اليها معه بجرأ لان الفصل صيف ولا خوف من الاسواء والطريق في الرشق لما يتضيو من ركوب الدواب وقطع الجبال والادوية فسر القسيس بتلك الدعوة وسار في حاشية البطريك على البغال والحديد الى عسقلان على ان يسيروا منها الى انطاكية في المركب الامراطوري

وانفق وصول اسماء الى القدس بعد خروج القسيس منها بضعة ايام ولما اخبروها انه قصد انطاكية استعازت بالله مما انتق لها من الخس في اسنارها الاخيرة وبانت ليلة وصولها في الخان حزينة لم ينشف دمعها طول ذلك الليل لفرط ما تولاه من القنوط فاصبحت شديدة الاعتقاد بنفس طالعتها

على انها اصبحت في اليوم التالي وقد هدأ روعها فاستخدمت ارادتها ونقلها وعادت الى رابطة جاشها فقالت في نفسها لا ذهبن الى انطاكية على عجل قبل ان يهرج القسيس منها والانتكال على الله فركبت جوادها وسارت والخادم في رفقتها يوم لها بما تحتاج اليه من الخدمة في السفر . وهي حينما توجهت متكة بلباس الرجال مخافة ان يعلم مروان بها ولا ينجبها منه شيء الا التل وكان المسافر من القدس الى انطاكية يغلب ان يمر بدمشق اما هي فجعلت طريقها في لبنان . وبعد مسيرة ايام وليال

اشرفت على اطاكية

وكان وصولها اليها في الصباح قبل طلوع الشمس والشمس لا تشرق على اطاكية الا متأخرة لاحتجابها بالجبل الشرقي . واشرفت اسماء على تلك المدينة العظيمة ام مدن الشام وكرسي طاركتها بل هي ثالثة مدن تلك الايام (رومية والاسكندرية واطاكية)^(١) فاطلت عليها من مرتع مشرف فاذا هي مستعيلة الشكل على ضفة نهر الاورنتس الجوية تحديق بها الساتين الغناء وفيها الانمار والناكهة من كل الانواع . فاندملت اسماء العظمة تلك المدينة وما فيها من الانية الشاهنة واكثرها من الكنائس فوقها القباب المخرفة ناهيك عن النوارع التي لا تكاد تشرق الشمس حتى تنص باللاس . وما ذهبها نوع خاص سورها العظيم وما عليه من الاراج التي يبلغ عددها ٢٦٠ رجلا وله خمسة ابواب . وتتمتع ذلك السور الواسع بنظرها لعلمها تحيط بسعة المدينة فرأت انها تحاول عملاً لان السور يصعد مع الجبل الى اعلاه ثم ينزل من الجهة الاخرى بحيث يحيط بالمدينة ومزارعها جميعاً^(٢) بما تزيد مساحته على تسعة عشر ميلاً مربعاً

فبهنت اسماء لتلك الماطر الفخيمة وكان بحر الروم يتراعى لما عن بعد في الافق كأنه هلال مستعيل . وبعد ان وقفت هناك رهة تتأمل عظمة هذه المدينة تحولت الى باب من ابواب السور في الشرق انضمت منه الى الشارع الاعظم وهو يتطوع المدينة في طولها من الشرق الى الغرب طوله اربعة اميال عليه من الجاسين اربعة صفوف من الاسمة الرخامية تعلوها اقواس جميلة وفي الوسط طريق واسع مكتوف مرصف بالغرانيت . يحده من الجاسين متعدد من الرخام المنقوش . والشارع كله على استقامة واحدة تنفرع منه طرق صغيرة الى كل من الجاسين فذهلت اسماء لما شاهدته من العظمة والذخ في اطاكية مما لم تر مثله قبلاً . وما زاد ذهولها وادهاشها انها رأت نيجان الاعمة في ذلك الشارع الطويل محلاة بالذهب الخالص مما يندر مثاله في اعظم مدن الارض . على ان ذلك المنظر الجليل كان مزروجا بما يدنو الى الافس الشديد لما توالى على هذه المدينة من الرلازل التي دكت معظم انبيتها فشوهت وحبها وشيرت مجرى نهرها على ان العظمة مع ذلك ما زالت تفتلي فيها^(٣)

(١) الانسيكلوبيديا البريطانية (٢) مرصد الاطلاع (٣) الانسيكلوبيديا البريطانية

وما زالت أسماء سائرة تلتبس دار الطير بك لعلها ترى القيس هناك فوصلت الى بناء شاهق يدخلون اليه من باب عظيم قائم على اعمدة من الرخام عنبته العليا من الغرائب الاحمر الجميل عليها نقوش باليونانية لم نستطع أسماء قراءتها . فاطلّت من ذلك الباب الى فناء واسع مرصّف بالسيفساء ينتهي الى سلم عريض يصعدون منه الى دار رحمة رأيت فيها جماعة من القسوس والشماسة وغيرهم يحيطون وكل اثنين او ثلاثة منهم في شاغل من الحديث . فقالت في نفسها أأدخل . . . فاذا كان القيس ليس هنا فما الذي يدخلني . ثم سألت بعض الوقوف عد الباب عن القيس مرفس فقال انه لا يعرفه . فتذكرت انه قادم على مركب البطريرك الاورشليمي وانها يصلان معاً . فسألت عن البطريرك فقالوا انه لم يصل ولا هم يعلمون زمن وصوله لان السفر في البحر انما هو تحت رحمة الرياح فاذا هبت في جهة مسير المركب اسرع وصوله واذا عاكسته تأخر اياماً واسابيع . وعلمت أسماء ذلك فقالت لا بد لي اذا من الترتص ريثما نصل السفينة . وامرت الخادم ان يسير بها الى خان نقيم فيه

الفصل السابع والسبعون

* المسير الى صفين *

وقضت أسماء في الخان اياماً وهي على مثل الحمر تصعد احباً الى الجبل تنطلع منه الى البحر لعلها ترى مركباً قادماً . ولكن بعد البحر من اطاكية كان كثيراً ما يحول دون رؤيتها شيئاً فاذا ملّت الاصطمار أرسلت خادماً الى البطريركية يسأل عن القادسين حتى لم يبق لها صبر على البقاء هناك وابقنت سوء طالعها فقالت في نفسها لا بعد ان تغرق السفينة بمن فيها نتماً لشقائي

وكانت غرفتها تشرف على الشارع الاعظم فاستبظت ذات يوم من فراشها على ضجيج الناس وغوغائهم وجانبهم في الشارع فاطلّت من النافذة فاذا هم جماعات من العرب بالعدن والسلاح سائرون على غير نظام بعضهم يحملون الاعلام وفيهم الفرسان والمشاة تتقدمهم بعض النساء بالدفوف بين مرع ومستدير يصرس عليها وينشدن

الاشعار الحاسية يستغثن بها الرجال وينهضن همهم . فعلت اسماء انهم من جند انطاكية ولكنها لم تنهم معنى جلبتهم فنادت الخادم فلم يجيبها لانه كان قد انخرط في سلك المارة بمجادثهم ويستنهم منهم عمام فيه . وبعد قليل عاد مسرعاً وامارات البغنة بادبة على وجهه

فقال وما وراؤك . . من هم هؤلاء
قال هم جماعة من جند انطاكية سائرون لنجدة جند الشام في صنين
فقال لي من

قال على جند امير المؤمنين علي بن ابي طالب
فقال بلهفة وهل هم في حرب هناك
قال نعم يا سيدتي انهم هناك منذ مدة طويلة لان بعض الذين خاطبتهم الآن يزعم انه كان في حملة سابقة وانه شهد معركة هائلة هناك انكسرفها جيش الامام
ولم يتم كلامه حتى اقشعر بدن اسماء وصعد الدم الى وجنتيها غيرة وحمية وقالت
ابن هي صنين

قال انها على بضع مراحل من هذا المكان شرقاً

فلبثت في حيرة بين ان تظل في انطاكية حتى يصل القيس او ان تسير الى صنين وترى ما تم لجند الامام فلبثت صامته برهة فتركها الخادم وخرج . اما هي ففالت في نفسها ان انتظاري مركباً قادماً في هذا البحر قد يطول كثيراً لان سفر البحر لا حدود له وقد ينتهي انتظاري بالنشل اما بغرق المركب واما بهوث القيس قبل وصوله لثم تعاسي . قالت ذلك وتناثر الدمع من عينيها اسفاً على حالها وغيضاً مما احدث بها من البلاء فبكت ثم عادت الى هواجسها ففالت واما الحرب في صنين فان عليها نتوقف سعادة المسلمين او شقاوتهم وما انا خير من احدثهم ولا بد لي من الاسراع الى هناك عساي ان استطع خدمة اولي اقتل في ساحة الوغى فانجو من هذه المتاعب ثم نادى الخادم فلما حضر قالت اسرع الى دار البطرك واسأل عن القيس مرقس فاذا قيل انه لم يأت عد حالاً واسرج الجواد واعدد معدات السفر
فخرج الخادم وبعد قليل عاد ومعه بعض الزاد مما لا غنى عنه في الطرق

واخبرها ان السفينة لم تصل ولا يعلم احد زمن وصولها وما اعدت ما يحتاج اليه في الطريق

قالت نذهب اذا الى انطاكية حتى اذا انقضت الحرب وظللنا في قيد الحياة نعود الى انطاكية والآن . . . فعلى الدنيا السلام

ولم تمض ساعة حتى ركبت اسما وركب خادما في اثرها وخرجا من المدينة فالتقيا بالنجدة سائق امامهما ففكرت اسما بماذا تستطيع خدمة الامام وهي يد واحد لا تنين في القتال فائدة تذكر فلاح لها ان تحمد في استطلاع حال العدو وكشف عوراته ومجباته ولا يتم لها ذلك الا اذا اختلطت بجند الشام . وذلك لا يكون الا اذا تنكرت وانخرطت في سلوكه

وقصت مسافة الطريق وهي تفكر في الامر وكانت قد سمعت نجدة انطاكية فاضلت في صباح الخميس بعد نضعة ايام على سهل صنين من جبل عال فهاها ما شاهدته في ذلك السهل من الخيام والاعلام والجند والحيل والجمال ولم يكن في ذلك الحين قتال . فرأت هناك معسكرين احدهما في الشرق والاخر في الغرب بينهما ساحة خالية فعلت انهما معسكرا معاوية وعلي في هدنة وشاهدت الجبال سارحة في المراعي وراء الخيام ومعها العبيد ترعاها . وتأملت معسكر الشام لانه اقرب الى موقفها من ذاك فرأت في وسطه قبة كبيرة حولها الرجال والحيل فعلت انهما قبة معاوية امير تلك الحملة . . .

وما كادت تتأمل في ذنبك المجندين رفة حتى رأت فيها حركة وقد نهياها جميعا للقتال والنهم الجيشان وتطابرت النبال وصهلت الحيل وخفت الاعلام وصاح الفرسان من الجاسين . فلم ترَ بدّا من العمل فقالت لخادما اعطاني ثيابك وخذ ثيابي واتق انت هنا بالجوادين

الفصل الثامن والسبعون

* وقعة صفين *

فلبست اسما ثياب خادما حتى اشبهت بعض رجال حملة انطاكية وكانت

لم تصل بعد على ابها وصلت بعد هنية فانخرطت اسماء في سلكها وسارت مع المشاة لا ينتبه لها احد حتى دخلت معسكر معاوية والحرب محذمة وكل* مشتغل بنسوه وما زالت تحترق الجماهير وهي تتظاهر بالمقاتلة معهم حتى وصلت الى قبة معاوية فرأت حولها خمسة صفوف من الرجال قد عقلوا انفسهم بالعائم^(١) حول القبة للدفاع عن معاوية بحيث لا يستطيع احد منهم الفرار وحد* . فعلمت انهم مستهلكون في سبيل نصرته او مستفتلون في الدفاع عنه . وتطلعت من خلال الصفوف فرأت معاوية والى جانب عمرو بن العاص وكلاهما في وجل واعينهما تكاد تعابير شعاعاً ناطعاً لما سيكون من عاقبة تلك الواقعة وهما يستخمان الرجال على الدفاع ويجرضانهم على الثبات والنبال تتطاير كأنها الجراد في السحاب . فاحتالت اسماء في الدخول الى قبة معاوية فرأت فارساً جاء مسرعاً ودخل من شق بين تلك الصفوف فدخلت هي في اثره ودخل غيرها ايضاً فلم ينتبه لها احد فسمعت معاوية يسأل الفارس عما به فقال ان وطأة العدو سديقة ولكننا سنغلبهم باذن الله

ونظرت اسماء الى وجه عمرو بن العاص فاذا هو ممتقع وقد ظهرت الغتة عليه وكذلك معاوية ومن معها من الامراء . ثم رأت عمراً خرج مسرعاً فركب فرسه وسار يجترق الصفوف يستحث الرجال ويجرحهم واسماء واقفة في جملة الوقوف وقد سرت بما شاهدته من شعور معاوية بقوة رجال علي . وبعد هنية عاد عمرو مسرعاً ودخل القبة واخلى بمعاوية فلم تعلم اسماء ما دار بينهما ثم عادا الى فرسيهما يشرفان عنهما على الواقعة واسماء ترتقب حركاتهما

وفيا هي في ذلك سمعت صوتاً كالرعد القاصف رن في اذنيها ربيعاً مطرناً لانه صوت الامام علي يقول

اقتلهم ولا ارى معاوية * الجاحظ العين العظيم المحاوية^(٢)
فالتفتت فاذا هو علي* على فرسه وقد تلغخت ثيابه وسالت الدماء من نصال حسامه . ولما دنا من قبة معاوية صاح فيه « الي يا معاوية علام يقتل الناس بيننا هلم احاكمك الى الله فاني قتل صاحبة انتقام لة الامر » فسمعت اسماء عمراً يقول لمعاوية هساً « والله انصفك » فقال لة معاوية « ولكنك ما انصفت » . اما

الامام عليؑ فانه صر هنيهة فلما لم ينزل معاوية لما رزق عاده على فرسه يهب الارض
بهماً وعينا اسماء تشيعا به وهي تدعوه بالنصر

وانقضى النهار والحرب قائمة وخيم الظلام والناس لا يراون يتقاتلون فاعتمت
اسماء ظلام الليل لاستطلاع بية معاوية فددت من الفتنة حتى كانت بالقرب من
معاوية ليس بينها وبينه الا الحذر وهو لا يبينه لها . فسمعه يجاطب عمراً وفي حديثها
ما يشف عن خوفها من عاقبة تلك المعركة . وما سمعته قول معاوية « ارى اهل
العراق قد شتوا امام اهل الشام »

فاجابه عمرو « انهم تنتوا . نعم ولكن لا بد من الحيلة والا فستلنا وانقضى
الامر علينا »

فقال معاوية « وما الحيلة يا ابا عبد الله »
قال « نترص على ما نحن فيه الى الصباح فاذا تحقنا فقل حديدا عمدا الى
الحيلة وهي عندي هينة »

قال معاوية « وما هي »
قال « ساقولها غداً صباحاً وراحوا ان لا يرى حاجة اليها »
فودت اسماء لو انه ذكر حيلته لتسرع بخبرها الى علي ولكن لم تقاها

الفصل التاسع والسبعون

﴿ رفع المصاحف ﴾

واصبحوا يوم الجمعة والحرب لا تزال متواصلة وقد تنهفرت حد معاوية حتى
وصل رجال علي الى الصفوف المعنولة حول الفتنة . فالتفت معاوية الى
عمرو وقال « ما الحيلة يا عمرو »

قال « ارفعوا المصاحف على الرماح وقولوا كتاب الله بينا وبينكم فان قلوا
بذلك جميعاً ارتفع القتال عنا . واذا قبل بعضهم دون البعض الآخر تفرقوا وانفسوا
على انفسهم فيكون لنا بانقسامهم راحة » (١)

فلما سمعت أسماء ذلك خافت انطلاء تلك الحملة على علي فهرولت مسرعة
تحترق الصنوف وقلبها يرقص فرحاً لانها استطاعت خدمة تنبع بها علياً وفي تلي
يتبن من فشل جند معاوية وإن علياً اذا ظل على التتال فاز بالنصر المبين واذا
صدق حيلة عمرو ضاعت الفرصة منه

اما علي* فكان قد حارب رسالة تحلى لأول نهار الامس ولبلو وقد تخفى
فوز جند وما انك يطوف في صنوفهم يستغثم على الثبات ويدعوهم بالنصر حتى عاد
في الصباح الى فسطاط لمرض له وفيما هو هناك جاءه مخبر ان اهل الشام رفعوا
المصاحف على الرماح وهم يقولون « هذا حكم كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم من
لثغور الشام بعد اهله . ومن ثغور العراق بعد اهله . » فلما سمع علي* كلامهم قال
« لا لانجيهم الى ذلك لانها حيلة منهم »

فجاءه نمر من رجاله وقالوا « يجب علينا ان نجيب الى كتاب الله »
فوقف علي* وقد خاف التنبه وقال :

« عماد الله امصوا على حنكم وصدقكم وقال عدوكم فان معاوية وعمراً وام
ابي معيط وحبیباً واس ابي سرح والفعاك ليسوا باصحاب دين ولا قرآن انا اعرف
بهم منكم قد صحنهم اطمالاً ثم رجلاً فكلوا شره اطفال وشر رجال ويحكم والله ما
رفعوها الا خديعة ووهناً ومكيدة »

فقالوا له « لا يسعنا ان ندعى الى كتاب الله فنأبى ان نقبله »

فقال لهم علي « فاني انما اقاتلهم ليدعوا لحكم الكتاب فانهم قد عصوا الله فيما
امرهم ونهى وعبدوا كتابه »

فقال له مسعر بن فدكي التيمي وزيد بن حصين الطائي في عصاة من الفراء
الذين صاروا خوارج بعد ذلك « يا علي اجب الى كتاب الله عز وجل اذ دعيت
اليه والاً دفعتك سمرتك الى التوم او ننعل بك ما فعلنا با بن عفان »

قال « فاحفظوا عني نهبي اياكم واحفظوا مقاتلكم لي فان تطيعوني فقاتلوا
وان تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم » (١)

قال ذلك وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً . وفيما هو في هذا المجدال انشق

المجمع وخرج من وسطهم شخص ثياب الرجال ولكنه اسماء فانها وصلت وسمعت الناس يجاجون علياً فهرولت حتى وقعت بينهم وبين علي وقد ثارت الحمية في رأسها وعلا وجهها احمرار التعب من شدة الجري فصلاً عما قام في نفسها من الاسف لتلك الحال . فكشفت عن وجهها وسلمت على الامام بقية الخلافة والتفتت الى الوقوف هناك وقالت لهم « اعلوا اني قادمة من معسكر معاوية وقد سمعت حديثهم عن هذه الحملة بأذني وانما جئت مسرعة مخافة ان تطالي الحملة عليكم وتكفوا عن القتال . انها والله خديعة اخترعها ابن العاص ليلقي التفاق بينكم . واخشي ان تنفذ حيلته فيكم فاطيعوا امير المؤمنين وانتم الغامون »

فصحكوا من كلامها وقالوا « كيف دعي الى كتاب الله ولا نجيب . هدا لا يمكن ابداً »

ثم وجهوا كلامهم الى علي وقالوا « ابعت الى الاشتر فليأتك » وكان الاشتر النخعي من اشجع قواد تلك الحملة وقد ابلى في تلك الحرب بلاءً حسناً وكان لا يزال يجاربهم وانما طامحوا استفداه ليكف عن الحرب . فبعث علي اليه فلم يأت لانه رأى النور بين يديه واذا تحوّل عن موقفه صدت اعماله فلما ابطأ قال اولئك الناس لعلّي « نضلك امرئ ما الحرب فامعت اليه والى الله اعترلتك » فبعث اليه علي ثابيه فجاء وهو يقول « اظلمكم تدعونني الى الكف عن القتال بعد رفع المصاحف »

ثم اقبل عليهم وهو يقول .

« يا اهل العراق يا اهل الذل والوهن احين علوم القوم ووطنوا انكم لم قاهرون رفعوا المصاحف بدعونكم الى ما فيها وهم والله قد تركوا ما امر الله به فيها وسنة من انزلت عليه فامهلوني فواقا فاني قد احسنت بالنتع »

قالوا « لا »

قال « امهلوني عدو الفرس فاني قد طمعت بالنصر »

قالوا « اذن تدخل معك في خطيئتك »

قال « فخبروني عنكم متى كنتم محقين احين نقاتلون وخياركم يتلون فاتم الآن اذا امسكنم عن القتال مبطلون ام انتم الآن محقون فقتلاكم الذين لا تنكرون فضلهم

وهم خير منكم في النار »

قالوا « دعنا ملك يا اشتر قد قاتلناهم لله ودع قتالهم لله »
قال « خذعنم واحمدعنم ودعيتهم الى وضع الحرب فاجبتهم يا اصحاب الجباه السود
كما نظر صلاتكم رهادة في الدنيا وشوقاً الى لقاء الله فلا ارى مرادكم الا الدنيا الا
قبعا يا اشرار الديب الجلالة ما انتم رائين عدها عراً اداً فابعدوا كما بعد
القوم الظالمون »

فسوه وسهم وصروا وجه دأته سيماطهم وصر ووجه دوابهم سوطه . فصاح
به وبهم علي فكموا وقال الناس قد قلنا ان يحمل القرآن بيننا وبينهم حكماً
وطال الاخذ والرد بينهم واسماء واقنة وقلها بكاد يتقد غيضاً من عباد اولئك
المخالين فلما سمعت الاقرار على اجانة الدعة تآثرت الدموع من عينها بالرغم عنها
والتفتت الى علي فاذا هو مضرق وقد أخذ العصب منه مأخذاً عظيماً كأنه يرى
عاقبة ذلك يعييه فتعاظم عيها وارادت نوبح اولئك ونقر يعيهم فحافت ان يعد
ذلك وقاحة بعد ان وقع الاقرار فتندحت جاساً ولبتت تنتظر ما يكون

الفصل الثمانون

﴿ أمر الحكمين وعقد التحكيم ﴾

فتقدم رجل من خاصة علي فقال رى الناس قد قتلوا مادعوا اليه من حكم القرآن
فهل تأذن ان اسمع ما يدعوا معاوية اليه من هذا الامر
قال علي سر اليه واسأله عن ذلك
فذهب وعاد وهو ينول سألت معاوية عما حملته على رفع المصاحف فقال
« الرجوع الى ما امر به الله في كتابه فاعتلوا رجلاً ترضون به ونعت نحن رجلاً
يرضى به تأخذ عليهما ان يعملوا بما في كتاب الله لا يعدوا به ثم تبع ما اتفقا عليه »
فقال علي قبلنا بذلك فأبي رجل اختاروا هم
قال اختاروا ان يتوب عنهم عمرو بن العاص

فالتفت علي* الى من حوله وقال « ومن تخارون انتم »

قالوا « تخنار ابا موسى الاشعري »

فلما سمع علي* كلامهم اجبل وقال « لا لا .. انكم لم تصيبوا . وقد عصيتوني

في اول الامر فلا تعصوني الآن . لا ارى ابا موسى كذوباً لان العاص وهو مع

ذلك ليس بثقة فقد فارقتني وخذل الناس عني ثم هرب مني حتى اُمتنته بعد اشهر .

فكيف ركن اليه في مثل هذا الحكيم . هذا ابن عباس اوليو ذلك »

فصاحوا بصوت واحد « والله لا نبالي انت كنت ام ابن عباس لا يريد الا

رجلاً هومنك ومن معاوية سواء »

قال علي* « فاني اجعل الاشترا »

قالوا « وهل سعر الارض غير الاشترا »

قال « قد اينتم الا ابا موسى » (١)

قالوا نعم

قال افعلوا ما اردنم

وكانت اسماء تسمع ذلك الجدل وهي تكاد تميز غيظاً ولكنها لم تكن تجسر على

الكلام تهيئاً من علي

وبعد قليل جاء ابو موسى الاشعري وعمرو فدخلوا على علي* ليكنيا الفضية محصوره

وهي صورة عقد الحكيم فبدأوا بكتابة « سم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى

عليه امير المؤمنين .. » فاعترض عمرو قائلاً « هو اميركم وليس اميرنا » وطال

الجدال في ذلك حتى وقع نور شديد بين علي وعمرو وانتهى الامر ان يكتب العقد

على هذه الصورة

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه علي بن ابي طالب ومعاوية

ابن ابي سنيان قاضي علي على اهل الكوفة ومن معهم وقاضي معاوية على اهل الشام

ومن معهم . اننا ننزل عند حكم الله وكتابه وان لا يجمع بيننا غيره وان كتاب الله

بيننا من فاتحنه الى خاتمته نجي ما احيا وثبت ما امات . فما وجد الحكمان في كتاب

الله وها ابو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عملا به . وما لم يجدها به

كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة . واخذ المحكان من علي ومعاوية ومن
 الجند بن من اليهود والمواثيق انهما آمنان على نفسيهما واهليهما والامة لها انصار على
 الذي يتقاضيان عليه . وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه ان
 يحكما بين هذه الامة لا يرداها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا . واجل القضاء الى رمضان
 وان احبا ان يؤخرا ذلك اخرا . وان مكان قضيتها مكان عدل بين اهل الكوفة واهل
 الشام « (١) (وبلى ذلك اسماء الشهود)

وقد كتب ذلك العقد في ١٢ صفر سنة ٤٧ هـ

ولما تمت الكتابة نلى العقد على الناس وانض المجلس ولجأت الجند الى الهدنة
 ريشما بجل الاجل المضروب لمجلس التحكيم

وتراجع الناس عن صنين وهم علي بالتزوع الى الكوفة فجاءته اسماء في ساعة
 كان فيها محتلياً وقلت يد فساها عن حالها وما نم لها بعد سفرها فقصت عليه
 خبرها وما الذي حملها على القدوم قبل مقابلة القيس فاثني على غيرتها ودعاها الى
 الذهاب معهم الى الكوفة

فقلت يا حبذا ذلك ولكنني اقرب الآن الى انطاكية فأذن لي بالذهاب
 اليها فقد آن لي ان اعرف حقيقة سبي . فاطرق علي رهة بتأمل فحافت اسماء ان
 يكون في شاغل آخر فودعته وخرجت على ان تعود يوم التحكيم لتسمع حكم الحكيم
 وكان المسلمون كافة في انتظار ذلك اليوم لانه سيكون يوماً عظيماً ولم تنتقد
 محمداً لعلها انه كان يومئذ في مصر يتولى امورها

الفصل الحادي والثمانون

* قطعت جهيزة قول كل خطيب *

عادت اسماء الى الجبل حيث تركت جوادها وخادما وبذلت ثيابها وركبت
 الى انطاكية لانه لا تقبل ليلاً ولا نهاراً كأن قلبها حدثها بما ستلاقيه من الفشل هناك
 واشرفت على انطاكية من جبلها الشرقي واطلت على البحر فلحمت شيئاً كأنه مركب

ولكن البعد حجب عنها فغنى قلبها سروراً فتزلت من الجبل حتى اذا دنت من المدينة سمعت دق الاجراس دقاً باطناً متقطعاً فقالت في نفسها لعلهم يجنلون بقدوم البطريق ولكنها لم تكد تدخل الشارع الاعظم حتى رأت الناس يجشّدون فيؤيدونهم سرب من الاكليروس بالمباخر فعرفت انه احتفال بمجنازة

ولا نسل عن حاملها لما علمت انها جنازة النسيس مرقس وقد مات بعد وصوله انطاكية بيومين فانما لطمت وجهها وتذبت سوء حظها ولكنها تحولت حالاً الى الخان واعلقت باب غرفتها واطلعت لنفسها عنان البكاء وجعلت تعد ما اصابها من الاحن منذ ولادتها وكما قاست من المصاعب والمشاكل والاختار حتى اذا دنا وقت سعادتها وان لها ان تعرف والدها وهي ترجوان تكون معرفته سبباً في زيادة سعادتها داهها القدر بذلك النسل

وتذكرت مروان وما قاست من البلاء بسببه وتذكرت اسرها في الصحراء بين مكة والبصرة وما قاسته على اثر ذلك من الجرح وغيره . وغرقت في بحار الهواجس وتحنّنت نعاسها وودت ان تموت فتخلص من العذاب . ولما تمت الموت اجفلت وبدمت لانها تصورت محمداً وحبها لها وما ترجوه من السعادة فربو فقالت « لا . لا اموت بل احيا لاجل حبيبي واقصى مرادي وهو تعزيتي الوحيدة في هذا العالم فاذا خسرت الدنيا كلها وفاتني كل نعمها وحصلت على نعمه فذلك يكنيني »

ثم تذكرت ما قاله الامام علي للحسن يوم ساء لها ان يخضبها له فانه جعل غموض نسها مانعاً من زواجها بها فقالت في نفسها ان لي في وسط هذه النعاسة رجاء وبشري ان غموض نسبي يدني من محمد وبعدي عن سواء وهذا هو مرادي . . . ان الحسن لا يلتبس الزواج بي بعد . . . ولكن ربما كان ذلك عينه سبباً في اقصاء محمد ايضاً . ولما تصورت ذلك افشع ربدنها واطلمت الدنيا في عينها ولكنها عادت بشنة الى فكر انعاشها فقالت « واذا كان غموض نسبي يمنع محمداً من زواجي فهل يمنع من ان يكون اخي فنعيش معاً بقية حياتنا لا نتفرق ابداً . . . نعم اني اتحنن اخاً رفيقاً اتمنع بمشاهدته وحديثه »

وظلت اساءة في انطاكية بضعة ايام رثماً استراحت من السفر وقد انقطع حبل رجائها من قبيل اصلها واقتنعت ان تعيش مع محمد عيشة الاخوت مع اخيها اذا رأى هو ما يمنع

الزواج او اشار عليه علي* بذلك . ولكنها تذكرت الحكمين وما يخوفه الناس من حكمها فقالت اسمع حكم الحكمين ثم التمس مصرفاً لني محمداً فيها
وبعث خادمها يستطلع مكان الحكيم وزمانه فأبناها انه سيكون في اذرح
من اطراف الشام من اعمال السراة مواحي البلقاء وعان (١) في زمن معلوم . فلما دنا
الاجل تنكرت وسارت تلتبس اذرح والخادم معها

الفصل الثاني والثمانون

* حكم الحكمين وحيلة عمرو *

ولما جاء الاجل المعين لللاوة حكم الحكمين بعث علي* ابا موسى الاشعري في
اربعة رجل ومعهم عبدالله بن عباس . وبعث معاوية عمرو بن العاص في اربعة
من اهل الشام والنوا باذرح . وكان عمرو بن العاص قد استقدم كل دهائمه في
اقناع ابي موسى ان يوافقه على خلع علي وتولية معاوية لانه المطالب بدم عثمان فلم
ينفع فذكر تولية احد ابناء الصحابة كعبدالله بن عمرو وعبدالله بن الزبير . وبعد جدال
عنيف اتفقا على خلع علي ومعاوية وان يبخشا المسلمين واحداً غيرهما بالشورى . وكان
من دهاء عمر انه ما زال يدافع ابا موسى في الكلام حتى طاب هذا خلع الانبي
فاصبح هو البادى في الكلام عند اصدار الحكم

فلما جاء اليوم المعين واجتمع الناس من الاقطار وصلت اسماء ايضاً في ذلك
اليوم فوقنت بين الناس بحيث لا يعرفها احد فرأت ابا موسى وعمرأ في مجلس علي
دكة وبقيت الناس في جانب آخر وكان على رؤوسهم الطير ينتظرون ما يكون
من الحكم

فوقف اولاً ابو موسى فأصغى الناس لمناو فقال بصوت عال بحيث يسمعه
الحاضرون كافة « ايها الناس انما قد نظرنا في امر هذه الامة فلم نرَ اصح لامرها ولا
الم لشعبها من امر قد اجمع رأيي ورأي عمرو عليه وهو ان نخلع علياً ومعاوية

وبولي الناس امرهم من احبوا . واني قد خلعت عليا معاوية فاستنبلوا امرهم وولوا من رأيتهم اهلاً » قال ذلك ونفخ

وكان لقوله وقع عظيم ولبث الناس ينتظرون قول عمر فاذا هو وقف وقال « ان هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه (علياً) وانا اخلع صاحبه كما خلعه واثبت صاحبي معاوية فانه ولي ان عنان والطالب بدمي واحق الناس بمقامي »

فلما سمع اصحاب علي قوله علموا انه غدر من عمرو وعمل من ابي موسى وابنوا بالفشل ووجهوا ابا موسى واسوه فقال ما العمل وقد غدر بي

اما اساء فلما سمعت القولين علمت ان معاوية قد اشد ساعته وان رجال علي لا بد ان ينقسموا بين من يقل الحكم ومن لا يتقبله فلم تعد نستطيع صرا على البقاء هناك فخرجت من بين الجميع لا تلوي على شيء وقد صغرت نفسها . وما زالت سائرة والخدام معها حتى انت شجرة منفردة في الصحراء فاستظلت بها وشغلت الخادم بتدبير الجوادين وخلت بنفسها فجمعت تنكر في حالها وما اتفق لها من النشل المتوالي من كل الوجه وخصوصاً موت القيس وضياع اسم والدها وفشل رجال علي وخروج الخلافة من يد بحكم الحكمين . فغلب عليها اليأس فلم تر لها فرجاً الا بالبكاء والعيب فنظرت الى ما حولها فاذا هي منفردة وليس من يسمع بكاءها فاطقت لنفسها العنان حتى كاد يغني عليها وما زالت تشفق وتزداد شقيقاً كلما ذكرت علياً او والدها او محمداً . حتى نعت وجف دمعها فالتفت رأسها على حجر وبامت ولكنها لم تستغرق في النوم فتراى لها طيف محمد فأفاقت مذعورة وهي تقول « اهلاً بحبيبي لا تعزية لي الا بـ . . . انه في مصر الآن . . . هل من يعلم بما حل بامر الخلافة ان عمراً قد كاد فيها كيداً عظيماً . . . آه يا محمد هل من حيلة تخدم بها علياً رجل هذه الامة . . . لا اظن الا مبعده الآن الا صائراً الى معاوية

» اما انا المسكينة اليئسة المجهولة النسب والتعمية الحظ فربما كنت انا وحدي سبب هذا البلاء وربما كانت تعاسي هي التي جرت كل هذه المصائب لكي اموت مقهورة » وسكنت هنيئة ثم انتهت بغنة وهي تقول « محمد محمد . . . انت تعزيتي في احزاني ومصائبي هلم لي اليك فأعيش بقربك فالك لدي افضل من الوالد والوالدة والاخ والاخت . انت ملجائي وملاذي . ولكن علياً سيدي وفخري بل اذهب اليه واموت في الدفاع عن امره . ولكن »

الفصل الثالث والثمانون

* الخوارج في الكوفة *

وفيا هي تخاطب نساء لخت الخادم عائداً بالجوادين وهو يسرع نحوها
فقال ما وراءك

قال التفت ولما اسرح الجوادين بشرزمة من رجال الشام ركضوا مسرعين وفيهم
عمرو بن العاص وكلهم فرحون بما نالوه وسمعت عمراً يقول لقد استقام لنا الامر ولم
يبق عليّ الا ان افتح مصر فاذا دانت لي عدت الى ولايتها ثم لا يبقى في يد علي الا
العراق والحجاز فمجرد عليها ونفخها

فلما سمعت ذكر مصر وفتحتها اقبلت بدنياً وتذكرت محمداً فيها فقالت في نفسها
بل اذهب الى مصر الآن وارى ما يا ول اليه امرها . ثم التفت الى الخادم وقالت
وما ظلك في مسيرهم الى مصر

قال لا ادري متى يسبرون ولكن لا بد لهم من الشخوص الى الشام اولاً وتدير
امورهم ثم يميلون على مصر

فابيت من نتردين ان يسير الى مصر لترى محمداً او الى الكوفة لترى علياً وما
آل اليه امر الخلافة عند . فلما رأت امر الحملة على مصر بطيئاً عوّلت على قصد الكوفة
سريعاً ثم تعود الى مصر بعد ان تخار علياً بنجدة محمد . ولكنها رأت ان تكذب الى
محمد تخبر بعزمها وتبثه باحوالها استعداداً للناء فكبت اليه ما نصه :

« من اسماء المحبة العيسة الى حبيبها محمد بن ابي بكر

« اذ لم يكن بلغك ما اصابني بعد سفرك الى مكة اخبرك اني يميت الشام ابحت
عن اسم والذي فرأيت حامل السرافر الى بيت المقدس فليت هناك مدة فاسيت
فيها من الخطر والعذاب اليأساً قصها عليك متى اجتمعنا ان شاء الله ثم فررت الى
بيت المقدس اسأل عن القيس حامل السرفقالوا انه سار الى انطاكية فنصبتها
فاً بطاً حضوره . وتلت في اثناء ذلك بجملة اهل الشام على مولانا امير المؤمنين في
صنين فحضرت المعركة وشهدت ما نصبة عمرو بن العاص من الحيل برفع المصاحف ثم

ما كان من امر التحكيم ما اظنه يبلغك من انذنة هذه الغاية ولكني متى التقيت بك اقصة عليك مفصلاً

واما الآن فاكتب هذا اليك والقلب لولا الامل بليّك ذاب وطار شعاعاً . فقد اصبحت بتيمة حزينة مجهولة النسب لان ذلك الفيس الشيخ قضى نحبه واما في صفيين . ولا تسأل عن حالي لما رجعت الى الطائفة ورأيت الناس يحفلون بمجازه فقامت وكنيت وانجحت ولولا الامل بقرئك لتضيت على تنسي بالنمل . وكيف يلذه طعام او منام لفناء احدقت بها التماسه وتولتها الخوس من كل جاسب لم تشرع في امر الا فشلت . فاصبحت يا محمد بتيمة غريبة متروكة لا اعرف من هو والدي بعد ان رجوت بان يكون احد كبار الصحابة . فضلاً عما اتتني من البلاء بسبب ذلك الرجل الاموي ولا اسمي لان اسمه يؤلمني

« واعلم ان كل ما فاسيته من الشفاء اعني من ذاكرتي مجرد الامل بليّك حبيبي ومنتهى املي محمد . . . آه ما لذ ذكر هذا الاسم بنفي »
« وكنت قد عولت على القدوم اليك على اثر حكم الحكمين اليوم لو لم اكن في شاغل على حال الخلافة وعلى مولاي وفخري بل فخر المسلمين كافة اعني يا الامام علي امير المؤمنين . فما اني شاخصة الى الكوفة لعلني استطيع خدمته ثم آتي اليك . ويكنيني من قربك ان اراك واسمع حديثك . وارجو ان يكون لي نصيب في جددك فاذا حمل عمرو بن العاص على مصر كما سمعت لا يلقي فيها مفوقاً يسلمها اليه فتعارب سوية فاما نعيش معاً واما نموت معاً والسلام »

ولنت الكتاب وجعلته في انبوب من القصب ودفعته الى الخادم وارصته ان يوصله الى محمد بن ابي بكر في مصر وبقي هناك حتى تأتني هي لانها ستلقني بوجالاً . فمضى الرسول وبقيت هي وحدها وبعد قليل ركبته الى اذرح واستأجرت دليلاً سار في ركاها الى الكوفة وهي مع ذلك ميالة الى مصر لان قلبها هناك وخصوصاً بعد ان سمعت بعزم عمرو على فتحها فوصلت الكوفة بعد ايام فلم ترَ علياً فسألت عنه فقبل لها انه خرج لحرب الخوارج في النهر وان

فالت ومن هم الخوارج

قالوا هم الذين تقوا على علي لانه رضي بالتحكيم
فالت اعوذ بالله من هؤلاء القوم يحملون امير المؤمنين على قبول التحكيم ثم

ينتمون عليه لانه قبل به

وفكرت في الامر ومصيره وشاورت نفسها في الذهاب لصنع عليّ او الخروج الى مصر لمشاهدة محمد . وقضت في ذلك اياماً وفيما هي تفكر فيه ذات يوم رأت في الكوفة هرجاً واضطراباً ففلمت ما ذلك . فالتفت اليها ان الامر استنام في الشام لمعاوية حتى انتد الى مصر من ينفها انذ عمراً فاتحها الاول . فأرسل عاملها بذلك الى الامام يستنجد

فلم يبق عدها شك في المسير الى مصر فأسرفت الى جوادها وركبت وقد يشت ما اصابها من الفشل وتولاها من الحس وسارت وهي تغل نفسها بقلها محمد حيث لا رقيب ولا مناصر . وكات قد ملّت الاسفار والاطار على غير جدوي فعولت في اطن سرها ان تقيم في مصر لا تلتفت الى شيء . وهي لا تدري و أساء عليها بما ينتظرها هناك ما لم يخطر لها ببال ولا يستطيع الصبر عليه انس ولا جان

الفصل الرابع والثمانون

* فتح مصر *

قد تقدم ما كان من اجتماع دعاة عثمان في مصر وعزل قيس بن سعد عنها بما دعه معاوية من الحيلة حتى افسد ما بينه وبين علي . وما كان من تولية محمد بن ابي بكر . فلما تولاها محمد بعث رجلاً من خاصته لحرب اهل خربت القائمين بدعوة عثمان فقتلوه . وما ظم امرهم وفسدت مصر كلها على محمد . فداع ذلك علياً فقال ما لمصر الا احد الرجلين يعني قيساً او الاشتر وكان قد عزل قيساً فلم يرجع اليه فبعث الى الاشتر وكان قد عاد بعد صنين الى عمله في الجزيرة . فلما حضر اخبره خبر مصر وقال ليس لما غيرك فاخرج اليها فاني لو لم اوصك اكنيت برأ بك . فخرج الاشتر وشخص الى مصر . وانت معاوية عيونك بذلك فعظم عليه وكان قد طمع بمصر لكثرة خيراتها يستعين بها على اعماله وحروبه . فعلم ان الاشتر ان قدمها كان اشد عليه من محمد بن ابي بكر وكان على حدود مصر يومئذ بلد اسمه القلزم بالقرب من مكان السويس يغلب للقدام من الشام الى مصر ان يمر فيه وكان القلزم في حوزة معاوية

فبعث معاوية الى صاحب خرجه في القلزم يخبر بمسير الاشرار الى مصر وقال له « فان كنتينيو لم آخذ منك خراجاً ما بقيت وبقيت »
فلما مرّ الاشرار بالقلزم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده فأنه بطعام فلما أكل أنه بشربة من عسل قد جعل فيها سمّاً فسقاه فمات فظلمت مصر بامرّ محمد بن ابي بكر . فازداد طبع معاوية فيها وهو يرجو منها خيراً فاستشار عمرًا فقال عليّ بها اني فانحما الاول ومن أولى بها مني . وجرد جيشاً كبيراً وسار قاصداً مصر فلما علم محمد بمخائله بعث الى الامام عليّ يستجده وعلمت اسماء بذلك فقدمت كما مرّ

وكان محمد لم ينظر اسماء منذ افترقا في الصرع يوم خرج مع اخنوخ المؤمنين الى مكة . وكان قد علم بها دار بينها وبين الامام عليّ على اثر وقعة الجمل بشأن خطبتها للحسن . اخبر بذلك الحسن نفسه وهو لا يدري انه مناظر عليها . فاخبره كيف ان والده جعل غموض نسبها مانعاً من زواجه بها فسرّ ذلك وهو على يقين من بقاء اسماء على عهد . واخبر الحسن ايضاً انها سارت الى بيت المقدس لاستطلاع اسم والدها . ونظراً لانشغالها بامارة مصر وما احاط بها من المشاكل وما قام فيها من الثورات المتوالية التي اضرم نارها دعاة عثمان في خربتها وغيرها لم يتمكن من مكائبتها ولكنه كان يسأل عنها ويتجسس اخبارها . فكان نارة يعرف مقرّها وطورها لا يعرفه . واخر ما علمه انها كانت في مجلس الامام عليّ يوم خالفة اصحابه في قبول التحكيم وسبع ما اظهرته هناك من الحمية والغيرة فنذكر حديثها ونصورها امامه نشير يديها ونتكلم ونهدد فارتاح لتلك الذكرى واشتاقته نفسه للقياما

على انه تذكر ما رآه الامام عليّ في غموض نسبها حتى جعله مانعاً من الاقتران بها فقال في نفسه « اذا عرفت والدها كان امرها مشكلاً لان الحسن لا يتخلى عنها واذا ارادها الحسن وطلها والده فكيف اطلبها انا » فلما تخيل ذلك عظم عليه الامر حتى ودّ ان لا تعرف والدها فتكون اقرب اليه ولو بدون اقتران . وسوّلت له الغيرة ان لا يأخذها احد منها خير من ان يأخذها الواحد دون الآخر

وما زال يردد هذه التصورات في ذهنه حتى جاءه كتاب اسماء الاخير من اذرح وعلم بموت النسيب وضياح السر وما نشير اليه اسماء في كتابها من رغبتها في

المعيشة معه كاختٍ او صديقة فتحقق صدق مودتها وبناءها على العهد فانبسطت نفسه وابتهت بتتظر عودتها وهو يكرر تلاوة الكتاب وقد استأنس بولائه هاج اشتجائه بعد ان طال زمن الفراق وكان كلما تلا الكتاب تصوّر اسماء واقفة بين يديه تخاطبه وتخاطبها

ولكن استثناسه بتذكرها لم يطل لانشغاله بهام الحرب . فبينما هو ذات يوم في النسطاط عاصمة الديار المصرية في ذلك الحين جاءه عيونته بجبراهل الشام وانهم حاملون عليه بقيادة عمرو بن العاص

وكان عمرو قد كاتب محمداً يطلب اليه التسليم فارسل محمد الكتاب الى علي يستنجد فكتب اليه علي ان يجمع شيعته ويندبهم للقتال ووعده بانفاذ الجيوش . فأخذ محمد في التأهب بن عده من الرجال فجهز كنانة بن بشر في النين وسار هو في اثر بالنين

اما عمرو فانه دخل مصر من الشرقية وجعل يشرح الكتائب كتيبة بعد كتيبة وكمانه يلقي كتائبه ويفرقها حتى كاد الفشل يحيط بجيود الشام لولم تأتهم نجدة قوية بقيادة معاوية بن حديج فاشتد أزرم

اما جند مصر فلم تأتهم نجدة لتقاعد اهل العراق عما دعاهم اليه علي ولكنهم حاربوا حرباً شديدة دافعوا فيها دفاع الابطال ونزل كنانة عن فرسه وما زال يقاتل حتى قتل (١)

الفصل الخامس والثمانون

* محل الواقعة *

وسارت اسماء من الكوفة وهي كلما تقدمت نحو مصر ازدادت هولاجها على محمد . وكانت قادمة وحدها على جوادها فاضطرها ذلك الى المسير بجوار المدين استئناساً بالاس ومخافة العطش في الصحراء والجواد لا يبصر على العطش فسارت على

ضفاف الفرات ثم تحولت الى الشام حتى وصلت دمشق فسمعت هناك بسير حملة عمرو فأخذت تبحث عن الغالب فعلمت ان عمراً بعث يستنجد معاوية وإن جيش مصر غالب . فسرت ولم تلبث في دمشق إلا ربنا استراحت وركبت تلتمس مصر . ولما دنت من العريش وقبل لها انها على حدود مصر تذكرت ما قاله رئيس دبر البصرة عن والدتها وانها ولدتها في مصر وانها عرفت بزيدا هناك . فهاجت احزانها ولكن افكارها بمحمد شغلها عن كل ذلك

ولما دخلت مصر مرت اولاً بالفرما وهي مدينة كانت في ما يجاور سور سعيد الآن . وما صدقت انها وصلت هناك حتى اخذت تبحث من حال الحرب بين محمد وعمرو فاخبروها ان عمراً جاءه النجدة بعد ان كاد ينشل فتشدد ولحظت من خلال حديث النوم انهم على دعوة عمرو وانهم مبالون الى معاوية فاتمضت نفسها وخرجت من الفرما لاتلوي على شيء وبجئت عن مكان القتال فقالوا انه في ضواحي الفسطاط فجدت في السير . وهي في كل سفرها لاتام من الليل الا قليلاً حتى وصلت بليس فرأت اهلها في هرج ورأت جماعة من الناس يدخلونها وفيهم من ربط يده او شد ذنبه او عصب راسه فعلمت انهم عائدون من قتال . فاضطربت حولها واستنهت منهم عما كان فقالوا ان جنود الشام تكاثروا بما انضم اليهم من اهل مصر من هم على دعوة عثمان وقد بايعوا معاوية وهو بعيد . وان كرامة بن بشر قتل وتشتت جند مصر . فسألت عن محمد فلم يبينها بخبر مخبر فاخناج قلبها في صدرها فقالت ومتي كان ذلك . قالوا كانت الواقعة اول امس وان عمراً دخل الفسطاط

وكانت الشمس قد مالت الى المغرب فلم تستطع صبراً فركبت وخرجت تلتمس مكان الواقعة وهي سائرة وعيناها شائعة الى الامام لاتبالي بما ينهدما من الخطر وسدل الليل نقابة فلم تعد تستطيع التطلع الى بعيد وخافت ان تنبه عن الطريق فلبثت تفكر في الامر وهي سائرة الهويناء وقد تهيأت للدفاع بسلحتها اذا اعترضها معترض فما لبثت ان رأت الافق يبرق ثم اطل القمر وضاء فتلقت بالترحاب واحمت عند رؤيته بانفراج الازمة ولكنها رأت بعضه ناقصاً وهو قبل ربعه الاخير فخل لها لشدة مواجهتها بالحرب انه خارج من المعركة وقد شطب وجهه بالسيف ولما طلع القمر استنارت به وجدت في السير تلتمس الفسطاط . وكانت لما خرجت

من بليس ترى بعض المارة قادمين اليها افراداً وازواجاً ولكنهما لم تكذب تبعد عنها حتى خلت الطريق من الناس فظننت نفسها سائرة في طرق لا تؤدي الى السيطرة فوقفت وتبينت الجهات جيداً فرأت انها اخطأت الجهة والتفتت فلم تر امامها الا صحراء قاحلة فخرجت يميناً حتى اصبحت في ارض زراعية وسارت تلمس الجنوب والقرى الى يسارها يعلو رويداً رويداً حتى اصبح يربها الاشباح عن بعد . ووادي النيل ارض منبسطة لا جبال فيها ولا اودية

ومضى معظم الليل وهي سائرة حتى تعبت وجاعت واحست بالبرد وهو شديد في مصر بعد منتصف الليل حتى في ابان الصيف . فترجلت ومشت تلمس الدفء وقادت جوادها وراعيها والجواهدي والارض خالية من الناس لا تسمع غير وقع حوافر فرسها وشخير

وفيما هي ماشية تذكر في حالها سمعت جوادها يصهل وقد اجتل فالتفتت الى ما اجتله فرأت شجراً منظره على الارض واشتمت رائحة النانة . فدنّت من الشجعة فاذا هوجئة قبيل جانفة فتمتق قلبها وعلمت انها على مقربة من مكان الواقعة فتشدت وتجلدت وقد شعرت منذرأت تلك الحجة بارتعاش نسبته الى البرد وما هو في الحقيقة الا نتيجة ما طرق ذهنها من التصورات المرعبة عن محمد

ومشت والجواد وراعيها والروائح تتعاطف ثم رأت جوادها اجتل ثانية اجتالاً عظيماً من جيفة جواد وراعيها جيف كثيرة نظارت عنها النور معلقة في الجو وصفت بطيرانها تصفيقاً زاد الفرس اجتالاً . فارتبكت في امرها وهي تود البحث بين تلك الجيف مخافة ان يكون محمد بينهم والجواد يمنعها باجفال وصهيل فعمدت الى شجرة شدته اليها وعادت وقلبها يخفق وركبتها تزعج وعيناها شاخصتان الى تلك الساحة وفيها البحث ملقاة ازواجاً وانثاء وبين اولئك الفئ من استلقى على ظهره وبسط ذراعيه كأنه يسقط طفلاً يستغيث به ولكنه حوّل وجهه الى احد المجانين كأنه شعر بفيح منظره وقد جعله اللي جلدأ على عظم واكلت بعضه النور — لئلا يخاف الولد منه . ورأت آخر مكأ على بطنه وقد قبض باحدى يديه على رمح وبالاخرى على التراب ورأت هناك رؤوساً مدرجة وجثثاً بلا رؤوس متراكمة بعضها فوق بعض . وارهب ما رآه رجل وامرأة مانا متعائنين ولم تعرف المرأة الا من ثوبها لان الوجوه لم تعد تميز

ولا ازبدك علماً بحالة اماء ساعئذ فقد كانت فخرُ نفسها جرّاً بين تلك الحبيف وهي تحاذر ان تدوس على يد او رجل أو رأس وقلبياً يخفق خفقاناً شديداً تكاد تسمع صوته في اذنها . ولو تأتى لها ان تنظر الى وجهها برآة لرأته اشدّ امتناعاً من وجوه تلك الجئث . وتعبت من التنفس بالوجوه والسياب واثرت تلك الرائحة الكريهة في رأسها مع ما كانت فيه من التعب والجوع فأصابها دوار وخافت ان تسقط فوق التلّي فاستدركت نفسها ونجحت الى الشجر التي شدّت فرسها اليها وجلست هناك ولم يكدت رأسها الى جذعها تلمس الراحة . ولكن افكارها ظلت نائمة ولم تبرز صورة محمد من امام عينها . ولم تكد تلقي رأسها حتى غلب عليها الدماس فانغمضت جنبها فتصوّرها محمد متولاً فارتعدت فرائصها ونهضت مذعورة . وفيما هي تنهض رأت الفرس يده رأسه الى الارض فالتفت اليه فرأته ألنقط شيئاً مضغاً بين اسنانه فسمعت له فشيئاً كفتش القصة اذا كسرت بين الاضراس ثم ما لبثت ان رأت الفرس يلفظ تلك الهناة فلحمت فيها شيئاً ايض فتناولته فاذا هو قصبة وفيها رق هو كتابها الى محمد لا يزال في قصبتها كما ارسلته اليه فازداد بالمالها وتحققت ان محمداً كان في تلك الواقعة وتلك القصة معه فسقطت من جيبه في اثناء الدفاع . . فابن هو . . . وكانت قد بسست من وجوده هناك وفي ذلك اليأس فرج لانها لتحقق نجاته من تلك الواقعة فلما وجدت كتابها خافت ان يكون محمد قتل هناك فعادت الى الجئث تبحث فيها

وكان الفرس قد تكبد السماء وصفا الجو وظهر كل شيء امامها جلياً واضحاً كأنها تنظر اليه في رابعة النهار . وهي لا تحناح في مجئها عن محمد الى نعمين ونهر ولولحت طرف ثوبه او بعض عمامته ولو عن بعد لعرفته لان صورته نصب عينها . ولكن الاثواب والمائم تشابه . فلا تسل عن خفتان قلبها وارتعادها كلما رأت شيئاً يشبهه



الفصل السادس والثمانون

* البحث عن محمد *

وما زالت في ذلك حتى لاح الفجر وتبينت الوجوه فدارت بين القنلى تجدد البحث فطلع النهار وهي تجول وتفرس فلم تر أثراً لمحمد ففحفت انه لم يقتل في تلك المعركة . فلما سكن روعها من هذا التنبيل احست بالتعب والتعاس والجوع فالتفت الى ما حولها فرأت بيوتاً تكاد تنوارى لبعدها فعلمت انها منازل بعض اهل القرى فقولت اليها نلتبس طعماً لها وعلناً لجوادها فوصلت المكان وحيّت اهله . فرأت هناك امرأة معها صبيان عراة يحومون حولها وهي تخلب لم لباً من غنمة . فلما رأى الصبيان اسماء فادمة على فرسها صاحوا بهم فزعت وفزعوا جميعاً . فتركوا الغنمة ودخلوا الكوخ فنادتهم اسماء وطيبت خاطرهم فعادوا فقالت لم هل عدكم علف لهذا الجواد قالوا نعم واعذروا لخوفهم بانهم قاسوا في تلك الاثناء اموالاً من الجند الهارب لانهم كانوا يتهبون كل ما تصل اليه ايديهم

فأكرموا وفادة اسماء وجاؤاها باللبن والجوادها بالعلف والتست حصيراً تنكح عليه فنهض صاحب الدار فأخذ الفرس وشده الى وتد وجاء بحصير كان قد خبأه تحت فراشه اعواماً حرصاً عليه فانتكأت اسماء على ذلك الحصير في ظل الكوخ ونامت نوماً عميقاً لم تنق منه الا قبيل الغروب

ولم تفتح عينها حتى رأت رسولها الاخير الذي انتذنه الى محمد من اذرح واقفاً عند رأسها فصاحت فيو اين كنت ومن اين اتيت . . اين هو محمد

فعض على شفتي السفلى وأشار بعينيها اليه مس سكوته لئلا يسمعا احد اهل البيت فنهضت ونظت اهل الكوخ عطية لئلا خدمتهم وسلمت الفرس الى ذلك الرسول ومشت الى جانبه وسألته عما يعلمه عن محمد ومكانه وما الذي جاء به الى ذلك المكان فقال ابشري يا مولاتي ان مولاي محمداً قد نجا من هذه الواقعة

فقالت واين هو . . وماذا تم له اخبرني

قال اعلي يا سيدتي اني ما فارقت سيدي محمداً يوماً واحداً منذ جئته بكنابك

وقد آتست فيه انعطافاً نجوي لا ادري سببه وحيثما توجه سرت في ركابك اما راجلاً او راكباً . ولما كانت الواقعة منذ يومين في هذا السهل وقتل كنانة بن بشر فائد مقدمو تفرق رجاله عنه حتى اصبح وحيداً فالتحمت عليه ان يخرج من المعركة خيراً من ان يقتل

فلما وصل الرسول الى هذا الحد امتنع لون اسماه وشخصت ببصرها لسماع نمة الحديث وخفق قلبها

فقال « واما هو فقد كان عازماً على البقاء في ساحة القتال الى الموت فألتحمت عليه بالخروج فأطاعني فمشينا حتى انتهينا الى خربة (١) في ناحية الطريق بالقرب من هذا الجبل (وإشار الى المنظم) فأوبأ اليها خائنين . وقد مضى علينا هناك يومين بلا طعام ولا ماء . فلما رأيت سيدي ظمأ استأذنته في الخروج لاتي به بعض الماء والطعام واوصاني ان ابحت عن كتابك فقد كان في جيبه اثناء المعركة وفقد منه »

فقالت « اما الكتاب فقد وجدته بل وجدته هذا الجواد . وابن هو محمد الآن هلم بنا اليه ومعه الماء »

فقال « انه حيث قلت لك على مسافة قصيرة من هنا »

قالت « احمل له الطعام والماء وهلم بنا »

قال « الا تظنين علينا بأسأ »

قالت « لانتبئ الشمس ان تغيب ويخيم الظلام فلا يرا احد . وارى ان نتي هذا الفرس هنا لئلا يدل علينا »

فأخذ الرجل الفرس وعاد الى الكوخ . وبعد قليل رجع بفرسة مملوءة ماء وبأرغفة وشيء من الجبن

الفصل السابع والثمانون

﴿ الخربة ﴾

مضيا وقد خيم الظلام والرجل يمشي امامها يدلها على الطريق وهي تكاد تعثر

بأذيالها للهبتها وسرعتها . وقضت مسافة الطريق لا تنكلم لانشغال خاطرها بما تتوقعه من التأثير عند لقيا محمد

وقضيا ساعة سائرين والليل دامس لا يكادان يميزان الطريق لولم بكل جبل المقطم ظاهراً امامهما في الافق . فجعلاه وجهتهما لان محنباً محمد بالقرب منه . وكانا يمران نارة بن خيام وأوتة في اعشاش او أكواخ صغيرة حتى وصلا الى جانب المقطم فتقدم الرجل وسارت اسماء في اثره ومشى هو يتلمس الطريق بين انقاض بعض الاخرية وهي تتبعه وقلبها يخفق توقعاً لليلة التي ستصيبها عند المواجهة بعد طول الغيبة . وكان قلبها يرقص فرحاً لما تتصور انها أنه بالماء والطعام

وبعد هنيهة اخفى الدليل في ظلمة مدلمة هناك فنادته بصوت مخنض فقال اننا وصلنا . فدخلت في اثره الى بيت خرب لم يبق منه الا الجدران وبض السقف ولم تكد تدخل حتى سمعت الرجل يقول « ابن انت يا مولاتي » فلم يجبه احد . فقالت اسماء « العلة كان هنا وغاب »

قال « نركنه في هذه الخربة »

قالت فلننتش عنه في غيرها لعل الخرب تشابهت عليك . وفشأ كل الخرب المجاورة فلم يقنأ له على اثر حتى تعبوا ولاماً التفتيش فقالت اسماء « ما ظلك بسبب نغيو » قال « لا ادري واخشى ان يكون عمرو قد عرف بمكانه فبعث في القبض عليه وهو اعزل لا سلاح معه »

فلما سمعت ذلك افزع برديها وقالت « وكيف العمل الآن »

قال « ابي رهين اشارتك في ما تأمرين »

قالت « عد بنا الى حيث كنا نلتك هناك الى الصباح ثم تسير انت للبحث عنه » قال حسناً . وعادا حتى اتيا الكوخ وعرفاه من صوت الفرس فانه حالما اشنم رائحة الفادمين حتى سهل ورفس الارض بحافره وبانت اسماء عند تلك المرأة وبكر الرجل في الصباح للبحث عن محمد ومكانه ولبثت هي هناك في انتظاره



الفصل الثامن والثمانون

﴿ خبر الفاجعة ﴾

وابطاً الرجل في رجوعه فانشغل خاطر اساء وندمت لانها لم تسر في التفتيش معه . واضحت الشمس ولم يرجع فازداد قلها ولم يعد بطبيب لها مقام فمشت وراء تلك الاكوخ الى الجهة التي تتوقع ان يكون رسولها قادماً منها حتى بعدت مسافة . وفيما هي تتطلع في آخر الطريق رأت شجراً مسرعاً نحوها عرفت من قيافتها رسولها فاخناج قلبها وتخصت اليه ببصرها لترى ما يبدو منه فاذا هو ما زال مسرعاً حتى وصل اليها وهو يلهث من شدة التعب وقد علته البغنة واحمرت عيناه وكلل العرق جبينه فصاحت فيه ما وراءك .. قل .. ما خبرك ... هل وجدت محمداً .

قالت ذلك وقلبها يزداد في الحنق

فقال وهو يلهث لها شديداً « آه يا مولاتي ... نعم وجدته ... ولكنه ... ولكنه في خطر القتل ... »

فصاحت « وكيف ذلك ومن يقتله »

قال « انهم غاروا على مكاني في الخربة قبل وصولي اليها بالامس ... آه ضاق صدري من التعب امهلي لا تشق الهوى ... وقد دلم علي بعض ابناء الحرام فعملوه وهو اعزل الى الفساط ... »

فقالت « وبعد ذلك .. ما ذا جرى »

قال — لما مضيت من عندك في هذا الصباح تصدت الفساط رأساً لاني اعلم انه لا يذهب الى مكان اذا لم يقبضوا عليه فوصلت الجامع وتظاهرت بالصلاة فرأيت هناك عمرو بن العاص وعبد الرحمن بن ابي بكر اخا سيدي محمد وسمعت عبد الرحمن يقول لعمرو « انتقل اخي صبراً ابث الى ابن حديج فانهوته » ^(١) فعلت ان معاوية بن حديج هو الذي قبض عليه ويريد قتله . فطار صواحي ووددت ان اعرف ابن هو ابن حديج لاسير اليه فسمعت عمراً يقول لبعض رجاله « اذهبوا الى ابن

(١) ابن الاثير ح ٣

حديث ان يكف عن قتل محمد وبأبيني به « فخرجت في اثر ذلك الرسول حتي وصلت الى مكان وسط بين الخربة والنسواط رأيت فيه جمعاً متكاثراً بينهم ابن حديث ومعه رجاله احاطوا بهولاي محمد وقد رق جسمه من العطش والجوع ٠٠٠ آه من اولاد المحرام ٠٠٠ ونقدم رسول عمرو الى ابن حديث وابلقه امر عمرو فاجاب « قتلتم كنانة ابن بشر واخلي انا محمداً اكفاركم خير من اولئكم هيهات هيهات »^(١)

ولا نسل عن اسماء وشدة اصغائها لمقال الرجل وكيف كان وجهها يتلون . فلما سمعت ذلك الكلام تطاولت بعنفها وحدثت ببصرها لتري ما تم بعد ذلك وهي تقول « جزاهم الله شراً على هذا القول ٠٠ لا لا اظنه يقتله بلا امر عمرو ولكنه اسماء الادب »

فقال الرجل ولو اقتصر اسماءه على ذلك لكان خيراً ولكنه منع سيدي الماء فقد سمعته باذني طلب منهم ان يسقوه فقال له ابن حديث بوقاحة واستخفاف « لاستاني الله ان سقيتك قطرة ابدأ انكم منعتم عثمان شرب الماء والله لاقتلك حتي يسقيك الله من الحميم والفساق »^(٢)

فلما سمعت اسماء ذلك قالت « خسي النذل » واصاحت بسمها . فاتم الرجل كلامه وقال — فاجابه سيدي محمد « يا ابن اليهودية النساجة ليس ذلك اليك انما ذلك الى الله بسقي اوليائه ويظني اعداءه انت وامثالك اما والله لو كان سيني بيدي ما بلغت مني هذا »

فلم تعد اسماء تستطيع صبراً على استماع الحديث وهي تود ان تعرف النتيجة عاجلاً فقالت « وماذا جرى اخيراً »

قال سمعت ابن حديث يقول له « اتدري ما اصنع بك ادخلك جوف حمار ثم احرقه عليك بالنار »

فصاحت اسماء والدمع يتساقط من عينيها وهي تتشدد وتجلد « خسي ابن اليهودية والله انه لا يجسر على ذلك »

فقال الرجل « فلما سمعت قول ابن حديث اسرعت لاخبرك لاني رأيت في اوجه النوم المبادرة الى الشر »

فالتفتت اسماء وراءها فرأت الكوخ بعيداً ولا سبيل لها الى الرجوع ولم تعد
نمالك عن المبادرة الى محمد فقالت « وهل المكان بعيد من هنا »
قال انه قريب

فقالت هلم بنا اليو . ومشت وهي لا تدري كيف تنقل قدميها لعجلتها ولعناتها والرجل
لا يستطيع اللحاق بها لانه كان لا يزال نعباً وليس في قلبه نار تستجبل خطواته كما
تستجبل خطوات اسماء . فمشت نصف ساعة ولم تدرك المكان فندمت لمجيئها ماشية
وقد كانت نظن المسافة اقصر من ذلك

الفصل التاسع والثمانون

﴿ قضي الأمر ﴾

ثم اشرفا على ساحة . فقال الرجل « كانوا في هذه الساحة والظاهر انهم ساروا
الى الفسطاط » فمشت حتى انت المكان الذي كانوا فيه فرأت آثار دم وكان
شيئاً جروحاً على الارض جرحاً . فارنعدت فرائصها وجد الدم في عروقها وصاحت
« ويلاه ويلاه انهم قتلوه . . . قتلوه . . . آه يا محمد يا محمد . . . يا حبيبي »
فقال لها الرجل « وكيف عرفت ذلك »

قالت « اما ترى الدم وانار جر الجثة » قالت ذلك ولطمت وجهها وانحدرت
الدمع على خديها ومشت تتبع آثار الجر وعيناها لا تريان الطريق لما يغشاها من
الدمع ولم تمش قليلاً حتى اشممت رائحة شواء . فمسمحت عينها وتطلعت فرأت دخاناً
يتصاعد من خربة . فأبقت انهم قتلوه واحرقوه في جوف الحمار كما قالوا

فهرولت الى الخربة لا تالوي على شيء فرأت هناك جيفة حمار حولها النار موقدة
وجوفها مشقوق فتفرست في ذلك الشق فرأت من خلال اللهب رأس محمد مغمض
العينين كأنه في سبات عميق فصاحت « محمد يا محمد . . . لند صح قولم وفعلوا
ما ارادوا انهم قتلوه فقلهم الله » وهمت ان تلتقي نفسها في النار فأمسكها الرجل بثوبها
ونقدم اليها ان لا تتعل . فطمت وجهها وحلت شعرها واخذت في الندب والمويل

وهي تسمع عينها كل لحظة وتنظر الى حبيبها من خلال اللهب فتراه لا يزال نائماً فتناديه
فلا يجيب فنهم^١ مان تلقى نفسها فوقه والخادم يسكنها
فضاقت بها الحبل فجعلت تدور حوله وتندبه بل تدب نفسها وتقول « آه
بالعاسي وثقائي .. آه يا حبيبي يا محمد انك لم تصب حنك الا لنحس طالعي ولو
لم احبك لم تمت .. وبلاء واسفاه ماذا اعدد من النحوس المكددة بي ... لم يبق
عندي شك في اني ولدت شوماً على نفسي وعلى كل من هم حولي ... ولدت لا أعرف
والدي ولما دنا زمن معرفتي اياه ماتت امي ... آه يا والدتي الحنونة
نزلت في دار عنان فقتل ذلك الخليفة وكان قتله شوماً على الاسلام فقامت الفتنه
وقتل فيها جماعة من خيرة الصحابة . قتل فيها طلحة والزبير والوف من المسلمين توسدوا
الثرى وجرت دماؤهم مجرى الانهر . وسعيت في ثلاثي الفتنه بقلبي وبدي ولساني فلم افز
لان التفادير كانت تعاكسني . بكفني ما قاسيته من مروان . ثم فتح لي باب اعرف به
والذي الحقيقي ورجوت ان يكون احد كبار الصحابة فما زالت الاحوال توخرني
ونقدهني حتى مات حبل السر قبل ان اراه . ولا ريب انه كان في شوق ان يطلعني
على ذلك السر اكثر من شوقي انا للاطلاع عليه

« نعم عاكسي الدهر ولكنه لم يصب مني . تتلاً لان آمالي كانت عالقة بك يا حبيبي
يا محمد ... قلتُ بكل مصائبي املاً بلقائك وقعت انت اعيش معك بعيشة
الاخت او الخادمة او الامة ... ولكن آه .. آه .. لولا هذه الآمال لم تُقتل انت لانك
انما قتلت لتمام تعاسي فانا هو سبب القتل ... كيف تموت .. كيف يخاطب بدنك
بالتراب بل كيف تموت هذه المونة الشنيعة وابقي انا حية ... كلاً ثم كلاً ... »
قالت ذلك والتفت نفسها في اللهب قبل ان يبادر الخادم الى منعها فالتهب شعرها
ولكن الرجل اسرع الى اطفائهم بعد ان اشتعل معظمه ولغ بعض وجهها وهي ما
زالت تحاول الفاء نفسها في اللهب عن غير هدى وتقول « اتركوني دعوني انام
مع حبيبي محمد ... دعوني اعاقه »

فاسندها الرجل وحملها الى جانب فأجلدها على الارض وقلبه يكاد يتنطر على
حالمها وخاطبها فلم تسمع . ثم افافت من غفلتها فنظرت الى اللهب وقالت بصوت
خافت « لقد مات عطشاناً فكيف اشرب الماء . بعده وقد مات جائعاً فكيف آكل

الطعام بعده . . . انت روح اسماء فكيف تعيش اسماء بلا روح . انك آمال اسماء فكيف نحيا اسماء بلا آمال . . . آه ما احلى الموت وما الله « ثم وقفت بغنة والفتنت الى ما حولها كأنها استيقظت من رقاد وقالت بلهجة الجدد والسكينة « وأفضل من الموت يحيا بك ان آخذ ببارك . . . ولكن من . . . انهم اجعلوا على هذه المصيبة . . . أاستجد الامام علياً ولا اراني الا شؤماً عليه ولم يعمل عملاً منذ عرفني الا عاد بالنفس عليه . أأعيش لاريد نعاسة مولاي الامام علي رجل هذه الامة وخيرة من مشى على سطح الارض بعد الرسول (صلم) . . . انك امير المؤمنين بالرغم عنهم اجمعين . . . ولكنهم اجعلوا على خلافك طمعا في الدنيا وامت لا مطمع لك الا في الآخرة الآخرة . . . »

ثم سكنت هنيئة وهي مطرقة كأنها تفكر في امر ذي نال ثم قالت « الآخرة . . . نعم ان الآخرة خير من هذه الدنيا دنيا الشقاء . . . هل نلتقي هناك بعد الموت . . . أجل نلتقي . . . لا بد من عالم آخر نلتقي فيه لار الله عادل لا يرصى ان اقضي شباهي سعيًا في تعزيز كلمته وبصرة اس عم سبه قلب محاص وبينة سلمية ولا ارى من نتيجة انعابي غير اللاء والشقاء . ثم ارى حبيبي ومنتبه املي بمحرق امام عيني في جيفة منقنة وهو ابن اول الخائن وشقيق زوج الرسول الطاهرة . . . فلا بد من عالم آخر ينال فيه كل ذي حق حقه . هناك نلتقي . . . نلتقي هناك . إذن لماذا اعيش هنا . . . الزيادة الشقاء وما في ثنائي حبة بعد تعبد الا طول اغترابي عنه . . . بل كيف يموت محمد وابني انا بعبدة عنه والموت احسن وسيلة تحميني به . دعوني احترق بناره فيخلط رمادي برماده كما احرقني في حياتي فاتخذ فؤادي بنواده . . . الموت الموت »

قالت ذلك وهمت بان تلقي نفسها في اللهب ثم انحجبت ووقفت والتفتت الى يمينها ويسارها كأنها تنتش عن شيء . . . ثم نظرت الى السماء وصاحت « بل اموت فالتي هناك والدي ايضا فعاها ان تخبرني عن اسم والدي » ثم جست رأسها بيدها فرأته غارباً من الشعر وشعرت بما اصابها من الحرق فلم تنال بل تقدمت الى تلك الجيفة المتهبة وكانت النار قد اكلت معظمها فنظرت الى وسطها لعلمها ترى رأس محمد ثانية فاذا هو قد اسود ولم يعد يتميز من سائر اجزاء الجيفة فصاحت

« محمد محمد : . محمد . . الوداع الوداع يا حبيبي يا أملي يا رجائي يا أخي يا شقيقي
 يا سيدي . . . الوداع الوداع . . . لا بل اللقاء اللقاء . . . كيف اودعك ونحن
 ذاهبان معاً . . . اللقاء اللقاء يا ما أحلى اللقاء ولو في النار . . . »
 قالت ذلك وألقت نفسها في اللهب كانتا تعانق محمدًا ووجهها فوق
 وجهه . . فاسرع الرجل الى انتشالها فاذا هي تخرج اختلاج الموت وكان اللهب
 قد ختمها
 فكى الخادم لذلك بكاء مرًا وصبر حتى سجدت النار فجمع رفات المحبين وضماها
 الى مدفن واحد وترحم عليها

﴿ انتهت الرواية ﴾

هكذا انتهت حياة عذرائنا القرشية بعد ما قاسته من العناء في نصره الحق فلم
 تلق غير الشقاء . ولا غرو اذا بكاهها الفارئ فقد بكيناها قبله . وهي تمثل التعاسة
 التي تحقد ببعض اولى الصل فلا ينالون جزاء لنصهم وكرمهم غير الشقاء ولولا
 تأسيسهم بدار الخلد لما اتوا حزاني بائسين
 ويعزُّ علينا ان تكون نهاية هذه الرواية محزنة وهي اول رواية ختمناها على هذه
 الصورة ولكن حوادثها قضت علينا بذلك . وكيف يكون ختامها غير محزن وفناها
 التي مدار حديثنا عليها علقت بمحمد بن ابي بكر الذي قضى التاريخ بموته على هذه
 الصورة . فقد قضى عليها بالتعاسة منذ أحبته وذلك شان الخلق يسرون في الحياة
 الدنيا لا يدرون مصيرهم ولا ما خبائنه الا قبل ان لهم فقد يفرحون بكسب اوية هجون
 بملود او يلذون بحبيب . والاقدار توعدهم بهذا بعواظهم حتى اذا جاءهم امر من
 ربهم راوا غير ما يرجون وذاقوا غير ما يتوقعون . والله في خلقه حكمة لا تدرکها العقول

المملوك والشبشا

✽ رواية تاريخية ادبية . الطبعة الثانية ✽

✽ تأليف منشيء الهلال ✽

تتضمن حوادث مصر وسوريا في النصف الاول من هذا القرن وفيها شرح وافٍ عن اوصاف الامير بشير الشهابي الكبير والمغفور له محمد علي باشا وولده المرحوم ابراهيم باشا مع ذكر احوال بري مصر والشام واخلاق اهليهما اثنا المئة المشار اليها . ووصف الحروب التي جرت اذ ذاك في مصر والشام والمورة مع الاشارة الى الحملة الفرنسية واستعبابها

والمحور الذي تدور عليه الحكاية المملوك الشارد وهو المملوك الذي نجى من مذبحه المالك في القلعة . والرواية تشوق الى القراءة لتناسق حوادثها ولا يبدأ قارىء بمطالعها الا اضطرراً الى انماها بالرغم عنه . عدد صفحاتها نحو مائتي صفحة . ثمنها ٨ غروش مصرية واجرة البوسطة غرث ونصف

فلاح عشنا

✽ رواية تاريخية غرامية . جزآن ✽

✽ تأليف منشيء الهلال ✽

في الحلقة الاولى من سلسلة روايات تاريخ الاسلام واسمها يغني عن وصفها شرح فيها المؤلف ظهور الاسلام وانتشاره وما آلت اليه حال العرب بعد ذلك مع بسط حال جاهليتهم وما قاموا به وما كان لظهور الاسلام من التأثير في سائر احوالهم وعاداتهم واخلاقهم ما لا يمكن الوقوف عليه الا بمطالعة المجلدات الضخمة ثم ما كان من الجهاد في نشر الاسلام وما تم على اثر ذلك من الفتح في جزيرة

العرب والشام والعراق . ومن ابطالها جيلة بن الايهم ملك غسان وابوعبيدة
ابن الجراح قائد جند المسلمين في الشام وخالد بن الوليد والقعمان بن المنذر
وهرقل امبراطور الروم وفيه تنصيل فتح مكة وبصرى ودمشق وبيت المقدس
والمداين وواقعة اليرموك والقادسية ووصف الكعبة وكيف تكسرت اصنامها
وغير ذلك . وقد نشر الجزء الاول منها في السنة الخامسة « الهلال » والجزء الثاني
في السنة السادسة ثم نشر الجزء الثاني على حدة . ثمن كل منها عشرة غروش واجرة البوسطة
غرش ونصف وثن الجزئين معاً بما فيه اجرة البوسطة ٢٢ غرشاً

إِسْمَاءُ ابْنِ الْمُنْشِيَّةِ

✽ رواية تاريخية غرامية . الطبعة الثانية ✽

✽ تأليف منشيء الهلال ✽

هي الحلقة الثانية من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وتشتغل على اهم حوادث
التاريخ الاسلامي واكثرها تعلّقاً باقطر المصري اعني ظهور الاسلام وفتوحاته
وخصوصاً فتح مصر وبيان حقيقة اسباب ذلك الفتح وما كان من حال القبط
مع الروم وشرح احوالهم وعوائدهم واخلاقهم وملابسهم منذ ثلاثة عشر قرناً او هي
عبارة عن تاريخ فتح مصر في صدر الاسلام مع تثيل حركات الجند وملابسهم
ومداولات القواد في خيامهم ونصورهم وما جال في خواطرهم مكتوباً على اسلوب
حكاية يقرأها المطالع ولا يل بل يزداد اشتياقاً لمطالعنها وهو يحسب نفسه يقرأ قصة
فكاهية فلا يأتي على آخرها الا وقد فهم تاريخ الفتح وحوادثه كأنه شهيد بنفسه . ومن
ابطالها عمرو بن العاص والمقوقس حاكم مصر والاعيرج قائد جند الروم
فيها وغيرها . ثمنها ١٠ غروش مصرية واجرة البريد غرش ونصف



التلخ العجنا

✽ تأليف مؤلف هذا الكتاب ✽

الجزء الاول

ينضم مختصر تاريخ ممالك اسيا وافريقيا القديمة والحديثة بعد ذكر مقدمات
جغرافية عمومية وحكاية الخليفة والطوفان وتغرق الانسان
وفي الكتاب كثير من الرسوم لزيادة الايضاح . وعدد صفحاته ٢١٦ صفحة
وفيه من الرسوم ٢٥ رسماً ثمة ٨ غروش مصرية واجرة البوسطة غرش واحد

جغرافية مصر

✽ تأليف مؤلف هذا الكتاب ✽

الطبعة الثانية

طبعت الطبعة الاولى لهذا الكتاب في اواخر سنة ١٨٩١ ولم تخلص سنة ١٨٩٢
حتى نذرت نسخة كلها وزاد اقبال المطالعين على اثنائه فاعيد طبعه ثانية . ولما
كانت تقاسيم المديريات والمحافظة لا تبنى على حالها زماناً طويلاً لما يطرأ عليها
من التغيير والتبديل لما تراه الحكومة من تجديد التنظيم والترتيب فقد كاتب المؤلف
كل مديرية ومحافظة على حدة وتلقى الاستعلامات الحقيقية عن آخر تقسيم لما حتى
تكون هذه الطبعة أكثر تدقيقاً من سابقتها واوفر فائزاً . ثمن النسخة ٣ غروش مصرية
واجرة البوسطة ٢٠ بارة ولما اربع خارطات ثمنها غرشان

تاريخ انكلترا

✽ تأليف مؤلف هذا الكتاب ✽

صدر الجزء الاول من تاريخ انجلترا وفيه تاريخها من اول عهد ما الى
انقضاء دولة البوركية سنة ١٤٨٥ مزيناً بالرسوم والاشكال ثلثة ٤ غروش صاغ
واحدة البوسطة ٣٠ مارة

مَطْبَعَةُ الْمَلِكِ

لما رأينا اقبال الناس على الكتابة والتأليف والطبع والنشر مع اشتغال
مطبعتنا في الاكثر بطبع مطبوعاتنا الخصوصية حتى كثيراً ما كنا نضطر
الى الاعتذار عن طبع شيء للمؤلفين الآخرين . فبعثنا نستحضر عدداً اخرى
من أتعبن طرز واجمل وضع في اوربا فوق ما لدينا من العدد وقد وصل منها
آلة « ماكينة » كبيرة من طرز الوزبه المشهور بدقته وسرعته فاصبحت
مطبعة المللك مستعدة للقيام بطبع الكتب على ما اشتهرت به من الجودة
والانقان . واذا كان صاحب الكتاب او مؤلفه خارج القاهرة لم يوف حال
تحول بينه وبين مراجعة المسودات فالمطبعة تقوم بذلك بعد المخاطرة



